http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ } ؛ بلِ اتَّخذ الكفارُ من دون اللهِ أربَاباً ، { فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَلِيُّكَ يَا مُحَمَّدُ وَوَلِيُّ مَنِ اتَّبَعَكَ) { وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى } ؛ يَبعثُهم للجزاءِ ، { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ } ؛ من الإحياءِ والإماتَةِ ، { قَدِيرٌ }.

(٠/٠)

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ } ؛ معناهُ : وما اختلفتُم فيه من شيءٍ من الدِّين فرُدُّوا حُكمَهُ إلى كتاب الله ، واعتَمدُوا الأدلَّةَ دون التقليدِ والشبه كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ }[النساء : ٥٩].
وقولهُ تعالى : { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي } ؛ الذي ادعُوكم إلى عبادتهِ وهو اللهُ ربي ، { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } ؛ في كِفَايَةِ مهمَّاتِي ، { وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } ؛ أي أرجعُ في المعادِ.

(٠/٠)

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي هو مُبتَدِعُهما ومدبرُهما ، { جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ

أَزْوَاجاً } ؛ أي خَلَقَ لكم من مثلِ خَلقِكم نساءً ، وَ خلقَ لكم ، { وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْواجاً } ؛ ذُكوراً وإناثاً لتَكمَلَ منافعُكم بها ، يعني خلقَ الذكرِ والأنثى من الحيوانِ كلِّه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ } ؛ أي يَخلقُكم في الرَّحِم ويُكثِرُكم بالتزويجِ ، ولولاهُ لم يكنِ الناسُ.

وقولهُ تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } ؛ في العلمِ والقدرةِ والتدبيرِ ، { وَهُوَ السَّمِيعُ } ؛ بمقالَةِ العبادِ ، { الْبَصِيرُ } ؛ بأعمالِهم ، والكافُ في { كَمِثْلِهِ } زائدةٌ مُؤكِّدَةٌ ، والمعنى : ليس مثلهُ شيءٌ ، إذ لا يجوزُ أن يقالَ : ليس مثلَ مثلهِ شيءٌ ؛ لأن مَن قال ذلكَ فقد أثبتَ المثلَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذلِكَ عُلُوّاً كَبيراً.

(٠/٠)

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي له مَفاتِيحُها ، قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيدُ مَفَاتِيحَ الرِّزْقِ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ). وقال الكلبيُّ : (مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ خَزَائِنُ الْمَطَرِ ، وَخَزَائِنُ الأَرْضِ النَّبَاتُ).

والمعنى أنه يقدِرُ على فتحِها ، يَملِكُ فتحَ السَّماء بالمطرِ ، وفتح الأرضِ بالنبات ، يدلُّ على هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ } ؛ أي يُوسِّعهُ على مَن يشاءُ ، ويُضَيِّقهُ على مَن يشاءُ ؛ لأن مفاتيحَ الرزقِ بيدهِ ، { إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ؛ من البَسْطِ والضِّيقِ ما لا يفعلُ ذلك جُزَافاً ، ولكن يرزقُ كلَّ أحدٍ على ما تُوجِبهُ الحكمةُ.

(٠/٠)

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ } ؛ أي بَيَّنَ وأوضحَ من الدينِ ، { مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً } ؛ يعني التوحيدَ ، { وَالَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ } ؛ من القرآن وشَرائعِ الإسلامِ ، { وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } ؛ وشرعَ لكم ما وصَّى بهع إبراهيمَ وموسى وعيسى.

ثم بيَّن ما وصَّى به هؤلاء فقال : { أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ } ؛ يعني التوحيدَ ، { وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ } ؛ أي لا

تختلِفُوا في التوحيدِ ، قال مجاهدُ : (يَعْنِي شَرَعَ لَكُمْ وَلِمَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الأَنْبِيَاءِ دِيْناً وَاحِداً ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْ نَبيّاً إلاَّ وَصَّاهُ بإقَامَةِ الصَّلاَةِ وَإيْتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالإقْرَار باللهِ تَعَالَى وَالطَّاعَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ أمَرَهُ اللهُ بهِ ، فَذلِكَ دِينُهُ الَّذِي شَرَعَهُ لَهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } ؛ قال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : عَظُمَ عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ مَا دَعَاهُمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَالإخْلاَصِ لَهُ وَحْدَهُ وَخَلْعِ الأنْدَادِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ } ؛ أي يصطفي من عباده لدينه من يشاء ، { وَيَهْدِي إِلَيْهِ } ؛ إلى دينهِ ؛ { مَن يُنِيبُ } ؛ أي مَن يُقبلُ إلى طاعتهِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : اللهُ يختارُ لرسالتهِ مِن يشاءُ مِمَّن تقتضِي الحكمةُ اختيارَهُ ، ويَهدِي إلى جنَّتهِ وثوابهِ مَن يرجعُ إلى طاعتهِ.

(٠/٠)

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ } ؛ أي ما اختلفَ اليهودُ والنَّصارى إلاَّ من بعدِ ما وَضُحَ لهم أمرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنَّهم كانوا يَعرِفُونَهُ كما يعرفون أبناءَهم ، فأنكرَ مَن أنكرَ مِن علمائِهم للبَغيِ والعداوةِ على طلب الدُّنيا ، خافُوا أن تذهبَ عنهم رئاسَتهم ومكانتهم ، وأن يصِيرُوا تابعِين بعد أن كانوا مَتبُوعِين ، فتركُوا اسمَ الإسلامِ ، وقولهُ تعالى { بَغْياً بَيْنَهُمْ } أي بَغياً منهم على مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

قولهُ تعالى : { وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ } ؛ أي لولاَ حُكمِ اللهِ بإنظارهم وتأخيرِ العذاب عن هذه الأُمة { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } يعني يومَ القيامةِ { لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ } أي بين مَن آمنَ ومَن كفرَ بنُزولِ العذاب بالمكذِّبين في الدُّنيا. وقولهُ تعالى : { وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ } ؛ يعني اليهودَ والنصارى أُورِثُوا التوراةَ من بعدِ أنبيائهم وأسلافِ أحبارهم ، { لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ } ؛ من دينِ الإسلام ظاهرِ الشكِّ.

(٠/٠)

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ } ؛ أي فلذلكَ الذي سبقَ ذِكرهُ ، يعني الذي وصَّى به الأنبياءُ من التوحيدِ فادعُ. وَقِيْلَ : معناهُ : فلأجلِ ما وقعَ منهم من الشكِّ فادعُ واستقِمْ على دينِ الإسلامِ كما أُمِرتَ ولا تتَّبع أهواءَ أهلِ الكتاب ، وذلك أنَّهم دعَوا إلى دينِهم ، { وَقُلْ آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ } ؛ أي آمنتُ بكُتب الله كلِّها. وإنما قالَ ذلك لأنَّ الذين تفرَّقوا آمَنُوا ببعضِ الكُتب دون بعض. وقوله تعالى : { وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ } ؛ أي أُمرت أن لا أحيفَ عليكم بأكثرَ مما افترضَ اللهُ عليكم في الأحكامِ.
وقولهُ تعالى : { اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ } ؛ أي إلهُنا وإلَهُكم وإن اختلفَتْ أعمالُنا ، وكلٌّ يجازَى بما عَمِلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ } ؛ لنا جزاءُ أعمالِنا ولكم جزاءُ أعمالِكم ، لا يُؤاخَذُ أحدٌ بعملِ غيره ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ } ؛ أي قد ظهرَ الحقُّ وسقطَ الباطلُ ، ومع ذلك الحجَّة لنا عليكم لظهُورها ، وقولهُ تعالى : { اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا } ؛ وبينَكم في الآخرةِ فيُجازي كُلاً بعملهِ ، { وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ }.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ } ؛ أي والذين يخاصِمُون في دينِ الله من بعد ظُهور دلائلهِ ، وهم اليهودُ والنصارى قالوا : كتابُنا قبلَ كتابكم ، ونبيُّنا قبلَ نبيِّكم ، فنحن خيرٌ منكم! فهذه خصومَتُهم وإنما قصَدُوا بما قالوا دفعَ ما أتَى به مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، وقولهُ تعالى : { مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ } أي من بعدِ ما دخلَ الناسُ في الإسلامِ وأجَابُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى ما دعَاهُم إليه ، { حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ } ؛ أي خصومتُهم باطلةٌ حين زعَمُوا أن دينَهم أفضلُ من الإسلامِ ، وقوله { عِندَ رَبِّهِمْ } أي في حُكم ربهم ، وإنما قالَ ذلك لأنَّها لم " تكن " باطلةً في زعمِهم ، { وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ } ؛ من اللهِ ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } في الآخرةِ.

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } ؛ معناهُ : اللهُ الذي أنزلَ القرآن بالحقِّ ؛ أي بما ضَمَّنَهُ من الأمرِ والنهي والفرائضِ والأحكام ، وكلُّه حقٌّ من اللهِ تعالى. وقولهُ تعالى { وَالْمِيزَانَ } اختلَفُوا في إنزالِ الميزان ، قال الحسنُ ومجاهد والضحَّاك : (أرَادَ الْعَدْلَ) وإنما كنَّى عن العدلِ بالميزان لأنَّ الميزانَ طريقٌ معه العدلُ والمساواة.

وقال بعضُهم : أنزلَ الميزان الذي يوزَنُ به في زمنِ نوحٍ عليه السلام. وقال ابنُ عبَّاس : (أمَرَ اللهُ بالْوَفَاءِ ، وَنَهَى عَنِ الْبَخْسِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ } ؛ هذا تخويفٌ للمشركين من قُرب الساعة لينْزَجِرُوا ، وقد كان قومٌ من المشركين سأَلُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الساعةِ تَكذيباً بها ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ، وإنَّما قال { قَرِيبٌ } ولم يقل قريبةٌ ؛ لأن تأنيثَ الساعةِ غيرُ حقيقيٍّ كما في قولهِ تعالى{ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ }[الأعراف : ٥٦] ولأن معنى الساعةِ البعثُ.

(٠/٠)

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا } ؛ والذين يستعجِلون بها قصدَ الإتيان بها استِبعاداً لِقيامِها لأنَّهم لا يؤمنون بها ، وهذه طريقةُ الْجُهَلاَءِ في كلِّ شيء يجحَدُونه من حقائقِ الأمُور.

وقولهُ تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا } ؛ أي خائِفُون منها لاَ يَدرُون على ما يُقدِمون عليه لأنَّهم موقنون أنَّهم مبعُوثون مُحاسَبون ، { وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ } ؛ أي الساعةُ لا ريبَ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فَي السَّاعَةِ } ؛ تدخُلهم الْمِرْيَةُ والشكُّ في القيامةِ ، { لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ } ؛ حين لم يفكِّروا فيعلَمُوا أن الذي خلَقَهم أوَّلاً قادرٌ على بعثِهم.

(٠/٠)

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ } ؛ أي بارٌّ رحيم بهم ، يعني أهلَ طاعة ، وقال مقاتلُ : (لَطِيفٌ بالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، لاَ يُهْلِكُهُمْ جُوعاً) ، يدلُّ على هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ } ؛ وكلُّ مَن رزقَهُ اللهُ من مؤمنٍ وكافر ذي روحٍ ممن يشاء أن يرزقَهُ ، { وَهُوَ الْقَوِيُّ } ؛ على ما أرادَ من رزقِ مَن يرزقهُ ، { الْعَزِيزُ } يعني الغالبُ الذي لا يلحقهُ عَجْزٌ فيما أرادَ. واللطيفُ هو الْمُوصِلُ للنفعِ إلى غيرِهِ من جهةٍ يدُقُّ استدراكُها.

(٠/٠)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ } ؛ أي مَن كان يريدُ بعملهِ نفعَ الآخرةِ { نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ } أي نُعِينهُ على العبادةِ ، ونسَهِّلُ له ، وَقِيْلَ : نزِدْ له في ثوابِهِ الْحَسَنَةَ بعشرِ أمثالها. وَقِيْلَ : نزِدْ له في قوتَّهِ ونشاطهِ وخِشيَتهِ في العملِ ، كما قالَ تعالى{ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا }[العنكبوت : ٦٩].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا } ؛ أي ومَن كان يريدُ بعملهِ نفعَ الدُّنيا من رزقٍ أو مَحْمَدَةٍ ، { نُؤْتِهِ مِنْهَا } ؛ ما نشاءُ على ما تقتضيهِ الحكمةُ ، { وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ } ؛ مِن ثوابٍ ؛ لأنه عَمِلَ لغيرِ الله ، قال السديُّ : (هَذا الْمُنَافِقُ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلمُ يُعْطِيهِ سَهْمَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ).

(٠/٠)

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ } ؛ يعني كفارَ مكَّة أَلَهُمْ آلِهةٌ سَنُّوا من الدينِ والشريعةِ ما لَم يعلمِ اللهُ به ؟ قال ابنُ عبَّاس : (شَرَعُوا لَهُمْ دِيْناً غَيْرَ دِينِ الإِسْلاَمِ) { وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } ؛ أي لولاَ حكمُ الله بأن يَفصِلَ بينهم يومَ القيامةِ لعاجَلَهم بالعقوبةِ ، { وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ أي وجيعٌ في الآخرةِ { تَرَى الظَّالِمِينَ } ، الذين يكذبونك خائفين يوم القيامة ، { مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ } ؛ مِن الكفرِ والتكذيب ، { وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ } ؛ أي وجزاؤهُ واقعٌ بهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ } ؛ الرَّوضَةُ : هي البستانُ الجامع لأنواعِ الرَّياحين ، والجنَّةُ هي البستانُ الجامعُ لأنواعِ الشَّجر ، { لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ } ؛ مِن النعيمِ في حكمةِ ربهم ، { ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } ؛ أي الْمَنُّ العظيمُ من اللهِ تعالى.

(٠/٠)

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } ؛ أي ذلك الذي سبقَ ذِكرهُ من النعيمِ يبشِّرُ اللهُ عبادَهُ المؤمنين المخلِصين.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى } ؛ أي لا أسألُكم على تبليغِ الرسالة ؛ أي تعليمِ الشريعةِ أجْراً ، وهذا دأبُ كلِّ نبيٍّ مع قومهِ ، وقولهُ تعالى : { إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى } أي لاَ أَسأَلُكم عليه أجراً إلاَّ أن تَصِلُوا ما بيني وبينَكم من القرابةِ. قال ابنُ عبَّاس : (لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ إِلاَّ وَلِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَرَابَةٌ فِيْهِمْ).
والمعنى : قُل لا أسألُكم على ما أدعُوكم إليه من الحقِّ إلاَّ أنْ تحفَظُوني في قرابَتِي بيني وبينكم. وقال مجاهدُ : (مَعْنَاهُ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَى مَا أَقُولُ أَجْراً ، أَرْقُبُونِي فِي الدُّعَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَلاَ تَعْجَلُوا إِلَيَّ وَدَعُونِي وَالنَّاس). وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : إِلاَّ أَنْ تُؤَدُّوا إِلَى اللهِ فِيمَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ).

وعن ابنِ عبَّاس قالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ { قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى } قَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْمُرُنَا اللهُ بمَودَّتِهِمْ ؟ قَالَ : " عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَوَلَدَهُمَا " ".

وعن عليٍّ رضي الله عنه قالَ : (قَالَ فِينَا ، فِي آلِ مُحَمَّدٍ ، فِي حَمِ آيَةً لاَ يَحْفَظُ مَوَدَّتَنَا إِلاَّ كُلُّ مُؤْمِنٍ ، ثُمَّ قَرَأَ : { قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى }) ، وقال الكلبيُّ : (مَعْنَاهُ : لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَى الإِيْمَانِ جُعْلاً إِلاَّ أَنْ تُوَادُّوا أَقَارِبِي ، حَثَّ اللهُ النَّاسَ عَلَى مَوَدَّةِ ذوي قَرَابَتِهِ).

وعلى الأقوالِ كلِّها قولهُ { إِلاَّ الْمَوَدَّةَ } استثناءٌ ليس من الأوَّلِ ، وليس المعنى : أسألُكم المودَّةَ في القُربَى ؛ لأن الأنبياءَ لا يسألُون أجْراً على تبليغِ الرسالة ، والمعنى ولكنِّي أُذكِّرُكم المودةَ في قرابَتِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً } ؛ أي ومَن يكتَسِبْ حسنةً نُجازيه عليها أضْعَافاً ، بالواحدةِ عشراً فصاعداً ، { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } ؛ لذُنوب الناسِ ، { شَكُورٌ } ؛ للقليلِ حتى يُضاعفَهُ.

(٠/٠)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً } ؛ يعني كفَّارَ مكَّة قالوا : اختلَقَ مُحَمَّدٌ كَذِباً حين زعمَ أن القرآنَ من عندِ اللهِ ، فَاغْتَمَمْتَ لذلكَ يا مُحَمَّدُ ، { فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ } ؛ أي يَرْبطْ على قلبكَ بالصبرِ على أذاهُم حتى لا يشقَّ عليك قولُهم ، { وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ } ، ويُذهِبُ اللهُ ما يقولون من الباطلِ ، { وَيُحِقُّ الْحَقَّ } ؛ يعني الإسلامَ ، { بِكَلِمَاتِهِ } ؛ أي بما أنزَلَ من كتابهِ ، وقد فعلَ اللهُ ذلك فأزهقَ باطلَهم وأعلَى كلمةَ الإسلام ، { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ؛ أي بما " في " قُلوب خَلقهِ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } ؛ مِن خيرٍ

وشرٌ ، مَن قرأ بالتاءِ فهو خطابٌ للمشركين وتَهديدٌ لَهم ، { وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } ؛ أي يُجِيبُهم ما سألوهُ. قال ابنُ عبَّاس : (يُثِيبُهُمْ) ، { وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ } ؛ سِوَى ثواب أعمالهم تفَضُّلاً عليهم ، وقال أبو صالِح : (يُشَفِّعُهُمْ فِي إِخْوَانِهِمْ) ، { وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ }.

(٠/٠)

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي لو وسَّعَ على عبادِهِ لطَغَوا وتطاوَلُوا ، وقال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : لَوْ وَسَّعَ اللهُ لِعِبَادِهِ فَرَزَقَهُمْ مِنْ غَيْرِ كَسْبٍ لَعَصَواْ وَبَطَرُواْ النِّعْمَةَ وَطَلَبُواْ مَا لَيْسَ لَهُمْ أنْ يَطْلُبُوهُ) ؛ لأَنَّ الَّذِي يُوَسَّعُ عَلَيْهِ يَرْتَفِعُ مِنْ مَنْزِلَةٍ إِلَى مَنْزِلَةٍ ، وَمِنْ مَرْكَبٍ إِلَى مَرْكَبٍ ، وَمِنْ مَلْبَسٍ إِلَى مَلْبَسٍ ، وَيَسْتَطِيلُ بذلِكَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَسْتَعِينُ برزْقِ اللهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.
وقولهُ تعالى : { وَلَاكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ } ؛ معناهُ : ولكن يوسِّعُ على قومٍ ، ويُضَيِّقُ على آخَرِين على ما تقتضيهِ الحكمةُ ، { إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ } أي أعلَمُ بهم من أنفُسِهم ، منهم من يصلحُ له الفَقرُ ولو أغناهُ لكان شَرّاً له ، ومنهم من يصلحُ له الغِنَى ، ولو أفقَرهُ لكان شَرّاً له.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ } ؛ أي يُنَزِّلُ المطرَ من بعدِ ما يَئِسُوا منه ، { وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ } ؛ بإخراجِ النبات والثِّمار ، وَقِيْلَ : معنى (يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ) أي يبسطُ مَطَرَهُ ، { وَهُوَ الْوَلِيُّ } ؛ لِمَن أطاعَهُ ، وَقِيْلَ : وهو الوليُّ بإنزال المطرِ عَاماً بعدَ عامٍ ، { الْحَمِيدُ } ؛ المستحقُّ للحمدِ على خَلقِهِ بإنعامهِ عليهم.

(٠/٠)

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ } ؛ معناهُ : ومِن دلائلِ توحيدهِ خلقُ السَّموات والأرضِ بما فيهما من الشَّمسِ والقمر والنُّجوم والجبال والبحار والأشجار { وَمَا بَثَّ فِيهِمَا } أي وما فرَّقَ فيهما من الملائكةِ والناس وغيرِهم ، وَقِيْلَ : معناهُ : وما بثَّ في الأرضِ من دابَّة ، وهذا كقولهِ{ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ }[الرحمن : ٢٢] وإنما يخرجُ من أحدِهما ، { وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ } ؛ في الآخرةِ ، { إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ }.

(٠/٠)

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ } ؛ يعني وما أصابَكم من المعاصِي في النَّفسِ والمالِ والولدِ أو نكَبةِ حجَرٍ أو عثرَةِ قدَمٍ ، { فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } ، يعني المعاصِي ، { وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ } ؛ فلا يعاقِبُ بها لُطفاً بهم.

قال صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ خَدْشَةِ عُودٍ أوْ عَثْرَةِ قَدَمٍ أو اخْتِلاَجِ عِرْقٍ إلاَّ بذنْبٍ ، وَمَا يَعْفُو اللهُ تَعَالَى أكْثَرُ " وقال الحسنُ : (مَعْنَى الآيَةِ : وَمَا أصَابَكُمْ مِنْ حَدٍّ فِي سَرِقَةٍ أوْ زنَى فَبِمَا كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ).

وقال الضحَّاكُ : (مَا حَفِظَ رَجُلٌ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إلاَّ بذنْبٍ) وَقَرَأ هَذِهِ الآيَةَ وَقَالَ : إنَّ أعْظَمَ الذُّنُوب نِسْيَانُ الْقُرْآنِ).

وفي مصاحفِ المدينةِ والشَّام (بمَا كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ). قال الزجَّاجُ : (وَإثْبَاتُ الْفَاءِ أجْوَدُ لأَنَّ الْفَاءَ جَوَابُ الشَّرْطِ). وَمَنْ حَذفَهَا فَعَلَى أنَّ (مَا) بمعنى (الَّذِي) تقديرهُ : والَّذي أصابَكم وقعَ بما كسَبت أيدِيكُم) { وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ } ؛ يا معشرَ المشركين لا تُعجِزوني في السَّموات حيث كُنتم ، ولا تَسبقونَني هَرباً في الأرضِ ولا في السَّماء لو كُنتم فيهما ، { وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }.

(٠/٠)

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ } ؛ أي ومِن آياته الدَّالة على توحيدهِ وقُدرتهِ الجوَاري في البحرِ ، وهي السُّفُنُ جمعُ جَارِيَةٍ تجري في البحرِ ، { كَالأَعْلاَمِ } أي كالجِبَالِ الطِّوَالِ ، { إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ } ؛ معناهُ : إن شاءَ اللهُ يُسكِنِ الرِّيحَ التي تَجري بها السُّفنُ فيَبقينَ واقفاتٍ على ظهرِ الماء ، ويبقَى أهلُها حيَارَى لا يجدُونَ حِيلةً في الخلاصِ ؛ لأن ماءَ البحرِ راكدٌ لا تجري السفينةُ فيه إلاَّ بريحٍ تُجريهِ ، فذلك معنَى قولهِ تعالى : { فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ } ؛ يعني السُّفنَ رَوَاكِدَ ؛ أي ثوابتَ على ظهرِ البحر لا تجري ولا تبرحُ ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ } ؛ أي لدلاَلاتٍ على توحيد اللهِ تعالى ، { لِّكُلِّ صَبَّارٍ } ؛ على طاعتهِ ، { شَكُورٍ } ؛ على نِعَمِهِ. وَقِيْلَ : لكلِّ صبَّارٍ في الشدَّة ، شَكُورٍ في الرَّخاءِ.

(٠/٠)

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا } ؛ أي يُهلِكُهُنَّ بالريحِ العاصفِ ، ويُغرِقُهُنَّ ، يعني : أهلَهُنَّ { بِمَا كَسَبُوا } أي بما أشرَكُوا واقترَفُوا من الذنب ، { وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ } ؛ من ذنوبهم فيُنَجِّيهم من الغرقِ والهلاكِ. والمعنى : { أَوْ يُوبِقْهُنَّ } وإنْ يشَأْ يَعْفُ عن كثيرٍ فتَجري السُّفنُ على ما يشاؤونَ.

(٠/٠)

وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ } ؛ يعني أن الكفارَ الذين يكذِّبون بالقرآنِ إذا صَارُوا إلى اللهِ بعدَ البعثِ عَلِمُوا أنْ لا مهربَ لَهم من عذاب الله تعالى.
فمَن قرأ (وَيَعْلَمُ) بالرفعِ فعلى الابتداءِ من غيرِ أن يكون مَعطُوفاً على (وَيَعْفُ) لأنَّ عِلمَ اللهِ تعالى مقطوعٌ

به لا يجوزُ تعليقه بمشيئةٍ ، ومَن قرأ بالنصب فهو نصب على إضمار (أنْ) معناهُ : ولَئنِ يَعْلَمَ الذين يُنازعُونَ في آياتِنا بالتكذيب أنه لا مَخْلَصَ لَهم في الآخرةِ مِن عذابهِ ، كما لا مَخْلَصَ لأهلِ السَّفينة من البحرِ إلاَّ باللهِ.

(٠/٠)

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَآ أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ أي ما أُعطِيتُم من شيءٍ مما في أيدِيكم فهو متاعٌ يتمتَّعُ به إلى حين ، { وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى } ؛ من الثواب أفضَلُ وأدوَمُ مما في أيدِيكم ، ثم بيَّن اللهُ لِمَنِ الثوابُ فقالَ : { لِلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ } ؛ قد تقدَّمَ الكلامُ في الكبائرِ والفواحشِ في سُورة النِّساء ، قال مقاتلُ : (الْفَوَاحِشُ مَا يُقَامُ فِيْهَا الْحَدُّ فِي الدُّنْيَا). وَقِيْلَ : الفواحشُ الزِّنَى وأنواعهُ ، وكبائِرُ الإثمِ الشِّركُ ، كذا قالَ ابنُ عبَّاس. وقرأ حمزةُ (كَبيرَ الإثْمِ) على الوِحدان وهو يريدُ الجمعَ.
وقولهُ تعالى { وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ } أي يَكْظِمُونَ الغَيْظَ ويَعْفُونَ عمَّن ظلَمَهم ، ويطلبون بذلك ثوابَ الله وعَفوَهُ. وهذه الآيةُ نزَلت في أبي بكر رضي الله عنه حين أقبلَ رجلٌ من المشرِكينَ يَشتِمهُ ويقعُ فيه ولم يَرُدُّ عليه أبو بكرٍ رضي الله عنه.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨)

قولهُ : { وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ } ؛ أي أجَابوهُ إلى ما دعاهم إليه من التوحيدِ والعبادة ، { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } أي فعالاً مِن المشورةِ ، وهي الأمرُ الذي يُتَشَاوَرُ فيه ، يقالُ : صارَ هذا الأمرُ شُورَى بين القومِ إذا تشَاوَرُوا فيه.

والمعنى أنَّهم يتَشاوَرُونَ فيما يبدُو لهم ، ولا يَعجَلُونَ في الأمرِ. وقال الحسنُ : (وَاللهِ مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ إلاَّ هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى لأَفْضَلِ مَا بحَضْرَتِهِمْ). والمعنى : أنَّهم إذا حَدَثَ بهم أمرٌ لا نصَّ فيه من كتابٍ ولا سُنة ولا إجماعٍ ؛ شاوَرَ بعضُهم بعضاً لإظهار الحقِّ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ } ، معناهُ : الذين إذا أصابَهم البغيُ والظُّلم والعدوان هم ينتَصِرون مِمَّن ظلَمَهم ، قال عطاءُ : (يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ الّذِينَ أخْرَجَهُمُ الْكُفَّارُ مِنْ مَكَّةَ وَبَغَواْ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ مَكَّنَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي الأَرْضِ حَتَّى انْتَصَرُواْ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ).

قال ابنُ زيد : (جَعَلَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَيْنِ : صِنْفٌ يَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ ، فَبَدَأ بذِكْرِهِمْ فَقَالَ : { وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ }[الشورى : ٣٧]. وَصِنْفٌ يَنْتَصِرُونَ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ ، وَهُمُ الَّذِينَ ذُكِرُواْ فِي هَذِهِ الآيَةِ ، وَمَنِ انْتَصَرَ فَأَخَذ حَقَّهُ وَلَمْ يُجَاوِزْ فِي ذلِكَ مَا حَدَّ اللهُ فَهُوَ مُطِيعٌ للهِ ، وَمَنْ أطَاعَ اللهَ فَهُوَ مَحْمُودٌ).

ثم اعْلَمْ : أن أوَّلَ هذه الآيةِ يقتضي أنَّ الاقتصارَ بأخذِ الواجب من القصاصِ أو نحوه أفضلُ ؛ لأن اللهَ تعالى عطفَ هذه الآيةَ على الآيةِ التي ذكرَ فيها الاستجابةَ للهِ تعالى وإقامِ الصَّلاة.

وتكلَّمُوا في معنى ذلك ، قالَ بعضُهم : أرادَ به الانتصارَ مِمَّن فارَقَهم في دِينهم ، فأما مِن المسلمين فالانتصارُ مباحٌ ، كما قال{ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَـئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ }[الشورى : ٤١] والعفوُ أفضل ، كما قالَ تعالى{ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }[البقرة : ٢٣٧] ، وقال تعالى : { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ }[الشورى : ٤٠].

وقال بعضُهم : إذا كان العفوُ يؤدِّي إلى الإخلالِ بشيءٍ من حُقوقِ الله مثل العفوِ عن الفاسقِ الذي لا يرتدعُ ، والعفوِ عن الباغِي الذي لا يكون مُصِرّاً على قصدهِ ، فالانتصارُ أولى من العفوِ ، وإذا كان العفوُ لا يؤدِّي إلى إسقاطِ شيءٍ من حُقوقِ الله تعالى فالعفوُ أفضَلُ كما قالَ تعالى في آيةِ القصاص{ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ }[المائدة : ٤٥]. وفي بعضِ التَّفاسيرِ : إنما جُعِلَ الانتصارُ في أوَّلِ هذه الآياتِ أفضلَ لأنَّهم كانوا يَكرَهُونَ أن يُذلِّلُوا أنفُسَهم فَيَجْتَرِئُ عليهم الفُسَّاق.

(٠/٠)

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } ؛ فيه بيانُ أنه لا تجوزُ الزيادةُ على السَّيئة الأُولى ، وإنما سُميت الثانيةُ سيئة لأنَّها في مقابَلة الأُولى ، والأُولى سيِّئة لفظاً ومعنىً ، والثانيةُ سيئةٌ لفظاً لا معنى ، وسُميت بهذا الاسمِ لأن مُجازاةَ السُّوء لا تكون إلاَّ بمثلهِ ، قال مقاتلُ : (مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ فِي الْقِصَاصِ فِي الْجِرَاحَاتِ وَالدِّمَاءِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } ؛ أي مَن عفَى عمَّن ظلمَهُ وأصلحَ بالعفوِ بينه وبين ظالِمه فأجرهُ على اللهِ تعالى ، وقولهُ تعالى : { إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } ؛ يعنِي مَن يبدأُ بالظُّلمَ. وفيه بيانُ أنَّ اللهَ تعالى إنما نَدَبَ المظلومَ إلى العفوِ لا لِمَيلهِ إلى الظالِمِ أو لِحُبهِ إياهُ ، ولكن ليُعَرِّضَ المظلومَ لجزيلِ الثَّواب بالعفوِ.

(٠/٠)

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ } ؛ أي بعدَ ظُلمِ الظالِمِ إيَّاهُ ، فالمصدرُ ها هنا مضافٌ إلى المفعولِ ، كقولهِ : { مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ }[فصلت : ٤٩] و{ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ }[ص : ٢٤] ، { فَأُوْلَائِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ } ؛ يعني الذين يَبدَأُونَ بالظُّلمِ ، { وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } ؛ أي يعمَلون بالمعاصِي ، { أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }.

(٠/٠)

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ } ؛ يعني من صَبَر ولم ينتَصِرْ وغفرَ ، { إِنَّ ذَلِكَ } ؛ الصبرُ والتَّجاوُز ، { لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ } ؛ قال مقاتلُ : (مِنْ الأُمُور الَّتِي أمَرَ اللهُ بهَا) ، وَالْمُرَادُ بذلِكَ إذا كَانَ الْجَانِي نَادِماً مُقْلِعاً. وَالْعَزْمُ على الشيءِ هو أن يَعْقِدَ قَلْبَهُ على أنَّهُ سيفعَلهُ ، وكلُّها كانت رغبةَ الصابرِ في الثواب أكثرَ كان عزمهُ على التجاوُز أتَمَّ لتَيَقُّنِهِ بالخلَفِ والثواب.

(٠/٠)

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ } ؛ أي مَن يخذلْهُ الله بعنادِهِ وجُحودِهِ ، ويُضِلَّهُ عن الهدَى ، { فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ } ؛ أي ما لَهُ من أحدٍ يَلِي هِدَايتَهُ بعدَ إضلالِ الله إيَّاهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : مَن يُهلِكْهُ اللهُ ويُضَيِّعْهُ فما لَهُ من وليٍّ يَلِي أمرَهُ ويدفعُ عنه العذابَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَى الظَّالِمِينَ } ؛ أي ترَى المشركين يا مُحَمَّدُ ، { لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ } ؛ في الآخرةِ يسأَلُون الرجعةَ إلى الدُّنيا ، { يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ }.

(٠/٠)

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا } ؛ أي على النار قبلَ أن يدخلُوها ، { خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ } ؛ أي أذِلاَّءَ من الهوَانِ ، وَقِيْلَ : سَاكِنين مُتواضِعين ، { يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ } ؛ أي يَنظُرون إلى النار سَارِقَةِ الأَعيُن نظرَ الخائفِ ؛ أي مَن يخافهُ فَزَعاً منه. وَقِيْلَ : معنى { خَاشِعِينَ } مُطرِقِينَ من الْخَجَلِ والوَجَلِ ، والطَّرْفُ هو العينُ.
وعن ابنِ عبَّاس أنه قال : (يَنْظُرُونَ بقُلُوبِهِمْ نَظَرَ الأَعْمَى ، إذا سَمِعَ حِسّاً وَقَفَ مُسْتَمِعاً خَائِفاً مِنْهُ لأَنَّ

اللهَ تَعَالَى قَالَ : { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً }[الإسراء : ٩٧].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ أي عرَفَ المؤمنون خُسرانَ الكفَّار في ذلك اليومِ فقالوا : { إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ } بأن صَارُوا إلى النار ، وأهلِيهم في الجنَّة بأَنْ صَارُوا لغَيرِهم. وقولهُ تعالى : { أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ } ؛ أي دائمٍ لا ينقطعُ ، { وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ }.

(٠/٠)

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧)

قولهُ : { اسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُمْ } ؛ أي أجِيبُوا دَاعِيَ ربكم ، يعني مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ، { مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ } ؛ لا يقدرُ أحدٌ على دفعهِ وهو يومُ القيامةِ ، { مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ } ؛ تلجَأُون إليه ، { وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ } ؛ يُنكِرُ العذابَ ويدفعهُ عنكم ، وَقِيْلَ : لا تَقدِرُونَ أن تُنكِرُوا ما توقَفُون عليه مِن ذنوبكم وما ينْزِلُ بكم.

(٠/٠)

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } ؛ فإنْ أعرَضُوا عن إجَابَتِكَ يا مُحَمَّدُ فما أرسَلناكَ عليهم حَفيظاً تحفَظُ أعمالَهم وأقوالَهم ، { إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ } ؛ عن اللهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً } ؛ أي غِنًى وصحَّةً ، { فَرِحَ بِهَا } ؛ يعني الكافرُ ، { وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ } ؛ أي قَحْطٌ ، { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } ؛ من الكُفرِ ، { فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ } ؛ لِمَا تقدَّمَ من نِعَمِ اللهِ عليه ويجحَدُ.

(٠/٠)

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي له التصرُّفُ فيهما بما يريدُ ، { يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً } ؛ مثلَ ما وَهَبَ للُوطٍ عليه السلام ، { وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ } ؛ مثلَ ما وهبَ لإبراهيم عليه السلام لم يكُن له ولدٌ أُنثى ، { أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً } ؛ أي يَجمَعُ لِمَن يشاءُ البنينَ والبناتِ ، كما وهبَ لنبيِّنا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فإنه كانَ له ثلاثةُ بَنين وأربعُ بناتٍ ، { وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً } ؛ لا يولَدُ له مثلَ يحيَى وعيسَى عليه السلام ، { إِنَّهُ عَلِيمٌ } ؛ بعواقب الأمُور وَأواخرِها وأوَائلِها ، وفواتِحها وخواتِمها ، وظواهِرها وبواطنِها ، { قَدِيرٌ } ؛ على كلِّ شيء ، لا يلحقهُ عَجزٌ ولا يعتريهِ منعٌ.

(٠/٠)

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ } ؛ أي ما كان لآدميٍّ أن يُكلِّمَهُ اللهُ مواجهةً بغيرِ حجابٍ ، إلاَّ أن يوحِي أن يقذفَ في قلبهِ ويُلهِمَ إما في المنامِ أو بالإلهام ، كما أخبرَ اللهُ في قصَّة إبراهيم عليه السلام في قوله{ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ }[الصافات : ١٠٢].

وقولهُ تعالى : { أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ } كما كلَّمَ موسَى عليه السلام ، كان يسمعُ كلامَهُ من حيث لا يراهُ ، أو يُرسِلَ من الملائكةِ جبريلَ أو غيرَهُ فيُوحِي ذلك الرسولُ إلى الْمُرْسَلِ إليه بإذن الله ما يشاءُ الله.

قال الزجَّاجُ : (الْمَعْنَى : أَنَّ كَلاَمَ اللهِ لِلْبَشَرِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِإِلْهَامٍ أَوْ يُكَلِّمَهُمْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى ، أَوْ بِرِسَالَةِ مَلَكٍ إِلَيْهِمْ). فمَن قرأ (أَوْ يُرْسِلَ) بنصب اللام فمعناهُ : أو أنْ يُرسِلَ رسُولاً من الملائكةِ ، كما أرسلَ جبريلَ عليه السلام ، وتقديرهُ : وما كان لبشرٍ أن يُكلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْياً أن يُوحِي إليه أو يُكلِّمه من وراءِ حجابٍ أو يرسِلَ رسُولاً. ومَن قرأ بالرفعِ أرادَ : وهو يُرسِلُ فهو ابتداءٌ واستئناف ، والوقفُ كافٍ على ما قبله.

وقولهُ تعالى : { إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ } ؛ أي هو أعلَى مِن أن يدركَهُ الخلقُ بالأبصار الفانية بلا حجابٍ ، الحكيمُ فيما يأمرُ وينهَى.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا } ؛ أي كما أوْحَينَا إلى الرُّسُلِ من قبلِكَ أوحَينا إليك جبريلَ بالقُرآنِ الذي " فيه " حياةُ القلوب من الجهلِ. ومِن هذا سُمِّي القرآنُ رُوحاً ؛ لأنه سببُ حياةِ الدّين ، كما أنَّ الروحَ سببُ حياةِ الجسد. وقال مقاتلُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ { رُوحاً } يَعْنِي الْوَحْيَ) وَهُوَ الْقُرْآنُ ؛ لأَنَّهُ يُهْتَدَى بِهِ ، فَفِيهِ حَيَاةٌ مِنْ مَوْتِ الْكُفْرِ. وقولهُ { مِّنْ أَمْرِنَا } ، وَقِيْلَ : إنَّ الروحَ ها هنا جبريلُ.

وقولهُ : { مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ } ؛ أي ما كنتَ تدري قبلَ الوحيِ ما الكتابُ ولا ما الإيمانُ ؛ قيل : لأنه كان لا يعرِفُ القرآنَ قبلَ الوحي ، ولا كان يعرفُ بشرائعِ الإيمان ومعالِمه ، وهي كلُّها إيمانٌ ، وهذا اختيارُ الإمامِ محمَّد بن جرير ، واحتجَّ بقولهِ{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ }[البقرة : ١٤٣] يعني الصَّلاةَ سَمَّاها إيْماناً. وَقِيْلَ : معناهُ : ما كُنتَ تدري ما الإيمانُ قبلَ البلوغِ ، يعني حين كان طِفْلاً في الْمَهْدِ. وقال الحسينُ بن الفضلِ : (هَذا مِنْ بَاب حَذْفِ الْمُضَافِ ؛ مَعْنَاهُ : " أيْ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ " ولا أهْلِ الإيْمَانِ " أيْ " مَنِ الَّذِي يُؤْمِنُ وَمَنِ الَّذِي لاَ يُؤْمِنُ) ، وَفِي الْجُمْلَةِ لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْكُفْرِ قَطُّ ، وَإِنَّهُ كَانَ عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ حِينَ وُلِدَ ، وَكَذلِكَ جَمِيعُ أَنْبِيَاءِ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ قَبْلَ الْوَحْيِ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم يَعْبُدُ اللهَ قَبْلَ الْوَحْيِ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَـاكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً } ؛ يعني الوحيَ ودليلاً على الإيمانِ والتوحيد ، { نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا } ؛ إلى دينِ الحقِّ ، { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ أي لتدعُو الخلقَ كلَّهم بوَحينا إليك إلى طريقٍ قائمٍ يرضاهُ اللهُ وهو الإسلامُ. وقولهُ تعالى : { صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ خُفِضَ على البدلِ ، وقولهُ تعالى : { أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ } ؛ أي إليه ترجعُ عواقِبُ الأمُور في الآخرةِ.

(٠/٠)

حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)

{ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ } ؛ أقسمَ اللهُ بالقرآنِ ، الْمُبين : الذي أبَانَ طريقَ الهدى من طريقِ الضَّلالةِ ، وأبانَ ما يحتاجُ إليه من الشَّرائعِ ، وجوابُ { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } ؛ أي إنَّا أنزلناهُ على لُغةِ العرب ليكون أبلغَ في الحجَّة وأدعَى إلى القَبولِ ، كي يَعْقِلَهُ العربُ من غيرِ مترجِمٍ.

(٠/٠)

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ } ؛ أي إنَّهُ مذكورٌ مُثْبَتٌ في اللَّوحِ المحفوظِ عندَنا ، كما قالَ في آيةٍ أُخرى{ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ }[البروج : ٢١ – ٢٢] ، وسُمي اللوحُ أُمَّ الكتاب ؛ لأنه أصلُ كلِّ كتابٍ ، وتُسمَّى الوالدةُ : أُمّاً ؛ لأنَّها أصلُ الولدِ.
وقولهُ تعالى { لَدَيْنَا } يريدُ الذي عندَنا نُخبرُ عن فضيلتهِ ، ومَنْزِلتِه وشرفهِ أنْ كذبتُم به يا أهلَ مكَّة ، فإنه عندَنا شريفٌ رفيع مُحكَمٌ من الباطلِ. ويقالُ : ذُو حِكمَةٍ لا يحتملُ الزيادةَ والنُّقصانَ ، والتبديلَ والتغييرَ.

(٠/٠)

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ } ؛ قال الكلبيُّ : (يَقُولُ اللهُ لأَهْلِ مَكَّةَ : أَفَنَتْرُكُ عَنْكُمُ الْوَحْيَ صَفْحاً فَلاَ نَأْمُرُكُمْ وَلاَ نَنْهَاكُمْ وَلاَ نُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رَسُولاً ؟ وَهَذا اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ الإِنْكَارُ ؛ أيْ لاَ نَفْعَلُ ذلِكَ).

ومعنى الآيةِ : إفَنُمسِكُ عن إنزالِ القرآن ونُهمِلُكم فلا نُعرِّفُكم ما يجبُ عليكم من أجلِ أنَّكم أسرَفتُم في كُفرِكم ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ } ، والمعنى : لإنْ كُنتم ، والكسرُ في (إنْ) على أنه جزاءٌ استغنى عن جوابهِ بما تَقدَّمَهُ ، كما تقولُ : أنتَ ظالِمٌ إنْ فعلتَ كذا ، ومثلهُ{ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ }[المائدة : ٢] بالفتحِ والكسر ، وقد تقدَّمَ.
ومعنى الآيةِ : أفنَضرِبُ عنكم تَذكُّرنَا إيَّاكم الواجبَ ونترُكُكم بلا أمرٍ ولا نَهيٍ مُعرِضين عنكم لَئِن أسرَفتُم.
والصَّفْحُ في اللغة : هو الإعراضُ ، يقالُ : صَفَحَ عن دِينه أي أعرضَ عنه ، " صَفَحَ " فلانُ عنِّي بوجههِ ؛ أي أعرَضَ, وهو في صِفات اللهِ بمعنى العَفْوِ ، يقالُ : أصْفحَ عن دينه ؛ أي أعرضَ عنه. والإضرابُ والضَّربُ في الكلامِ كلاهُما بمعنى الإعراضِ والعدُولِ.

(٠/٠)

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ؛ فيه تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وبيانُ أنَّ دَأبَ كلَّ أُمة مع رسولِهم التكذيبُ والاستهزاء به ، وإنَّ من سُنة اللهِ تعالى إهلاكُ المكَذِّبين ، فحدِّث أيها الرسولُ قومَك كي لا يَسلِكوا طريقَ من قبلهم فينزلُ بهم من العذاب ما نزلَ بمَن قبلَهم.

(٠/٠)

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)

وقولهُ تعالى : { فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً } ؛ أي أقوَى من قومِكَ ، يعني الأوَّلين الذين هَلَكوا بتكذيبهم ، { وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ } ؛ وسبقَ فيما أنزلنا إليكَ تشبيهٌ بتكذيبهم ، فعاقبةُ هؤلاء أيضاً الإهلاكُ.

(٠/٠)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تعالى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } ؛ معناهُ : ولئن سألتَ قومَكَ مَن خلقَ السَّموات والأرضَ ، { لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } ، وهذا إخبارٌ عن غايةِ جَهلِهم إذ أقَرُّوا بأنَّ الله خلقَ السموات والأرض ، ثم عَبَدُوا معه غيرَهُ وأنكَرُوا قدرته على البعثِ ، فهُم يُقرُّون بالله ويُشركون به غيرَهُ ، كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ }[يوسف : ١٠٦] وتَمَّ الكلامُ والإخبار عنهم.
ثُم ابتدأ قوله عَزَّ وَجَلَّ فقال : { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً } ؛ هذا ابتداءُ كلامٍ من اللهِ تعالى على معنى : نَعَمْ خلَقَهُنَّ العزيزُ العليم الذي جعلَ لكم الأرضَ مِهَاداً يمكنُكم القرارُ عليها ، { وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً } ؛ أي طُرقاً ، { لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } ؛ في الطريقِ من بلدٍ إلى بلد ، وتَهتدون بوحدانيَّة اللهِ.

(٠/٠)

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ } ؛ يعني المطرَ بمقدارٍ معلوم يعلمهُ خازنُ المطرِ ليس كما أنزلَ على قومِ نوح بغير قَدَرٍ حتى أهلكَهم ، بل هو بقَدرٍ يكون مَعاشاً لكم ولأنعامِكم ، وقولهُ تعالى : { فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً } ؛ أي فأَحيَينا بذلك المطرِ بَلداً ميتاً بإخراجِ الأشجار والزرعِ ، { كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } ؛ من القُبور يومَ النشور للحساب والجزاء.

(٠/٠)

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ } ؛ معناهُ والذي

خلقَ الأصنافَ كُلَّها والألوانَ كُلَّها ، ويقالُ : الذكورُ والإناث كلِّها ، وجعل لكم من الفُلكِ والأنعامِ ما تركبون عليها في البَرِّ.

(٠/٠)

لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِتَسْتَوُواْ عَلَى ظُهُورِهِ } ؛ الكنايةُ تعود إلى لفظ (مَا) أي لتَستَوُوا على ظُهور ما تركبون ، { ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ } ؛ يعني النعمةَ بتسخيرِ ذلك المركَب في البَرِّ والبحرِ ، قال مقاتلُ والكلبي : (وَهُوَ أنْ تَقُولَ : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي رَزَقَنِي هَذا وَحَمَلَنِي عَلَيْهِ) ، { وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَاذَا } ؛ المركَبَ وذلَّلَهُ لنا ، وسهَّلَ رُكوبَهُ ، ولولاَ تسخيرهُ لنا ، { وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ } ؛ أي مُطِيقين ضابطين ، يريدُ : لا طاقةَ لنا بالإبلَ ولا بالفلكِ ولا بالبحر ، لولاَ أنَّ اللهَ تعالى سخَّرَ لنا ذلك.
قال قتادةُ : (قَدْ عَلَّمَكُمُ اللهُ كَيْفَ تَقُولُونَ إذا رَكِبْتُمْ). وعن ابنِ مسعودٍ أنَّهُ قالَ : (إذا رَكِبَ الرَّجُلُ الدَّابَّةَ فَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ ، رَدَفَهُ الشَّيْطَانُ ، فَقَالَ لَهُ : تَغَنَّ ، فَإنْ لَمْ يُحْسِنْ قَالَ لَهُ : تَمَنَّ).
وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : " " أنَّهُ كَانَ إذا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارجاً فِي سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلاَثاً سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإنَّا إلَى رَبنَا لَمُنْقَلِبُونَ ، اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذا الْبرَّ وَالتَّقْوَى ، وَالْعَمَلَ بمَا تَرْضَى ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا وَأطْوِعْنَا بُعْدَهُ ، اللَّهُمَّ أنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ ، اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَب ، وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ ". وَإذا رَجَعَ قَالَ : " آيِبُونَ تَائِبُونَ لِرَبنَا حَامِدُونَ " ".

(٠/٠)

وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)

وقولهُ تعالى : { وَإِنَّآ إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ } ؛ فيه بيانٌ أنه كما يَذكرُ نعمةَ اللهِ عليه في الدُّنيا ، فعلَيهِ أنْ يذكُرَ مصيرَهُ إلى الآخرةِ. وينبغِي للعاقلِ إذا ركِبَ دابَّةً أو سفينةً أن يتذكَّرَ آخرَ مركَبِهِ وهي الجنازةُ ، وإذا

لَبسَ أن يتذكَّرَ آخرَ مَلبَسهِ وهو الكفَنُ ، وإذا اغتسلَ أن يتذكَّرَ آخرَ عهدهِ بالغُسلِ ، وإذا نامَ أن يذكَّرَ الحالَ التي يوضَعُ فيها على جَنبهِ في اللَّحدِ.

(٠/٠)

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا } ؛ أي جَعل الكفارُ للهِ تعالى من عبادهِ جُزءاً ؛ لأنَّهم قالوا : الملائكةُ بنات اللهِ ، فوصَفُوا عبادَ اللهِ بأنَّهم جزءٌ من اللهِ ، وقد تقدَّمَ أن الذين قالوا هذا القولَ حيٌّ من خزاعةَ ، ومعنى الجعلُ ههنا الحكمُ بالشيءِ ، والوصفُ والتسمية كما جعلَ فلانٌ زيداً مِن أعلمِ الناس ؛ أي وصفَهُ بذلك ، ويقالُ : إن الْجُزْءَ في كلامِ العرب عبارةٌ عن الأُنثى كما قال الشاعرُ : إنْ أجْزَأتْ حُرَّةٌ يَوْماً فَلاَ عَجَبٌ قَدْ تُجْزِئُ الْحُرَّةُ الْمِذْكَارُ أحْيَانَاأرادَ بـ (أجْزَأتْ) : ولَدَت أُنثى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الإنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ } ؛ أرادَ الإنسانِ الكافرَ ، وقولهُ تعالى { لَكَفُورٌ مُّبِينٌ } أي لَجَحُودٌ لنِعَمِ اللهِ ، { مُّبِينٌ } ظاهرُ الكُفرَانِ.

ثُم أنكرَ عليهم هذا فقالَ تعالى : { أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ } ؛ هذا استفهامُ توبيخٍ وإنكار ، يقولوا : أتَّخَذ ربُّكم لنفسهِ البنات وأصفاكم بالبنينِ وأخلَصَكم بهم. والمعنى : كيف اختارَ لنفسهِ أهونَ قِسْمَي الولدِ ، واختارَ لكم أعلَى القِسمَين ، والحكمةُ لا توجبُ أن يختارَ الحكيمُ الأدوَنَ لنفسهِ والأعلَى لغيرهِ.

ثم وصَفَ كراهتَهم بالبناتِ ، فقالَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً } ؛ أي وإذا أُخبر أحدُهم بما وصفَ للرحمنِ من إضافةِ البنت إليه صارَ وجههُ مُسْوَدّاً متغيِّراً يُعرَفُ فيه الحزنُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ كَظِيمٌ } ؛ أي يتردَّدُ حُزنهُ في جَوفهِ. وقد تقدم تفسيرهُ في سورة النحلِ.

(٠/٠)

أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ } ؛ زيادةٌ في الإنكار عليهم والْمَذمَّةِ لَهم ، كأنَّهُ قالَ : أوَيَختارُ لنفسهِ مع استغنائهِ عن الخلقِ كلِّهم (مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ) أي مَن رُبيَ في حِلية الذهب والفضَّة ، { وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ } ، وهو في الكلامِ غيرُ ثابتِ الحجَّة.

قال المبرِّدُ : (تَقْدِيرُ الآيَةِ : أوَتَجْعَلُونَ لَهُ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ، يَعْنِي الْبِنْتَ نَبَتَتْ). (وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) ؛ أي وهو عندَ الْمُخَاصَمَة غيرُ مُبينِ الحجَّة ، قال قتادةُ : (قَلَّ مَا تَكَلَّمَتِ امْرَأَةٌ بِحُجَّتِهَا إلاَّ تَكَلَّمَتْ بِحُجَّتِهَا عَلَيْهَا) لِضَعْفِ رَأيهَا وَنُقْصَانِ عَقْلِهَا.

ويستدَلُّ من هذه الآيةِ على ثُبوتِ الترخُّصِ للنساءِ في التزَيُّن بحِلية الذهب والفضَّة ، "كما قالَ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ أخَذ الذهَبَ بإحْدَى يَدَيْهِ ، وَالْحَرِيرَ بالأُخْرَى وَقَالَ : " هَذانِ مُحَرَّمَانِ عَلَى ذُكُور أُمَّتِي ، حِلٌّ لإنَاثِهِمْ " ".

(٠/٠)

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلُواْ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثاً } ؛ معناهُ : ووَصَفُوا الملائكةَ الذين هم عبادُ الرحمنِ أنَّهم بناتُ اللهِ ، وقرئ (عَبْدُ الرَّحْمَنِ) وكلٌّ صوابٌ ، وقد جاءَ القرآنُ بالأمرَين معاً ، وذلك قولهُ{ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ }[الأنبياء : ٢٦] وقولهُ{ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ }[الأعراف : ٢٠٦] ، وفي قولهِ تعالى (عَبْدُ الرَّحْمَنِ) دلالةٌ على رفعِ المنْزِلة والقُربَةِ من الكرامةِ.

وقولهُ تعالى : { أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ } ؛ معناهُ : أحَضَرُوا عندَ خَلقِهم فعَلمُوا ذلك ، والشهادةُ ها هنا من الحضور ، ووبَّخَهم اللهُ على ما قالوا ما لَم يُشاهِدُوهُ. وقرأ نافعُ : (أشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ) بهمزة الاستفهامِ وتخفيف الهمزةِ الثانية على معنى أحَضَرُوا وعَايَنُوا خَلقَهُم حتى عَلِموا أنَّهم أناثٌ ، وهكذا كقوله{ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ }[الصافات : ١٥٠].

قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيدُ : أحَضَرُواْ وَعَايَنُواْ خَلْقَهُمْ؟) ، قال الكلبيُّ : " لَمَّا قَالُواْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ سَأَلَهُمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : " مَا يُدْرِيكُمْ أنَّهُمْ إنَاثٌ ؟ " قَالُواْ : سَمِعْنَا مِنْ آبَائِنَا وَنَحْنُ نَشْهَدُ أنَّهُمْ لَمْ يَكْذِبُواْ أنَّهُمْ إنَاثٌ " فقالَ اللهُ : { سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ } ؛ عنها في الآخرةِ.

(٠/٠)

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } ؛ يعني بني مَلِيح من خُزاعة ، كانوا يعبُدون الملائكةَ ، { وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } أي ما عبَدُوا الملائكةَ ، وإنما عبَدناهم بمشيئةِ الله تعالى. وإنما كانوا يقُولون هذا القولَ إبلاغاً لعُذرهم عند سَفَلَتِهم ، يقول اللهُ تعالى : { مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ } ؛ بقولِهم إنَّ الملائكةَ بناتُ الله وإنَّهم كَذبُوا في ذلك ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ } ؛ أي ما هُم إلا يكذبون فيما قالوا ، ولم يتعرَّضْ لقولِهم { لَوْ شَآءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } بشيءٍ ؛ لأن هذا القولَ حقٌّ ، وإنْ كان من الكفار ، وهذا كقولِهِ : { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ }[النحل : ٣٥] أي ولو جعلتَ قولَهُ { مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ } ردّاً لقولِهم { لَوْ شَآءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } كان المعنى : أنَّهم قالوا : إنَّ الله قدَّرَنا على عبادتِهم فلم يُعاقِبْنا لأنه رَضِيَ ذلك ، وهذا كذبٌ منهم ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وإنْ قدَّرَ كُفرَ الكافرِ لا يرضاهُ ، وتقديرُ الكفرِ من الكافرِ لا يكون رضًى من اللهِ له.

(٠/٠)

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ } ؛ أي هل أعطَيناهم كِتَاباً من قبلِ القرآن بأن يعبُدوا غيرَ اللهِ ، { فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ } ؛ أي آخِذُونَ بمَا فيه. ثم أعلمَ اللهُ أنَّهم اتَّبعُوا آباءَهم في الضَّلالةِ فقالَ تعالى : { بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنآ ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ } ؛ أي على سُنَّةٍ وملَّةٍ ودينٍ.
ومَن قرأ (عَلَى إمَّةٍ) بكسر الهمزةِ فمعناهُ : على طريقةٍ ؛ أي ليس لَهم حُجَّةٌ إلاَّ هذا القول ، { وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ } ؛ أي ليس لهم حُجَّة إلاَّ تقليدُ آبائِهم.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ } أي مُلوكُها وأغنياؤُها ورؤساؤها : { إِنَّا وَجَدْنآ ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } ؛ بهم.
فقالَ اللهُ تعالى لنبيِّهِ صلى الله عليه وسلم : { قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَآءَكُمْ } ؛ معناهُ : أتَّتبعون دينَ آبائكم وتكفُرون مِثلَهم ، ولو جئتُكم بأرشدِ مما وجدتُّم عليه آباءَكم ، فأَبَوا أنْ يقبَلُوا ذلك ؛ و { قَالُواْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ }.
ثُم ذكَرَ ما فعَلَ بالأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ تخويفاً لَهم فقالَ تعالى : { فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } ؛ يعني ما صَنَعَ بقومِ نوحٍ وعاد وثَمود.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ } معناه واذكُر يا مُحَمَّدُ إذ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ وقومهِ حين خرجَ من السِّرب وهو ابنُ سبعَ عشرة سنةً ، رأى أباهُ وقومَهُ يعبدون الأصنامَ ، فقالَ لَهم : إنِّي بَرَاءٌ مما تعبُدون من دونِ الله تعالى ، { إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ } ، إلاَّ مِن الذي خلَقَني فإنه سيحفَظُني ويُرشِدُني لدينهِ وطاعته.
وقوله تعالى : { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ } ؛ أي وجعلَ براءتَهُ عن عبادةِ غير الله وهي كلمةُ التوحيدِ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ؛ باقيةً في عَقِبهِ لكي يرجِعُوا إلى التوحيدِ ، ويدعُوا الخلقَ إليهِ ، فلا يزالُ في ولَدهِ مَن يوحِّدُ اللهَ تعالى. ومعنى الآيةِ : وجعلَها كلمةً باقيةً في ذريَّة إبراهيم ونَسلهِ ، فلا يزالُ في ذُريَّتِهِ مَن يعبدُ اللهَ ويوحِّدهُ ، { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ؛ أي لعَلَّ أهلَ مكَّة يتَّبعون هذا الدِّينَ ويرجعون إلى دِينكَ دينِ إبراهيمَ ، إذ كانوا مِن وَلدهِ. وقال السديُّ : (لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ وَيَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى).
ثُم ذكرَ نِعمَتهُ على قريشٍ فقالَ : { بَلْ مَتَّعْتُ هَاؤُلاَءِ وَآبَآءَهُمْ } ؛ يعني المشركين متَّعْتُهم بأموالِهم

وأنفُسِهم وأنواعِ النِّعَمِ ، ولم أُعاجِلْهُم بعقوبةِ كُفرِهم ، بل أمهَلتُهم زيادةً في الْحُجَّةِ وقطعاً للمعذرةِ ، { حَتَّى جَآءَهُمُ الْحَقُّ } ؛ أي القرآنُ ، { وَرَسُولٌ مُّبِينٌ } ؛ للحُجَجِ وهو النبيُّ صلى الله عليه وسلم بَيَّنَ لَهم الأحكامَ والدينَ.

وكان من حقِّ الإنعَامِ أن يُطيعوا الرسولَ بإجابتهِ ، فلم يُجيبوه وعَصَوا ، وهو قولهُ : { وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُواْ هَاذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ } ؛ أي لما جاءَ الرسولُ والقرآن ، نَسَبوا القرآنَ إلى السِّحر وجحَدُوا بهِ.

(٠/٠)

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَاذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } ؛ أي قال كفَّارُ مكَّة : هلاَّ نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القَريتَين مكَّة والطائف ، وعَنَوا بالرَّجُلين إما الوليدَ بنَ المغيرةِ من مكَّة ، وإما أبا مسعودٍ الثقفيِّ من الطائفِ ، ظَنُّوا بجهلِهم أنَّ استحقاقَ النبوَّة إنما يكون بشَرفِ الدُّنيا مع اعترافِهم بأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم مِن أرفعِهم نَسباً.

فقالَ اللهُ تعالى ردّاً عليهم وإنكاراً لِمَا قالوا : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ } ؛ يعني النبوَّةَ التي هي مِن أعظمِ النِّعَمِ ، وذلك أنَّهم اعترَضُوا على اللهِ بقولِهم : لِمَ لَمْ ينْزِل هذا القرآنُ على غيرِ مُحَمَّدٍ ، فَبَيَّنَ اللهُ تعالى أنه الذي يقسِمُ النبوَّةَ لا غيرهُ.

قال مقاتلُ : (يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أبأَيْدِيهِمْ مَفَاتِيحُ الرِّسَالَةِ فَيَضَعُونَهَا حَيْثُ شَاؤُا). فبيَّن اللهُ تعالى أنه لَمْ يجعَلْ أمرَ معايشِهم مع قلَّةِ خطرِ ذلك إلى رأيهم ، بل رفعَ بعضَهم فوقَ بعضٍ في الرِّزقِ ، وتلقاه شذ على ما تُوجبهُ الحكمةُ ، فقال تعالى : { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ أي قسَمنا الرزقَ في المعيشةِ ، وليس لأحدٍ أن يتحكَّمَ في شيءٍ من ذلك ، فكيف نجعلُ أمرَ النبوَّة مع عِظَمِ قَدرهِ ورفعةِ شأنه إلى رأيهم ، قال قتادةُ في معنى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ) : (تَلْقَى الرَّجُلَ ضَعِيفَ الْحِيلَةِ عَيَّ اللِّسَانِ وَهُوَ مَبْسُوطٌ فِي الرِّزْقِ ، وَتَلْقَاهُ شَدِيدَ الْحِيلَةِ بَسِطَ اللِّسَانِ وَهُوَ مُقَتَّرٌ عَلَيْهِ).

وقولهُ تعالى : { وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } ؛ يعني الفضل في الغنى والمال { لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً } ؛ أي ليستخدِمَ بعضُهم بعضاً ، فيُسخِّر الأغنياءُ بأموالهم الفقراءَ لِيلتَئِمَ قِوَامُ أمرِ العالَم ، وقال قتادةُ : (لِيَمْلِكَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فَيَتَّخِذُونَهُمْ عَبيداً وَمَمَالِيكَ). والسِّخْرِيُّ بالكسرِ مِن الاستهزاءِ ، وبالضَّم من التسخيرِ.

وقولهُ تعالى : { وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } ؛ أي وما خصَّكَ اللهُ به من النبوَّةِ خيرٌ لكَ مما يجمَعُون من المالِ. وَقِيْلَ : معناهُ : ورحمةُ ربكَ يعني الجنَّةَ للمؤمنين خيرٌ مما يجمَعُ الكفَّارُ من الأموالِ.

(٠/٠)

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ } ؛ معناهُ : ولولاَ أن تَميلَ بالناسِ الدُّنيا فيصيرَ الخلقُ كلُّهم كُفَّاراً لأعطى اللهُ الكافرَ في الدُّنيا غايةَ ما يتمنَّى فيها لِهَوانِهَا وقلَّتِها عندَ الله تعالى ، ولكنَّهُ لم يفعَلْ ذلك لعلمهِ بأن الغالبَ على الخلقِ حبُّ العاجلةِ.

وقوله (سَقْفاً) من قرأهُ بالوحدانِ فهو على معنى جعلنا لكلِّ بيتٍ سَقْفاً من فضَّة. ومن قرأ (سُقُفاً) بضمَّتين فهو جمعُ سَقْفٍ ، مثلُ رَهْنٍ وَرُهُنٍ. ومَن قرأهُ (سُقْفاً) بضمِّ السين وجزمِ القاف فعلى تخفيفِ سِقْفٌ مثل رهْنٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ } يعني الدَّرَجَ عليها يرتَفِعون ويَعلُون ، واحدُها مَعْرِجٌ ، ويقالُ مِعْرَاجٌ وَمَعَاريجُ وَمَعَارِجُ ، مثل مَفَاتِيح وَمَفَاتح في جمعِ مِفتاحٍ ، والمعنى : وكذلك جعلنا لَهم معارجَ من فضَّة عليها يصعَدُون.

(٠/٠)

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ } ؛ أي ولبُيوتِهم أبوَاباً من فضَّة وسُرُراً من فضَّة ، على سُرُر الفضَّة يجلِسُون ويتَّكِئون ، وقولهُ تعالى : { وَزُخْرُفاً } ؛ الزُّخرُفُ هو الذهَبُ ، كأنَّهُ قال : وجعَلنا أمتِعَتَهم من الذهب.

هكذا في التفاسيرِ أنَّ المرادَ بالزُّخرُفِ الذهبَ ، إلاَّ أنَّهُ في اللغةِ الزُّخرف : كَمَالُ الزِّينةِ ، كما قال تعالى{ حَتَّى إِذَآ أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا }[يونس : ٢٤] ، ويجوزُ أن يكون قولهُ { وَزُخْرُفاً } عَطفاً على

قولهِ{ مِّن فِضَّةٍ }[الزخرف : ٣٣] كأنَّهُ قالَ : مِن فضَّةٍ وزُخرُفاً ، إلاَّ أنه لَمَّا قالَ حذفَ (مِنْ) جعل نصباً ، وهذا إنما يكون على قولِ الكوفِيِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ مَن قرأ (لَمَّا) بالتشديدِ فالمعنى : ما كلُّ ذلك إلاَّ متاعُ الحياةِ الدُّنيا, ومَن قرأ بالتخفيفِ فـ (مَا) صلةٌ زائدة ، والمعنى : وإنْ كلُّ لَمَا متاعُ الحياة الدنيا ، يُتَمَتَّعُ به إلى حين ثُم يفنَى ، وَ ثوابُ { وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ } ؛ الكفرَ والفواحشَ ، والذي قرأ (لَمَّا) بالتشديدِ حمزةُ جعلَهُ في معنى إلاَّ ، وحُكي عن سيبويهِ : نشَدتُكَ لَمَّا فعلتَ ، بمعنى إلاَّ فعلتَ.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " لَوْلاَ أنْ يَجْزَعَ عَبْدِي الْمُؤْمِن لَعَصَبْتُ الْكَافِرَ بعَصَابَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ، وَلَصَبَّبْتُ الدُّنْيَا عَلَيْهِ صَبّاً " قال : ومصداقُ ذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ }[الزخرف : ٣٣].

(٠/٠)

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً } ؛ أي مَن يُعرِضُ عن ذكرِ الرَّحمنِ نُسَبِبْ له شَيطاناً يُضِلُّهُ ، يجعلُ ذلك جزاؤه ، { فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } ؛ لا يفارقهُ في الدُّنيا والآخرةِ ، يقالُ : عَشِيَ إلى النار باللَّيل إذا تنوَّرَها فقَصَدَها ، وعَشِيَ عنها إذا أعرضَ عنها قاصداً لغيرِها ، ونظيرُ هذا مالَ إليه ومالَ عنهُ ، قال الشاعرُ : مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدِومَن قرأ (يَعْشَ) بفتح الشينِ وهو من عَشَى يَعشَى إذا لم يُبصِرْ بالليلِ ، والمعنى : ومَن يَعْمَ عن ذكرِ الرَّحمنِ.

قال الزجَّاجُ : (مَعْنَى الآيَةِ : وَمَنْ يُعْرِضْ عَنِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيْهِ مِنَ الْحِكْمَةِ إلَى أبَاطِيلِ الْمُضِلِّينَ ، نُعَاقِبْهُ بشَيْطَانٍ نُقَيِّضُهُ لَهُ حَتَّى يُضِلَّهُ وَيُلاَزِمَهُ قَرِيناً لَهُ فَلاَ يَهْتَدِي ، مُجَازَاةً لَهُ حِينَ آثَرَ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ).

وقولهُ تعالى : { فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } أي صاحبٌ يُزَيِّنُ له العَمَى ويُخَيِّلُ إليه أنَّهُ على الْهُدَى وهو على الضَّلالة ، وذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ } ؛ معناهُ : وإنَّ الشياطين ليمنعونَهم عن سبيلِ الهدى ، { وَيَحْسَبُونَ } ؛ الكفارُ ، { أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ }.

(٠/٠)

حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا جَآءَنَا } ؛ يعني الكافرَ إذا جاءَ يومَ القيامةِ { قَالَ } ، لقَرِينهِ وهو الشيطانُ الذي يُجعَلُ معه في سِلسلةٍ واحدةٍ : { يالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ } ؛ المشرقُ والمغرِبُ إذ كُنَّا في الدُّنيا فلم أرَكَ ولم تَرَني ، { فَبِئْسَ الْقَرِينُ } ؛ كُنْتَ لِي.
وإنما سُمِّيَ المشرقُ والمغربُ باسمٍ الواحد للازدواجِ ، كما يقالُ للشَّمسِ والقمر : القَمَرَانِ ، وفي تثنيةِ أبي بكرٍ وعمرَ : العُمَرَين ، قال الشاعرُ : أخَذْنَا بآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ لَنَا قَمَرَهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُوقُرِئ : (حَتَّى إذا جَاءَنَا) يعني الكافرَ وشيطانهُ يُبعثان يومَ القيامةِ في سلسلةٍ واحدة ، كما رُوي أنَّ الكافرَ إذا بُعث يومَ القيامةِ مِن قبرهِ أخذ بيدهِ شَيطانهُ فلم يُفارقْهُ حتى يُصَيِّرهُما اللهُ إلى النار ، فلذلك حيثُ يقولُ : (يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) ، ويقولُ اللهُ في ذلك اليومِ للكافرين " و " أنت أيها الشيطان : { وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ } ؛ أي إذا أشرَكتُم في الدُّنيا ، { أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } ؛ قال المفسِّرون : لا يُخفَّفُ عنهم الإشراكُ شيئاً من العذاب ، لأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم الحظَّ الأوفرَ من العذاب ، ولا يستأنِسُ بعضُهم ببعضٍ.

(٠/٠)

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ } ؛ أي أفأنتَ تُسمِعُ الكفارَ الذين يتصَامَمُون عن الحقِّ ويتعامَون عنهُ ، { وَمَن كَانَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } ؛ أي بَيِّنٍ قد ظهرَتْ ضَلالتهُ.

(٠/٠)

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢)

وقولهُ تعالى : { فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ } ؛ أي نُمِيتُكَ قبلَ أن نُرِيَكَ النَّقمَةَ في كفار مكَّة ، { فَإِنَّا مِنْهُم

مُّنتَقِمُونَ } ؛ بالقتلِ بَعدَكَ ، { أَوْ نُرِيَنَّكَ } ؛ في حياتِكَ ما ، { الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ } ؛ من الذُلِّ ، { فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ }. بَيَّنَ اللهُ تعالى أنه قادرٌ على عقوبتِهم في حالِ حياة النبيِّ صلى الله عليه وسلم وبعدَ وفاتِهِ.

والأصلُ : في (إمَّا) : (إنْ مَا) فحُذف الشرطُ (ان ما) صلةٌ ومتى دخلت (مَا) في الشرطِ للتوكيدِ دخلت النونُ الثَّقيلةُ المؤكِّدة في الفعلِ المذكور بعدَها.

ومعنى الآية : أنَّ الله تعالى " قالَ " مُطَيِّباً لقلب نَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم : إنْ ذهَبْنَا بكَ انتقَمنَا لكَ مِمَّنْ كَذبَكَ بعدَكَ أو نُرِيَنَّكَ في حياتِكَ ما وعدنَاهم من العذاب ، فإنَّا قادِرُون عليهم متى شِئْنَا عذبنَاهُم ثم أُريَ ذلِكَ يومَ بدرٍ.

(٠/٠)

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ } ؛ أي استَمسِكْ بالقُرآنِ ، { إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ } ؛ أي القرآنُ شَرَفٌ لكَ ولَهم ، { وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ } ؛ عن شُكرِ هذه النِّعمةِ ، يعني ما أعطاهُ الله من الحكمةِ وقومَهُ المؤمنين من الْهُدَى بالقرآنِ إلى إدراكِ الحقِّ ، وقال مجاهدُ : (الْقَوْمُ هَا هُنَا الْعَرَبُ ، وَالْقُرْآنُ لَهُمْ شَرَفٌ إِذْ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ).

(٠/٠)

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } ؛ وذلك أنه " لَمَّا أُسرِيَ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم بعثَ اللهُ آدمَ وجميعَ الْمُرسَلِينَ وأذنَ جبريلُ ثم أقَامَ ، وقالَ : يا مُحَمَّدُ تقَدَّمْ فصَلِّ بهم ، فلمَّا فرغَ من الصَّلاةِ قَالَ جِبْرِيلُ : سَلْ يَا مُحَمَّدُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ، هَلْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ جَوَازَ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لاَ أَسْأَلُ قَدِ اكْتَفَيْتُ " ".

وَقِيْلَ : معناهُ : اسأَل أُمَمَ مَن أرسَلنا قبلَكَ ، يعني مؤمني أهلِ الكتاب سَلْهُم هل جاءَتْهم الرُّسُلُ إلاَّ

بالتوحيدِ ، فلم يشُكَّ ولم يسأَلْ ، (ومعنى الأمرِ بالسُّؤال لتقريرِ مُشركي قريشٍ أنه لَمْ يأتِ رسولٌ ولا كتابٌ بعبادةِ غير اللهِ تعالى).

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)

وقولهُ تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَآ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِآيَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ } ؛ أي يَهْزَأُونَ ويضحَكُون منها جَهْلاً وغفلةً.

(٠/٠)

وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨)

وقولهُ تعالى : { وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا } ؛ يعني ما نرادفُ عليهم من الطُّوفان والجرَادِ والقُمَّلِ والضفادعِ والدَّمِ والطَّمْسِ ، وكانت كلُّ آيةٍ من هذه الآياتِ أكبرَ مِن التي قبلَها ، وهي العذابُ المذكور في قولهِ تعالى : { وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ؛ لأنَّهم عُذِّبوا بهذه الآياتِ.

(٠/٠)

وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ يَاأَيُّهَ السَّاحِرُ } ؛ قال الكلبيُّ : (يَا أيُّهَا الْعَالِمُ ، وَكَانَ السَّاحِرُ فِيْهِمْ عَظِيماً يُعَظِّمُونَهُ ، ولَمْ يَكُنْ " السِّحْرُ " صِفَةَ ذمٍّ ، وَكَانَ عُلَمَاؤُهُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ السَّحَرَةُ ، فَكَانُواْ يُوَقِّرُونَهُ بهَذا الْقَوْلِ ، وَلَمْ يُرِيدُوا شَتْمَهُ).

وقوله تعالى : { ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ } ؛ أي سَلْ ربَّكَ بما عَهِدَ عِندَكَ فيمن آمنَ بكَ ليكشِفَ العذابَ عنَّا ، والمعنى : بمَا عَهِدَ فيمَنْ آمنَ به من كشفِ العذاب عنه ، { إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ } ؛ مُؤمنون بكَ.

فدَعَا مُوسَى ربَّهُ فكشفَ عنهم فلم يُؤمِنُوا ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ } ؛ العهدَ الذي عَاهَدُوا موسَى ، معناهُ إذا هم يَنْقُضُونَ عهُودَهم.

(٠/٠)

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ } ؛ إلى قولهِ : { قَالَ ياقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَاذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } ؛ يعنِي أنْهارَ النِّيلِ تجري مِن تَحتِي ؛ أي من تحتِ قُصوري وفي بساتِيني ، وقال الحسنُ : (بأَمْرِي) فعلى هذا معناهُ : من تحتِ أمري ، أفلا تُبصِرُونَ عظَمَتي وشدَّةَ مُلكِي وفضلِي على موسى.

(٠/٠)

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ أَنَآ خَيْرٌ مِّنْ هَاذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ } ؛ أي بل أنا خيرٌ من هذا الذي هو ضعيفٌ حقير ، يعني موسَى ؛ وإنما وصفَهُ بهذا لأنه كان يقومُ بأمرِ نفسه ، ولم يكن أحدٌ يقومُ بأمرِهِ ، ومن ذلك المهنَةُ ، وقولهُ تعالى : { وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ } ؛ أي لا يكادُ يُبينُ الكلامَ ، يعني أنه كان بلسانهِ لَثْغَةً من أثرِ العُقدةِ التي كانت ، وكان ذلك بَليغاً مُبيناً.

(٠/٠)

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)

قَولُهُ تَعَالَى : { فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ } ؛ معناهُ : قالَ فرعونُ : هلاَّ أُلقِيَ على موسى أسوِرَةٌ من ذهبٍ إن كان رَسُولاً كما يُسَوِّرُ الملوكُ رُسُلَهم تَعظيماً لهم ، وكان آلُ فِرعَون يلبَسُون الأسَاوِرَ ، والأسْوِرَةُ جمعُ السِّوَار ، والأسَاورُ جمعُ الأسْوِرَةِ.
وقولهُ تعالى : { أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ } ؛ أي مُتَتابِعِين يُعِينُونَهُ على أمرِهِ الذي بُعث له ، ويشهَدُون له بصِدقِهِ. والمعنى : أنَّ فرعون قالَ : هلاَّ جاءَ معه الملائكةُ متعاونين يَمشُونَ معه فيدُلُّون على صدقهِ بنبوَّتِهِ.

(٠/٠)

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ } ؛ أي استخفَّ فرعونُ عُقُولَ قومِهِ القبطِ فوجَدَهم خِفَافَ العقولِ فأطاعوهُ على تكذيب موسى ، { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ } ؛ أي خارجين عن أمْرِنا.

(٠/٠)

فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦)

وقولهُ تعالى : { فَلَمَّآ آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ } ؛ أي فلَمَّا أغضَبُونا انتقَمنا منهم ، وجازَيناهم على معاصِيهم ، { فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ }. والآسَفُ : الْغَضَبُ في هذه الآيةِ ، وأصلهُ في اللغة : الْحُزْنُ ، إلاَّ أن الحزنَ لا يجوزُ في صفاتِ الله.
وقولهُ تعالى : { فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً } ؛ أي متقدِّمين ، وَقِيْلَ : سَلَفاً إلى النار ، { وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ } ؛ يُتمَثَّلُ بهم في الهلاكِ إلى آخر الدَّهرِ.
وقرأ حمزةُ (سُلُفاً) بالضمِّ في السين واللامِ : جمعُ سَلِيفٍ وهو الماضِي مأخوذٌ من سُلُفٍ بضمِّ اللام

يَسْلُفُ ؛ أي تقدَّمَ فهو سَلِيفٌ. ومَن قرأ (سُلَفاً) بضمِّ السين وفتحِ اللام فهو جمعُ سُلَفَةٍ وهي الفِرقَةُ التي قد مضَتْ.

(٠/٠)

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : " لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ... } الآيةُ ، قَرَأَهَا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ ابْنُ الزِّبَعْرَى : أخَاصٌّ هَذا أمْ عَامٌّ ؟ فَقَالَ : " عَامٌّ " فَقَالَ ابْنُ الزِّبَعْرَى : فَإِنَّ عِيسَى تَعْبُدُهُ النَّصَارَى ، فَهُوَ وَالنَّصَارَى فِي النَّار ، وَعُزَيْرٌ تَعْبُدُهُ الْيَهُودُ ، وَخُزَاعَةُ تَعْبُدُ الْمَلاَئِكَةَ ، فَإِنْ كَانَ هَؤُلاَءِ فِي النَّار فَآلِهَتُنَا خَيْراً مِنْهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى { وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً } ".

والمعنى : لَمَّا شبَّهوهُ بآلهتهم { إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ } يعني قومَهُ الكفارَ كانوا يضُجُّون ضجيجَ المجادَلةِ ، حيث خاصَموهُ وقالوا : رضِينَا أن تكون آلهتَنا ، وهو قولُهم : { وَقَالُواْ ءَأَ الِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ } ؛ أي ليست آلِهتُنا خيراً من عيسَى ، فإنْ كان عيسَى في النار بأنه يُعبَدَ من دونِ الله فآلِهتُنا في النار.

قرئ (يَصِدُّونَ) بكسرِ الصاد وضمِّها ، قال الفرَّاءُ والزجَّاجُ والأخفش والكسائيُّ : (هُمَا لُغَتَانِ ، مَعْنَاهُمَا : يَضُجُّونَ). وَقِيْلَ : يَصُدُّونَ : يُعْرِضُونَ. ومَنَ قرأ بكسرِ الصاد فمعناهُ : يضحَكُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً } ؛ أي ما ذكَروا لكَ وصفَ عيسى إلاَّ لِيُجادِلُوكَ به ؛ لأنَّهم قد علِمُوا أن المرادَ بحصَب جهنَّم ما اتخذوهُ من الموتِ.

ثم ذكرَ أنَّهم أصحابُ خصُومَاتٍ فقالَ : { بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ } ؛ أي جَدِلُونَ بالباطِلِ ، وعن أبي أُمامةَ الباهليِّ أنه قالَ : (مَا ضَلَّ قَوْمٌ إلاَّ أُوْتُوا الْجَدَلَ. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ).

(٠/٠)

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ } ؛ فيه بيانُ أنَّ عيسَى عليه السلام عبدٌ مثلُهم فضَّلَهُ بالنبوَّةِ والرسالةِ ، والمعنى : أنعَمْنا عليه بالنبوَّةِ ، { وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ أي جَعلنا خلقَهُ بغيرِ الأب آية تدلُّهم على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتهِ على ما يريدُ.
ثم خاطبَ كفارَ مكَّة فقالَ تعالى : { وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلاَئِكَةً } ؛ أي لو نشاءُ أهلَكنَاكُم وجعلنا بَدَلاً منكم ملائكةً ، { فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ } ؛ كم يكون خَلَفاً منكم.

(٠/٠)

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ } ؛ يعني نزولَ عيسى من أشراطِ السَّاعَةِ نعلمُ به ، { فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا } ؛ أي لاَ تَشُكُّنَّ في القيامةِ إنَّها كائنةٌ ، ولا تُكَذِّبُوا ، وَ ؛ قُل لَهم : { وَاتَّبِعُونِ } ؛ على التوحيدِ ، و { هَاذَا } ؛ الذي أنا عليهِ ، { صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } ؛ أي دينٌ قائم لا عِوَجَ فيهِ ، { وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ } ؛ أي لا يَصرِفَنَّكُم عن هذا الدينِ ، { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } ؛ أي ظاهرُ العداوةِ.

(٠/٠)

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا جَآءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ } ؛ أي بالْمُعجِزَاتِ ، وقال قتادةُ : (يَعْنِي الإنْجِيلَ) ، وقوله تعالى : { قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ } ؛ أي بالإنجيلِ ، وَقِيْلَ : بالنبوَّةِ ، وَ ؛ جئتكم { وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ } ؛ فيما بينكم ، قال مجاهدُ : (مِنْ أحْكَامِ التَّوْرَاةِ).
فإن قِيْلَ : فهلاَّ بَيَّنَ لَهم جميعَ ما اختلَفُوا فيه وقد أُرسِلَ إليهم ؟ قُلنا : قد اختلفوا فيه ؛ قال بعضُهم : إنَّ الذي جاءَ به عيسى في الإنجيلِ إنما هو بعضُ الذي اختلَفُوا فيهِ ، وقد بيَّنَ لهم من غيرِ الإنجيلِ ما احتاجُوا إليه.

وقال بعضُهم : معناهُ : لأُبَيِّنَ لكم بعضَ الكتاب الذي تختلفون فيهِ ، إذ كانوا مختلفين في بعضِ التَّوراةِ. وقال بعضُهم معناهُ : لأُبيِّنَ لكم أمرَ دينكم لأنَّهم كانوا مُختلفين في أمرِ دينهم ودُنياهم ، والمقصودُ من إرسالِ الرسُلِ بيانُ الدينِ ، فكان ذلك بعضَ ما اختلفوا فيه ، وقد يذكَرُ البعضُ أيضاً بمعنى الكلِّ ، كما قالَ الشاعرُ : قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُوأرادَ بالبعضِ الكلَّ ، لأن المستعجلَ أيضاً قد يدركُ البعضَ ، { فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَاذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ }.

(٠/٠)

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ } ؛ يعني اليهودَ والنصارى ، وَقِيْلَ : المرادُ فِرَقَ النصَارَى على ما تقدَّم ذِكرهُ من الاختلافِ فيما بينهم في عيسَى عليه السلام ، وقوله تعالى : { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً } ؛ أي هل ينظُرون إلاَّ القيامةَ أن تأتِيَهم فجأةً على غِرَّةٍ منهم ، " مِنْ " غير تأهُّبٍ ولا استعدادٍ ، { وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } ؛ وقتَ مجِيئها. فإنْ قِيْلَ : كيف تُسمَّى القيامةُ الساعةَ وهي تشتملُ على خمسين ألفَ سَنة ؟ قلنا : إنما سُمِّيت ساعةً لسُرعَةِ مجيئِها ، ولأنَّها في جنب ما وراءَها ساعةٌ ، وهي سريعةُ الانقضاءِ على المؤمنين.

(٠/٠)

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ } ؛ يعني الأخِلاَّءَ في يومئذٍ ؛ أي يومَ تأتي الساعةُ { بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } يعني إذا كانت الْخِلَّةُ على المعصيةِ والكُفرِ صارت عداوةً يومَ القيامةِ ، { إِلاَّ الْمُتَّقِينَ } يعني المؤمنينَ الذين يُخَالِلُ بعضُهم بعضاً على الإيمانِ والتقوَى ، فإنَّ خِلَّتَهُمْ لا تصيرُ عداوةً.

وفي الحديثِ : " أنَّ الأَخِلاَّءَ أرْبَعَةٌ : مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ ، فَإذا سُئِلَ الْمُؤْمِنُ عَنْ خَلِيلِهِ ، قَالَ : مَا عَلِمْتُهُ إلاَّ

أمَّاراً بالْمَعْرُوفِ نَهَّاءً عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الثَّانِي عَنْ خَلِيلِهِ ، فَيَقُولُ مِثْلَ ذلِكَ ، وَيُثْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ خَيْراً ، فَتَزْدَادُ مُخَالَلَتُهُمَا فِي الآخِرَةِ عَلَى الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا. ثُمَّ يُسْأَلُ أحَدُ الْكَافِرِيْنِ عَنْ خَلِيلِهِ ، فَيَقُولُ : بِئْسَ الأَخُ ؛ مَا عَلِمْتُهُ إلاَّ أمَّاراً بالْمُنْكَرِ ، نَهَّاءً عَنِ الْمَعْرُوفِ ، اللَّهُمَّ أضْلِلْهُ كَمَا أضَلَّنِي ، وَيَقُولُ الآخَرُ مِثْلَ ذلِكَ ، وَيُثْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ شَرّاً وَتَنْقَلِبُ مُخَالَلَتُهُمَا عَدَاوَةً ، لأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي ذاتِ اللهِ تَعَالَى ".

(٠/٠)

يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠)

قوله تعالى : { ياعِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ } ؛ أي يقالُ للمتَّقين : يا عِبَادِي لا خوفٌ عليكم من أهوالِ القيامة وما بعدَها ، ولا أنتُم تَحزَنُونَ إذا حَزِنَ الناسُ ، فقولهُ : (الَّذِينَ) موضعُ نصبٍ على النعتِ لِعِبَادِي ، لأن عِبَادِي مُنَادَى مضاف.
وقولهُ تعالى : { وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ } أي خَاضِعينَ مُنقَادِين ، يقالُ لَهم : { ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ } ؛ أي لأَنْتُم وحَلائِلِكُم المؤمناتِ تُكرَمُونَ غايةَ الإكرامِ بالتُّحَفِ والهدايا. ويقالُ : معنى : تُحبَرُونَ : تُسَرُّونَ ، والْحُبُورُ السُّرُورُ.

(٠/٠)

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)

وقولهُ تعالى : { يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ } ؛ أي يَطُوفُ عليهم خَدَمُهم بقِصَاعٍ من ذهبٍ فيها من أنواعِ الأطعمَةِ اللَّذِيذةِ الشَّهيَّةِ ، وواحدُ الصِّحَافِ : صَحْفَةٌ ؛ وهي القَصْعَةُ الواسعةُ العريضة ، وقولهُ تعالى : { وَأَكْوَابٍ } ؛ أي وأكوابٍ من ذهَبٍ ، والأكوابُ جمع الكُوب ، وهو إناءٌ مستدير مُدَوَّرُ الرأسِ لا عُروةَ له. وَقِيْلَ : الأكوابُ هي الأباريقُ التي لا خرَاطِيمَ لها ولا أُذُنَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ } ؛ أي في الجنَّة ما تتمنَّى الأنفُسُ وتستحسنهُ

الأعيُن ، { وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ مِن الأعمالِ الصالحة ، { لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ } ؛ ألوان الفاكهةِ الكثيرة ، { مِّنْهَا تَأْكُلُونَ }.

(٠/٠)

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } ؛ أي إنَّ الْمُجرِمِينَ في عذاب جهنَّم دائمون ، { لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ } ؛ أي يُرَفَّهُ عنهم ولا يُهَوَّنُ عليهم ، { وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } ؛ أي آيسُونَ مِن الرَّوْحِ والرَّاحَةِ.
والإبْلاَسُ هو : اليأسُ من الخيرِ ، والْمُبْلِسُ هو الساكتُ المنقطعُ لِيَأْسِهِ من الفرحِ ، { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } ؛ بهذا العذاب ، { وَلَاكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ } لأنفُسِهم بالكفرِ والمعاصي.
وفي قراءةِ ابنِ مسعود (الظَّالِمُونَ) بالرفعِ على لُغة تَميم يُعمِلُونَ الْمُضْمَرَ قبلَهُ ، وأما على القراءةِ التي ليست في المصحَفِ (فَهُمْ) زيادةٌ وفصلٌ لا موضعَ لها من الإعراب بمنْزِلة (مَا) في قولهِ{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ }[آل عمران : ١٥٩].

(٠/٠)

وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَادَوْاْ يامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ } ؛ وذلكَ أنَّهُ إذا اشتدَّ عليهم العذابُ وقد صيَّرَهم ، تَمَنَّوا الموتَ ، فنادَوا مَالِكاً خازنَ جهنَّم : يا مالِكُ ادعُ لنا ربَّكَ يقضِي علينا بالموتِ فنستريحَ من العذاب بعد أربعين سنةً ، { قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ } ؛ مُقيمون دائمون ، وعن ابنُ عبَّاس : (أَنَّهُمْ يُنَادُونَ مَالِكاً أَلْفَ سَنَةٍ فَيُجِيبُهُمْ : إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ فِي الْعَذاب) ، وقرأعليٌّ وابنُ مسعودٍ : (يَا مَالِ) بالترخيمِ.

(٠/٠)

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ } ؛ أي لقد أرسَلنا إليكم يا معشرَ قُريش مُحَمَّداً رسُولَنا بالحقِّ ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ }.

(٠/٠)

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩)

وقولهُ تعالى : { أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ } ؛ أي بل احكَمُوا عند نُفوسِهم أمراً في كيدِ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم والْمَكْرِ به ، فإنَّا مُحكِمُونَ أمْراً في مُجازَاتِهم شَرّاً بشَرٍّ.

(٠/٠)

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } ؛ السِّرُّ ما يعقدهُ الإنسانُ في نفسهِ ويُضمِرَهُ بقلبهِ ، والنَّجوَى ما يُحَدِّثُ به غيرَهُ في الخِفْيَةِ ، وقولهُ تعالى (بَلَى) أي نسمَعُ سِرَّهم ونَجوَاهُم ، ورسُلُنا هم الْحَفَظَةُ عندَهم ، يكتُبونَ عليهم ذلكَ.
ويقالُ : إنَّ هذه الآيةَ نزلت في ثلاثةِ نَفَرٍ من المشركين ، وهم صفوانُ بن أُمَية ، وربيعةُ بن عمرٍو وأخوهُ حبيبُ بن عمرٍو ، وكانوا يَمْكُرُونَ في قتلِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أخبرْنَا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ لأصحابهِ : إنَّ الله يعلَمُ السرَّ يكون بين الاثنينِ ، أفَتَرَوْنَهُ يعلمُ ما نقولُ ؟ قال ربيعةُ : أراهُ يعلَمُ بعضَ ما نقولُ ولا يعلَمُ بعضاً ، فقال صفوانُ : ولا كلمةً واحدةً ، ولو عَلِمَ بعضَهُ لعلمَهُ كُلَّهُ ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ.

(٠/٠)

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } ؛ وذلك أنَّ المشركين لَمَّا قالوا : لله ولدٌ! ولَم يرجِعُوا عن مَقالَتِهم ، أنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ، والمعنى : قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : { إِن كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ } في زَعمِكم { فَأَنَاْ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } مَن عبدَ اللهَ وحدَهُ وكذبَكم بما تقولون ، هكذا رُوي عن مجاهد.
وقال قتادةُ والحسن : (مَعْنَاهُ : مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ عَبَدَ اللهَ مِنْ أَهْلِ هَذا الزَّمَانِ). وَقِيْلَ : معناهُ : إنْ كان للرَّحمنِ ولدٌ كما تزعمون فأنَا أوَّلُ مَن غَضِبَ للرحمنِ ، فعلى هذا القولِ العَابدُ من العَبَدِ بمعنى الغَضَب. وقال الفرَّاءُ : (عَبَدَ عَلَيْهِ أيْ غَضِبَ عَلَيْهِ). وَقِيْلَ : معناهُ : فأنا أوَّلُ الآنِفِينَ ، يقالُ : عَبَدَ يَعْبُدُ ؛ إذا أنِفَ وَغَضِبَ.

(٠/٠)

سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ نَزَّهَ اللهَ تعالى نفسَهُ مما يقولُ المشركون ؛ أي تَنْزِيهاً لخالقِ السَّمواتِ والأرضِ ، { رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } ؛ يُضِيفُونَ إليه مِن الولدِ.

(٠/٠)

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣)

وقوله تعالى : { فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّى يُلَاقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ } ؛ أمرٌ بتركِهم على وجه التوبيخِ ؛ أي اترُكْ يا مُحَمَّدُ كفارَ مكَّة يخوضُوا في أباطيلِهم ، ويلعَبُوا في دُنياهم بمقالتِهم حتى يُعاينُوا يومَ القيامةِ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤)

وقولهُ تعالى : { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمآءِ إِلَاهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَاهٌ } ؛ أي هو معبودُ مَن في السَّموات ومَن في الأرضِ ، لا معبودَ غيرهُ ولا إلهَ إلاَّ هُوَ ، { وَهُوَ الْحَكِيمُ } ؛ في أمرهِ وقضائه ، { الْعَلِيمُ } ؛ بخلقهِ وتدبيرِهم.

(٠/٠)

وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)

وقولهُ تعالى : { وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } ؛ أي تعالَى ودامَ الذي بيدهِ خزائنُ السموات والأرضِ وما بينهما ، { وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } ؛ أي عِلمُ قيامِ الساعة ، لا يعلَمُ وقتَها أحدٌ غيرهُ ، { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ؛ في الآخرةِ.

(٠/٠)

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ } ؛ أي لا يَملِكُ الذين يدْعُونَ من دونهِ الشفاعةَ ، ثُم استَثْنَى عيسَى والعزيرَ والملائكةَ فقالَ : { إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ } ؛ أي مَن شَهِدَ أنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ ، { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } ؛ بقُلوبهم ما شَهِدُوا به بأَلسِنَتِهم. والمعنى : إلاَّ مَن شَهِدَ بكلمةِ التوحيد ، وعَلِمَ بقَلْبِهِ أنَّها حقٌّ.

(٠/٠)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧)

وقولهُ تعالى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } ؛ أي ولئِنْ سألتَ هؤلاءِ الذين عَبَدُوا غيرَ اللهِ : مَن خلَقَهم وخلَقَ معبودَهم ؟ ليقُولُنَّ : اللهُ خلَقَهم ، فمِن أين يُصرَفُونَ عن عبادةِ اللهِ مع معرفتِهم بأنه الخالقُ ، والخالقُ أولى بالعبادةِ من المخلوقِ؟

(٠/٠)

وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقِيلِهِ يارَبِّ إِنَّ هَاؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ } ؛ من قرأ بنصب اللام ؛ فمعناهُ : يعلمُ قيامَ الساعة ، ويعلمُ (قِيلَهُ) محمد يا ربِّ ؛ لأن معنى{ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ }[الزخرف : ٨٥] ويعلمُ قيامَ الساعةِ. وقيل : انتصبَ عطفاً على قوله{ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم }[الزخرف : ٨٠] كأنه قال : أمْ يحسبون أنا لا نسمعُ سِرَّهم ونجواهم ، (وَقِيلَهُ) يا ربِّ في شكوى منهم إلى ربه. قال المبرِّدُ : (الْعَطْفُ عَلَى الْمَنْصُوب حَسَنٌ وَإِنْ تَبَاعَدَ الْمَعْطُوفُ عَلَى الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ).

ومَن قرأ (وَقِيلِهِ) بكسرِ اللامِ فهو على معنى : وعندَهُ علمُ الساعةِ وعلمُ قِيلِهِ. والقِيْلُ مصدرٌ كالقولِ ، يقالُ : قلْتُ قَوْلاً وقِيْلاً وقَالاً. ولو قُرئ (وَقِيلُهُ) بالرفعِ على معنى : وقيلُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، هذا كان جائزاً في الكلامِ.

(٠/٠)

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاصْفَحْ عَنْهُمْ } ؛ أي أعرِضْ عنهم إلى أن تُؤمَرَ فيهم بشيءٍ ، { وَقُلْ سَلاَمٌ } ، قال عطاءُ : (يُرِيدُ مُدَارَاةً حَتَّى يَنْزِلُ حُكْمِي) ، ومعناهُ : الْمُتَارَكَةُ ؛ أي سلامُ هِجرَانٍ وتركٍ لا سلامَ تحيَّةٍ ، { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } ؛ عاقبةَ كُفرِهم ، وماذا ينْزِلُ بهم فيَندَمُونَ حين لا ينفعُهم الندمُ.

ومَن قرأ (تَعْلَمُونَ) فعلى الأمرِ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بأن يُخاطِبَهم بهذا ، قال مقاتلُ : (نَسَخَ السَّيْفُ الإِعْرَاضَ وَالسَّلاَمَ).

(٠/٠)

حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ } ؛ أَوَّلُ السورةِ قَسَمٌ ، وجوابهُ : { إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ } ؛ وَقِيْلَ : جوابهُ : { إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ } لأنه ليس من عادةِ العرب أن يُقسِمُوا بنفسِ الشيء الذي يُخبرُونَ عنه ، فعلَى هذا يكون قولهُ : { إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ } مُعتَرِضاً بين القسَمِ والجواب ، { فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ } ، والليلةُ المباركَةُ : هي ليلةُ القَدْرِ ، { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } ، أنزلَ اللهُ فيها القرآنَ إلى السَّفَرَةِ في السَّماءِ الدُّنيا ، فوضعوهُ في بيت العِزَّةِ ، ثُم كان جبريلُ يَنْزِلُ به على النبيِّ صلى الله عليه وسلم شيئاً بعدَ شيءٍ على مقدار الحاجة ، هكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس ، وقد قدمنا ذلكَ في قولهِ تعالى{ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ }[البقرة : ١٨٥].

وسُمِّيت هذه الليلةُ مباركةً لأنَّ فيها الرحمةُ ومغفرةُ الذنوب ، وفيها يقدِّرُ اللهُ الأشياءَ من أرزاقِ العباد وآجالِهم وغيرِ ذلك من الأمُور. ويقالُ : إنما سُمِّيت مباركةً لأنه لا يُقدِّرُ فيها شيئاً من الْمَكَارهِ ، كما قالَ تعالى : { سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ }[القدر : ٥].

وعن عكرمةَ أنه كان يقولُ : (اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ هِيَ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ، فِيهَا يُقْضَى كُلُّ أمْرٍ فِيْهِ حِكْمَةٌ ، وَفِيهَا يُنْسَخُ لِجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَمَلَكُ الْمَوْتِ جَمِيعَ مَا هُمْ مُوَكَّلُونَ بِهِ مِنْ سَنَةٍ إِلَى سَنَةٍ). وكان ابنُ عبَّاس يقولُ : (إِنَّكَ لَتَلْقَى الرَّجُلَ فِي السُّوقِ قَدْ كُتِبَ اسْمُهُ فِي الْمَوْتَى). والصحيحُ : أنَّ الليلةَ المباركةَ هي ليلةُ القَدْر ، وعليه أكثرُ المفسِّرين.

(٠/٠)

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَآ } ؛ انتصبَ بـ (يُفْرَقُ) بمنْزِلة (يُفْرَقُ) لأن (أمْراً) بمعنى فَرْقاً. وفيه بيانُ أنَّ الذي يُفْرَقُ في هذه الليلةِ لا يكون إلاَّ من عندِ الله تعالى وتدبيرِه ، كأنَّهُ قال : بأمرٍ مِن عندِنا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } ؛ أي مُرسلِين مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ومَن قَبلَهُ من الأنبياءِ ، { رَحْمَةً

مِّن رَّبِّكَ } ؛ أي رَأفَةً منِّي بخَلْقِي ونعمةً عليهم. وانتصبَ على أنه مفعولٌ له على تقديرِ الرَّحمةِ ، وقال الزجَّاجُ : (تَقْدِيرُهُ : إنَّا أنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ لِلرَّحْمَةِ). { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } ؛ لِمَا يقولهُ الْمُحِقُّ والْمُبْطِلُ ، { الْعَلِيمُ } ، بأفْعَالِ العبادِ.

(٠/٠)

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨)

وقولهُ تعالى : { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ } ؛ بالخفضِ على البدلِ من قوله { رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ }. وقولهُ تعالى : { وَمَا بَيْنَهُمَآ } يعني من الهواءِ والخلقِ. وقوله تعالى : { إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ } ؛ معناهُ : أنَّ الذي دَبَّرَ السمواتِ والأرضَ هو الذي دَبَّرَ بإرسالِ الرُّسُلِ رحمةً منه ، فإنْ كُنتم مُوقِنينَ بتدبيرِهِ في السَّمواتِ والأرض ، فأَيقِنُوا إنَّما هو مثلهُ. واليقينُ : ثَلْجُ الصَّدر بالْعِلْمِ ، ولذلك يقالُ : وجدَ بَرْدَ اليَقِينِ ، ولا يجوزُ في صفاتِ الله تعالى : مُوقِنٌ ، ويجوزُ : عَلِيمٌ وعَالِمٌ.

(٠/٠)

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩)

وقولهُ تعالى : { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ } ؛ يعني الكفارَ من هذا القرآنِ ، { يَلْعَبُونَ } ؛ أي يَهْزَأُونَ به لاَهِينَ عنهُ.

(٠/٠)

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ

مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)

وقوله تعالى : { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَاذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ } ؛ وذلك أنَّ الْمُشْرِكِينَ بَالَغُوا فِي إِيْذاءِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ويَئِسَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ بهِ ودعَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ : " اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرٍ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ ".

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَاتِ ، فَأَخَذتْهُم السَّنَةُ حَتَّى أَكَلُوا الْجِيَفَ وَالْكِلاَبَ وَالْعِظَامَ الْمُحَرَّقَةَ مِنَ الْجُوعِ ، وَارْتَفَعَ الْقَطْرُ وَأجْدَبَتِ الأَرْضُ ، وَكَانُواْ إذا نَظَرُواْ إِلَى السَّمَاءِ رَأوا دُخَّاناً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لِلظُّلْمَةِ الَّتِي غَشِيَتْ أعْيُنَهُمْ وأبْصَارَهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ. ويقال : يَبسَتِ الأرضُ وانقطعَ الغيثُ.

والمعنى : فانتظِرْ يا مُحَمَّدُ يومَ تأتِي السَّماءُ بدُخَانٍ مُبينٍ ، " فَجَاءَ أبُو سُفْيَانَ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ جِئْتَ تَأْمُرُنَا بصِلَةِ الرَّحِمِ وَإنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُواْ ، فَادْعُ اللهَ لَهُمْ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ دَعَوْتُكَ فَأَجَبْتَنِي ، وَسَأَلْتُكَ فَأَعْطَيْتَنِي ، اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثاً مُغِيْثاً مَرِيّاً مَرِيعاً طَبَقاً عَاجِلاً غَيْرَ آجِلٍ نَافِعاً غَيْرَ ضَارٍّ " ، فَمَا بَرِحَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حَتَّى أنْزَلَ اللهُ الْمَطَرَ.

وَجَاءَ النَّاسُ يَشْتَدُّونَ وَقَالُواْ : الْغَرَقُ الْغَرَقُ ، فَقَرَأ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ } فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الشِّدَّةَ ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْكُفْرِ " فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى } ؛ وذلك يومُ بدرٍ ، { إِنَّا مُنتَقِمُونَ }.

وهذا التأويلُ إنما يستقيمُ على قولِ ابن مسعودٍ فإنه كان يقولُ : (خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ : الدُّخَّانُ وَالرُّومُ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ وَانْشِقَاقُ الْقَمَرِ) وكان يذهبُ إلى أنَّ البطشةَ الكُبرَى هي التي أصابَتْهُم يومَ بدرٍ ، وذلك أعظمُ من الجوعِ الذي أصابَهم بمكَّةَ.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالدُّخان في هذه الآياتِ : الدخَّانُ الذي يُنْزِلهُ اللهُ تعالى عندَ قيامِ الساعة ، ثم يغشَاهُم عذابٌ أليم بعدَ ذلك ، كما رُوي عن مسروقٍ أنه قالَ : (إذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَزَلَ دُخَّانٌ مِنَ السَّمَاءِ ، فَأَخَذ بأَسْمَاعِ الْكُفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَأبْصَارِهِمْ حَتَّى تَصِيرَ رُؤُوسُهُمْ كَالرَّأسِ الْحَنِيذِ ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ بمَنْزِلَةِ الزُّكَامِ).

فعلى هذا القولِ يكون معنى قولهِ تعالى : { أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى } أي مِن أين لَهم الذِّكرَى ، أي مِن أين ينفعُهم إيمانُهم { وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ } في الوقتِ الذي كانوا مكلَّفين فيه ثُمَّ أعرَضُوا عن الإيمانِ به { وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ } أي هو معلِّمٌ يعلِّمهُ الجنُّ ، ويعترِضُون له. وَقِيْلَ : معناهُ : يعلِّمهُ بشَرٌ مجنونٌ بادِّعائهِ النبوَّةَ. ويكون معنى قولهِ : { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ } أي عذابَ الدُّنيا بعد مجيءِ الرسولِ إلى وقت

الدُّخان ، فمَهَّلَهُم لكي يتُوبُوا ، ولن يتُوبُوا.
والمرادُ بالبطشةِ الكُبرَى على هذا القولِ يومُ القيامةِ ، وأما على القولِ الأوَّلِ فقولهُ : { أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى } أي التذكُّر والاتِّعاظُ ، يقولُ : كيف يتذكَّرُون ويتِّعِظون ، وحالُهم أنه قد جاءَهم رسولٌ مُبينٌ ظاهرُ الصِّدقِ والدلالة ، { ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ } أي أعْرَضُوا ولَمْ يقبَلُوا قولَهُ.
وقولهُ تعالى : { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ } يعني عذابَ الجوعِ { قَلِيلاً } أي زَمَاناً يَسِيراً ، قال مقاتلُ : (يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ فِي كُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ) وفيه إعلامٌ أنَّهم لا يتَّعِظُون ، وإنه إذا رُفِعَ عنهم العذابُ عادُوا إلى طُغيانِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى } أي واذكُرْ لَهم ذلك اليومَ ، يعني يومَ بدرٍ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ } ؛ أي كلَّفنا قبلَ أهلِ مكَّة قومَ فرعونِ مِن الطاعَةِ ما اشتدَّ عليهم ، { وَجَآءَهُمْ } ؛ موسَى ، { رَسُولٌ كَرِيمٌ } ، لا خلافَ على اللهِ تعالى.

(٠/٠)

أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤)

وقولهُ تعالى : { أَنْ أَدُّواْ إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ } ؛ أي بأَنْ أدُّوا إلَيَّ بني إسرائيلَ ، وهذا قولُ موسَى ، يقولُ : أطلِقُوا بني إسرائيلَ من العذاب والتسخيرِ ، فإنَّهم أحرارٌ ، { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ } ؛ من اللهِ ، { أَمِينٌ } ؛ على الرسالةِ ، لستُ بخائنٍ ولا كذابٍ ولا كاتِمٍ مما أُوحِيَ إلَيّ ، { وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى اللَّهِ } ؛ أي لا تتجبَّرُوا عليه بتركِ طاعته ، { إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } ؛ بحجَّةٍ بَيِّنَةٍ ظاهرةٍ تدلُّ على صِدقِي.
فلمَّا قالَ موسى هذه المقالةَ توعَّدُوهُ بالقتلِ بالحجارةِ ، فقال : { وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ } ، أي اعتصمتُ بخالقي وخالقكم من أن تقتلوني بالحجارة ، { وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَاعْتَزِلُونِ } ؛ أي وإنْ

لَم تصَدِّقونِ فاترُكوني لا معِي ولا عليَّ ، فلا أقلَّ مِن أن تَكُفُّوا شرَّكُم عنِّي.
فأَبَوا أن يقبَلُوا منه ، ولم يؤمنوا به ، { فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَاؤُلاَءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ } ؛ أي مُشرِكون ، ولم يَدْعُ إلاَّ بعد أنْ أُذِنَ له في الدُّعاء عليهم ، فدعا عليهم.
قَالَ اللهُ تَعَالَى له : { فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً } ؛ حتى تَقْطَعَ بهمُ البحرَ ، { إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ } ؛ يتبعكم فرعونُ وقومهُ فيكون ذلك سَبباً لغَرقِهم ، فسارَ موسَى بمَن معَهُ من بني إسرائيلَ حتى أتَى بهم البحرَ ، فضربَهُ بعصاهُ بأمرِ الله تعالى فانفلَقَ ودخلَهُ أصحابهُ.
ثُم عطَفَ موسَى ليضرِبَ البحرَ بعصاهُ ليَلتَئِمَ ويخلطَ الطريقَ التي جعلَها اللهُ لبني إسرائيل حتى لا يعبُرَ فيها فرعونُ وقومه ، فقيلَ له : { وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً } ؛ أي سَاكِناً مُنفَتِحاً على ما هو عليه حتى يدخلَهُ فرعونُ وجنوده ، { إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ } ؛ في حُكمِ اللهِ تعالى.
قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى قَوْلِهِ اتْرُكْهُ رَهْواً ؛ أي اتْرُكْهُ طَرِيقاً). والرَّهْوُ : يكون بمعنى الفُرْجَةِ بين الشَّيئين ، ونظرَ أعرابيٌّ إلى فَالِجٍ ؛ فقالَ : سُبحان اللهِ! رَهْوٌ بين سِنَامَين ، فيكونُ المعنى على هذا : واترُكِ البحرَ ذا رَهْوٍ ؛ أي ذا فُرجَةٍ ، وهي الطريقُ التي أظهرَها اللهُ تعالى في الماءِ.

(٠/٠)

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ } أي كَم ترَكَ فرعونُ وقومه بعدَ الغرقِ من بسَاتين عامرةٍ بليغةِ الأشجار ، وعيونٍ ظَاهرةٍ عَذْبَةٍ فيها زرعٌ ومساكن شريفةٌ حسَنةٌ ، { وَنَعْمَةٍ } ؛ أي وعيشٍ ليِّنٍ ، { كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ } ؛ أي نَاعِمينَ متعجِّبين ، { كَذَلِكَ } ؛ كانت حالُهم. وَقِيْلَ : كذلك أفعَلُ بمَن عصَانِي ، { وَأَوْرَثْنَاهَا } ؛ وأورثنا ما تركوهُ ، { قَوْماً آخَرِينَ } ؛ وهم بنو إسرائيل ، رجَعُوا بعدَ هلاكِ فرعون إلى مصرَ فصارت أموالُ قومِ فرعون ونَعيمُهم لهم من غيرِ كُلفَةٍ ولا مشقَّةٍ ، كالميراثِ الذي ينقلُ من المورثِ إلى الوارثِ من غير مشقَّةٍ تلحقُ الوارثَ ، وهذا من غايةِ إنعامِ الله على بني إسرائيل.

(٠/٠)

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)

قوله : { فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ } ؛ أي ما بَكَتْ على فرعونَ وقومه ؛ أي كانوا أهْوَنَ من أن يَبكِي عليهم أحدٌ من أهلِ السَّماء والأرضِ ، إنَّهم كانوا في مقامِ الجدي.
قال صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلاَّ وَلَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَان : بَابٌ يَصْعَدُ فِيْهِ عَمَلُهُ ، وَبَابٌ يَنْزِلُ فِيْهِ رِزْقُهُ ، فَإذا مَاتَ بَكَيَا عَلَيْهِ ، وَكَذلِكَ مُصَلاَّهُ الَّذِي كَانَ يُصَلِّي فِيْهِ مِنَ الأَرْضِ " فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ }. وعن مجاهدٍ أنه قالَ : (إذا مَاتَ الْمُؤْمِنُ بَكَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ أرْبَعِينَ يَوْماً صَبَاحاً). وعن السديِّ قالَ : (لَمَّا قُتِلَ الْحُسَيْنُ رضي الله عنه بَكَتِ السَّمَاءُ عَلَيْهِ ، وَبُكَاؤُهَا حُمْرَةُ أطْرَافِهَا).
والمعنى على هذا : لَمْ يكن لفرعونَ وقومه موضعُ طاعةٍ في الأرضِ ولا مصاعِدُ طاعاتٍ في السَّماء فتفقِدَهم وتبكِي عليهم ، بخلافِ المؤمنين. وقولهُ تعالى : { وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ } ؛ أي لَمْ يُنظَروا ولم يُمهَلُوا حين أخذهم العذابُ لتوبةٍ ولا لغيرِها.

(٠/٠)

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ } ؛ أي خلَّصنَاهُم مما كان فرعونُ يفعلُ بهم من ذبحِ الأبناء واستحياءِ النِّساء واستعمالِهم في الأمُور الشاقَّة. وقولهُ تعالى : { مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً } ؛ أي متكبراً ؛ { مِّنَ الْمُسْرِفِينَ } ، من الْمُتَجَاوزينَ عن الحدِّ حتى ادَّعَى الإلهيَّة.

(٠/٠)

وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } ؛ أي اخترنا بني إسرائيلَ بكَثرَةِ الأنبياءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ فيهم على عالَمي زمانِهم ، { وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ } ؛ من فَلْقِ البحرِ وتظليلِ الغَمامِ وإنزال الْمَنِّ والسَّلوَى وغيرِ ذلك ، { مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ } ؛ أي نعمةٌ ظاهرة.

(٠/٠)

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ هَاؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُوْلَى } ؛ راجعٌ إلى ذكرِ كفَّار مكَّة يقولون : ما الْمَوْتَةُ نَموتُها في الأُولى ثم لا نُبعَثُ بعدَها ، ومعنى قولهِ : { وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ } ؛ أي بمبعُوثِينَ ، وهذا ذمٌّ لهم على الجهلِ.

(٠/٠)

فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)

وقوله تعالى : { فَأْتُواْ بِآبَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ أي قالوا فَأحْيِي يا محمد آباءَنا الذين ماتوا حتى نسألَهم : أحقٌّ ما تقولُ أم باطلٌ ؟ ورُوي أنَّهم كانوا يقولون : إنْ كان ما تقولهُ فَأْتِ بقُصَيِّ بن كلابٍ ليُخبرَنا عنكَ ، فإنه كان صَدُوقاً فيما بيننا.

(٠/٠)

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ } ؛ خوَّفَهم اللهُ تعالى مثلَ عذاب الأُمم الخاليةِ ، فقال : (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ) أي ليسوا خَيراً منهم ، يعني أقوَى وأشدَّ وأكثرَ ، والمعنى أهُمْ خيرٌ في القدرةِ والقوَّةِ والمالِ ، أمْ قومُ مَلِكِ اليمَنِ { وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ }.
وخصَّ مَلِكَ اليمنِ بالذِّكرِ لأنه كان أقربَ إلى زمانِهم. وتُبَّعُ اسمٌ لكلِّ مَن كان من مُلوكِ اليمنِ ، كما أنَّ فرعونَ اسمُ ملكِ مصرَ ، وقيصرَ اسمُ ملكِ الروم ، وكسرَى اسم ملك العجَمِ. وإنما سُمِّي ملكُ اليمنِ بهذا الاسمِ لكثرة تَبَعِهِ.

وجاءَ في التفسيرِ : أنَّ ملكَ اليمنِ الذي كان أقربَ إلى زمانِهم كان مُؤمناً ، وكان اسمهُ أسعَدُ بنُ مَلكي كرب ، وكان قومهُ كُفَّاراً. ورُوي عن عائشةَ أنَّها قالت : (كَانَ تُبَّعُ رَجُلاً صَالِحاً ، ألاَ تَرَى أنَّ اللهَ تَعَالَى ذمَّ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذِمَّهُ). ورُوي : (أنَّهُ وُجِدَ مَكتُوباً عَلَى قَبْرَينِ بنَاحِيَةِ حِمْيَرَ : هَذانِ قَبْرَا رَضْوَى وَحَصْيَا ابْنَيْ تُبَّعٍ مَاتَا لاَ يُشْرِكَانِ باللهِ شَيْئاً).

(٠/٠)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ } ؛ أي لَمْ نخلِقْهُما عابثين ، { مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ } ؛ أي للحَقِّ ؛ أي للثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ } ؛ أكثر المشركين ، { لاَ يَعْلَمُونَ }.

(٠/٠)

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢)

وقولهُ تعالى : { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ معناهُ : إنَّ يومَ الفَصْلِ بين الخلائقِ ميعادُهم أجمعين ، يُوافِي يومَ القيامةِ الأوَّلُون والآخِرون.
ثم نَعَتَ ذلك اليومَ فقال تعالى : { يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً } ؛ أي يومَ لا ينفعُ فيه صديقٌ صديقاً ولا قريبٌ قريباً ، { وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ } ؛ أي ولا يُمنَعُونَ من عذاب الله ، { إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ } ؛ وهم المؤمنون ، فإنه يَشْفَعُ بعضُهم لبعضٍ ، قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " وَإنَّ الرَّجُلَ مِنْ أُمَّتِي لَيَشْفَعُ لأَكْثَرَ مِنْ رَبيعَةَ وَمُضَرَ " { إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ } ؛ في انتقامهِ من أعدائهِ ، { الرَّحِيمُ } ؛ بالمؤمنين.

(٠/٠)

إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ شجرةِ الزقُّوم ، والأثِيمُ ذو الإثْمِ وهو أبُو جهلٍ ، قال أهلُ اللغة : الأثِيمُ كثيرُ الإثمِ ، وعن ابنِ مسعود : (أنَّهُ كَانَ يُلَقِّنُ رَجُلاً : (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الأَثِيمِ) فَكَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ : طَعَامُ الْيَتِيمِ! فَقَالَ لَهُ : قُلْ : طَعَامُ الْفَاجِرِ). { كَالْمُهْلِ } ؛ دُرْدِيُّ الزيتِ وعكرُ القِطْرَانِ ، وهو أسوَدُ غليظٌ. وَقِيْلَ : الْمُهْلُ كُلُّ مَا يُمْهَلُ في النار من نُحاسٍ أو فضَّةٍ أو غيرِ ذلك حتى يَذُوبَ ويَنْمَاعَ يشتَدُّ حرُّهُ.
وقولهُ تعالى : { يَغْلِي فِي الْبُطُونِ } ؛ أي في بُطونِ الكفَّار ، وقرئَ (يَغْلِي) بالياءِ يعني الطعامَ ، واختارَهُ أبو عبيدٍ ؛ لأن الْمُهْلَ مذكَّرٌ ، وقرئَ بالتاءِ يعني الشَّجرةَ ، قال أبو علي الفارسي : (لاَ يَجُوزُ أنْ يُحْمَلَ الْغَلْيُ عَلَى الْمُهْلِ ؛ لأَنَّ الْمُهْلَ إنَّمَا ذُكِرَ لِلتَّشْبِيهِ به فِي الذوْب ، ألاَ تَرَى أنَّ الْمُهْلَ لاَ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ إنَّمَا يَغْلِي مَا شُبهَ بهِ).

(٠/٠)

كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَغَلْيِ الْحَمِيمِ } ؛ يعنِي الماءَ الحارَّ إذا اشتدَّ غَليانهُ. وقولهُ تعالى : { خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَآءِ الْجَحِيمِ } ؛ يقالُ للزَّبانِيَةِ : (خُذُوهُ) يعني الآثِمَ (فَاعْتِلُوهُ) أي قُودُوهُ بالعُنقِ دَفعاً وسَحباً إلى وسطِ الجحيمِ ، يقالُ : عَتَلَهُ يَعْتُلُهُ ، ويَعْتِلُهُ إذا جَرَّهُ وذهبَ به إلى مكروهٍ ، وقال مجاهدُ : (فَادْفَعُوهُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى وَسَطِ الْجَحِيمِ). وَقِيْلَ للوسَطِ : سَوَاءٌ لاستواءِ المسافة بينَهما وبين أطرافهِ المحيطة به.

(٠/٠)

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ } ؛ قال مقاتلُ : (إنَّ خَازنَ النَّار يَضْرِبُهُ عَلَى رَأْسِهِ " بمَقْمَعَةٍ مِنْ حَدِيدٍ " فَيَنْقِبُ رَأْسَهُ عَنْ دِمَاغِهِ ، ثُمَّ يَصُبُّ فِيْهِ مَاءً حَمِيماً قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ ، وَيَقُولُ لَهُ) :

{ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ }.
وذلكَ أنَّ أبا جَهلٍ قالَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بأَيِّ شَيْءٍ تُهَدِّدُنِي! فَوَاللهِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلاَ رَبُّكَ " أنْ " تَفْعَلاَ بي شَيْئاً ، وَإِنِّي لَمِنْ أعَزِّ أهْلِ هَذا الْوَادِي وَأكْرَمِهِمْ! فَيَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ : ذُقِ الْعَذابَ أيُّهَا الْمُتَعَزِّزُ الْمُتَكَرِّمُ فِي زَعْمِكَ كَمَا كُنْتَ تَقُولُهُ. وقرأ الكسائيُّ (أنَّكَ) بالفتحِ على تقدير : ذُقْ بأنَّكَ أو لأَنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريم ، أو بهذا القولِ الذي قلتَهُ في الدُّنيا.

(٠/٠)

إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ هَاذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ } ؛ أي يقولُ لَهم الخازنُ : إنَّ هذا العذابَ الذي كُنتم به تَشُكُّونَ في الدُّنيا أو تَكذِبُونَ به.

(٠/٠)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } الأمِينُ هو المقَامُ الذي أمِنُوا فيه الغَيَرَ من الموتِ والحوادث ، والْمَقَامُ هو المجلسُ ، وقرئَ (مُقَامٍ) بضمِّ الميمِ ، يريدُ موضعَ الإقامةِ ، ومعنى القراءَتين واحدٌ.

(٠/٠)

يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣)

وقوله : { يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ } ؛ السُّنْدُسُ ما لَطُفَ من الدِّيباجِ ، والاسْتَبْرَقِ ما غَلُظَ منه مع

دقَّةِ السِّلكِ ، وهما نَوعَانِ من الحريرِ. وقوله تعالى : { مُّتَقَابِلِينَ } ؛ أي يُقابلُ بعضُهم بعضاً في المجالسِ بالتحيَّة والمحبَّةِ.

(٠/٠)

كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ } ؛ أي كذلكَ حالُهم في الجنَّة ، وقَرَنَّاهُمْ بحُورٍ عِينٍ ، والْحُوْرُ : الشَّدِيدَةُ بيَاضِ العينِ ، الشديدةُ سَوَادِها ، البيضاءُ البشَرةِ والعينِ ، جمعُ العَيْنَاءِ ، واسعةُ العينِ الحسَنةِ ، قال مجاهدُ : (الْحُورُ : هُنَّ اللَّوَاتِي يُحَارُ الطَّرْفُ فِيْهِنَّ ، يَرَى مُخَّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهِنَّ ، يَرَى النَّاظِرُ وَجْهَهُ فِي صَدْرِ إِحْدَاهُنَّ كَالْمِرْآةِ مِنْ رقَّةِ الْجِلْدِ وَصَفَاءِ اللَّونِ).

(٠/٠)

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَدْعُونَ فِيهَا بِكلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ } ؛ فيه بيانُ أنَّ بساتينَ الجنَّة تشتملُ على كلِّ الفواكهِ في كلِّ وقتٍ من الأوقاتِ بخلاف بسَاتينِ الدُّنيا ، وقولهُ تعالى : { آمِنِينَ } من الانقطاعِ والنُّقصانِ ، وآمِنينَ مما يخافُ من الفواكهِ من التُّخَمِ والأمراضِ والأسقامِ.

(٠/٠)

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى } ؛ أي لا يَمُوتونَ سِوَى الموتَة التي ذاقُوها في الدُّنيا ، { وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } ؛ أي ودفعَ عنهم ربُّهم عذابَ النار مع ما أعطَاهُم من النعيمِ

المقيم. وقوله تعالى : { فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ؛ أي فَعَلَ اللهُ ذلك بالمتَّقين تفَضُّلاً منه عليهم. وسُمي الثوابُ " فضلاً " لأنَّ اللهَ تعالى لم يكلِّفْهم لحاجتهِ ، ولكن ليَصِلُوا إلى ذلك الثواب.

(٠/٠)

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ } ؛ أي أنزَلنا القُرآنَ بلُغَتِكَ ولُغةِ قَومِكَ ليَسهُلَ عليهم ، و { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } ؛ يتَّعِظُونَ فيُؤمِنُوا به ، ولولا تَيسِيرُ اللهِ حِفظَهُما ما قَدَرَ أحدٌ على حفظهِ لعِظَمِ أمرهِ وجَلالِ قَدرهِ.

(٠/٠)

فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ } ؛ أي انتَظِرْ بالكفَّار ما وعَدنَاهُم من العذاب إنَّهم مُنتَظِرُونَ هلاكَكَ.

قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأ سُورَةَ الدُّخَانِ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً وَتَصْدِيقاً ، بهَا ، أصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ ، وَإِنْ قَرَأهَا فِي سَائِرِ اللَّيَالِي كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".

(٠/٠)

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣)

{ حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } ؛ { حم } مبتدأٌ وخبرهُ { تَنزِيلُ } ، وقولهُ تعالى : { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لأيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ } أي لدَلالاَتٍ على الحقِّ تدلُّ بخلقِها على أنَّ لها خالقاً قَديماً

لا أوَّلَ له ، ويدلُّ تعظِيمُها وبقاؤها من غيرِ علاقةٍ فوقَها ولا عِمَادٍ تحتَها على قادرٍ لا يُعجِزهُ شيءٌ. وقولهُ تعالى { لأيَاتٍ } في موضعِ نصبٍ ؛ لأنه اسمُ (إنَّ) ، كما يقالُ : إنَّ في الدار لزيداً.

(٠/٠)

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَاتٌ } ؛ أي وفي خلقِكم حَالاً بعد حالٍ من نُطفةٍ إلى أن يصيرَ إنساناً ثم يصيرَ فيه العقلُ ثم الحواسُّ ، وما يبُثُّ من دابَّةٍ على وجهِ الأرض على اختلافِ أجناسِ الدواب ومنافعِها وصُوَرها ، وما يقصرُ من منافعِها في ذلك دلالاتٌ واضحة على وحدانيَّة اللهِ تعالى : { لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } ؛ يطلُبون علمَ اليقينِ ، ويوقِنُون أنَّه لاَ إلهَ غيرهُ.
وقرأ حمزةُ (آيَاتٍ) (وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) بالكسرِ على أنَّهما منصُوبان نَسَقاً على قولهِ تعالى{ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }[الجاثية : ٣] على معنى وإنَّ في خلقِكم آياتٍ ، ومَن رفعَ فعلى الاستئنافِ بعدَ أنْ ، تقولُ العرب : إنَّ لِي عليكم مَالاً وعلى أخِيكَ مالٌ ، ينصبُون الثاني ويرفعونَهُ.

(٠/٠)

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } ؛ أي وفِي ذهابهما ومجيئِهما ، وما يحدثُ في كلِّ واحدٍ منهما من الزيادةِ والنُّقصان من غير أنْ يكونا جَميعاً أزيدَ من أربعٍ وعشرين ساعةً ، { وَمَآ أَنَزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مَّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ } ، وفيما أنزلَ اللهُ من السَّماءِ من المطرِ فأحيَا به الأرضَ بعد يُبسِها ، وفي تقَلُّب الرياحِ شمالاً وجَنُوباً وقُبُولاً ودُبُوراً وعَذاباً ورحمةً ، { ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ؛ الدلالةَ ويتدبَّرونَها.

(٠/٠)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ } ؛ أي تلكَ التي سبقَ ذِكرُها دلائلُ اللهِ لعبادهِ يتلُوهَا عليكَ جبريلُ بأَمرِنا بقصصنا عليك بالحقِّ ، { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ } ، كتاب ، { اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ } ؛ إنْ لم يُؤمِنُوا بهذا القرآنِ. ومَن قرأ بالتاءِ فعلى تأويلِ : قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : فبأَيِّ حديثٍ تؤمنون.

(٠/٠)

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ؛ يعني النضرَ بن الحارثِ ، كان يروي من أحاديثِ العجَمِ للمشركين فيستَملِحُونَ حديثَهُ ، وكان إذا سمعَ آياتِ القرآن استهزأ بها ، فجعلَ اللهُ له العذابَ مرَّتين ، مرَّةً أليماً ومرَّة مُهيناً ، وقد ذكرنا تفسيرَ الآيةِ في سُورةِ لقمان.
ومعنى الآية : ويلٌ لكلِّ كذابٍ فاجرٍ كثيرِ الإثمِ ، يسمعُ القرآنَ يُقرأُ عليهِ ولا يتدبَّرُهُ ، ولا يخشعُ لاستماعهِ ، بل يُقِيمُ على كُفرهِ مُتَعَظِّماً عن الإيمانِ بالله ، كأنْ لَمْ يسمَعْ آياتِ الله ، فخَوِّفْهُ يا مُحَمَّدُ بعذابٍ وجيعٍ يَخلُصُ وجعهُ إليه.

(٠/٠)

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً } ؛ أي إذا سمعَ من آياتِ القرآن شَيئاً اتَّخذها هُزُواً ، { أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ }.

(٠/٠)

مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ } ؛ أي لَهم من بعدِ موتِهم جهنَّمُ ، { وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً } ؛ ولا ينفَعُهم ما كسَبُوا من الأموالِ والأولادِ شيئاً ، { وَلاَ مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ } ؛ أربَاباً في دفعِ شيءٍ من عذاب الله ، { وَلَهُمْ } ؛ في الآخرةِ ؛ { عَذَابٌ عَظِيمٌ } ؛ كلُّ ذلك للنَّضرِ بن الحارث وأمثالِهِ.

(٠/٠)

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١)

وقولهُ : { هَاذَا هُدًى } ؛ أي هذا القرآنُ بيانٌ للحقِّ من الباطلِ في كلِّ ما يحتاجُ إليهِ من أمرِ الدِّين والدُّنيا ، { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ } ؛ اللهِ أي جحَدُوا دلائلَ اللهِ ، { لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ } ؛ أي عذابٌ من عذابٍ وجيعٍ يخلصُ وجعهُ إلى قلوبهم ، وقرئ (أليمٌ) بالرفعِ على نعت العذاب ، وبالكسرِ على نعتِ الرِّجْزِ.

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ } ؛ أي هو الذي ذلَّلَ لكم البحرَ بتسهيلِ السبيلِ إلى سُلوكِها باتِّخاذِ السُّفنِ وإصلاحِها ، { وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ، وباقي الآيةِ قد تقدَّم تفسيرُها.

(٠/٠)

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ } ؛ من شَمسٍ وقمرٍ ونجوم ومطرٍ وثلج وبَرَدٍ ، { وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ من دابَّةٍ وشجَرٍ ونبات وثمارٍ وأنْهَارٍ ، ومعنى سَخَّرَهُ لنا : هو أنَّهُ خلَقَها لانتفاعِنا بها على الوجهِ الذي يريدهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { جَمِيعاً مِّنْهُ } ؛ أي الكلُّ رحمةٌ منه وبفضلهٍ ومَنِّهِ ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لأيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } ؛ في صُنعِ الله وإحسانهِ ، فيُوَحِّدُونَهُ.

(٠/٠)

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ } ؛ نزَلت في عُمر رضي الله عنه : شَتَمَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ بمَكَّةَ ، فَهَمَّ أنْ يَبْطُشَ بهِ ، فَأَمَرَهُ اللهُ بالْعَفْوِ وَالتَّجَاوُز. والمعنى : قُل للَّذين آمَنُوا اغْفِرُوا ، ولكنه شَبَّهَهُ بالشرطِ والجزاء كقوله تعالى : { قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ }[إبراهيم : ٣١].

وقولهُ : { لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ } أي لا يَخَافُونَ عذابَ اللهِ من إيذائِكُم ، فتجاوَزُوا عنهم ليُوَفِّيَهُمُ اللهُ عقابَ سيِّئاتِهم بما عمِلُوا. ويجوزُ أن يكون المعنى : تجاوَزُوا عن الذين لا يَرجُونَ ثوابَ اللهِ للمؤمنين ، { لِيَجْزِيَ } ؛ اللهُ ، { قَوْماً } ، المؤمنينَ يومَ الجزاءِ ، { بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } ؛ بما كَانُوا يعملون من الخيراتِ.

وَقِيْلَ : إن الآية نزلت في أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، كانوا في أذَى شديدٍ من أهلِ مكَّة قبلَ أن يُؤمَرُوا بقتالِهم ، فأمرَ اللهُ المؤمنين بتركِ مكافَأَتِهم ، ثم نُسخت بقولهِ تعالى{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ }[الحج : ٣٩].

وقالَ الحسَنُ : (لَمْ تُنْسَخْ هَذِهِ الآيَةُ ، وَهِيَ عَلَى الاسْتِحْبَاب فِي الْعَفْوِ مَا لَمْ يُؤَدُّواْ إِلَى الإِخْلاَلِ بحَقِّ اللهِ أوْ إِلَى إِذْلاَلِ الدِّينِ). { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ }.

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ } ؛ يعني التوراةَ والإنجيلَ ، { وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ } ؛ أي الفهمَ في الكتاب وفصْلَ الأمرِ ، وجَعلنا فيهم الأنبياءَ والرُّسلَ ، { وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ } ؛ أي من الحلالِ ومِن لذيذِ الأطعمةِ كالْمَنِّ والسَّلوَى وغيرِهما ، { وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } ؛ أي على عالَمي زمانِهم بكثرةِ النبيِّين فيهم ، وفضَّلَ اللهُ أُمَّةَ نبيِّنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم بكثرةِ العُلماءِ فيهم ، والقائمِين بالحقِّ منهم كما قالَ تعالى : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ }[آل عمران : ١١٠].

(٠/٠)

وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ } ؛ يعني العلمَ بمبعَثِ النبيِّ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وما بَيَّنَ لَهم من الأمرِ ، { فَمَا اخْتَلَفُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } ؛ الآيةُ قد تقدَّمَ تفسيرُها.

(٠/٠)

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا } ؛ أي ثُم أكرَمناكَ يا مُحَمَّدُ بعدَ اختلافِهم فجعلناكَ على طريقةٍ مستقرَّةٍ من الدِّين ، فاستقِمْ عليها وادْعُ الخلقَ إليها ، ولا تعمَلْ بأهواءِ الذين

يخالِفونكَ في أمرِ الدِّين والقِبلة ، وهو قَولُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ } ، توحيدَ اللهِ ؛ قيل : يعني كفَّارَ قريش.

(٠/٠)

إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } ؛ أي لن يدفَعُوا عنكَ من عذاب الله شيئاً إن اتَّبعتَ أهواءَهم ، { وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } ، يعني المشركين أنصارُ بعضِهم بعضاً ، { وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ } ؛ أي ناصرُ المؤمنين المتَّقين الشركَ وهم أُمة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ } ؛ أي هذا القرآنُ عِظَاتٌ للناسِ وعبرةٌ وبيان لهم من الضَّلالةِ ونجاةٌ من العذاب ، { لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } ؛ أنه من اللهِ تعالى.

(٠/٠)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } ؛ قِيْلَ : إنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في ثلاثِ نَفَرٍ من المشركين ؛ وهم عُتبَةُ وشَيبَةُ والوَلِيدُ بنُ عُتبَةَ ، بارَزُوا عليّاً وحمزةَ وعبيدةَ بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يومَ بدرٍ ، كانوا يقُولون لَهم : لَئِنْ كان مُحَمَّدٌ حقّاً في الآخرةِ لَتفضَّلَ

عليكم في الآخرةِ كما فضَّلَنا عليكم في الدُّنيا.
ومعنى الآيةِ : أحَسِبَ الذين { اجْتَرَحُواْ } اكتسَبُوا { السَّيِّئَاتِ } المعاصِي { أَن نَّجْعَلَهُمْ } فِي الآخرةِ { كَالَّذِينَ آمَنُواْ } بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقُرآنِ { وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } من الصَّلاة والزكاةِ.
وتَمَّ الكلامُ ، ثم قالَ : { سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ } ، ارتفعَ (سَوَاءٌ) على أنه خبرُ مبتدأ مقدَّمٍ ، تقديرهُ : محياهُم ومماتُهم سواءٌ ، والضميرُ فيهما يعودُ إلى القبيلتين المؤمنين والكافرين ، يقولُ المؤمِنُ مؤمنٌ في محياهُ ومؤمنٌ في مماتهِ ، والكافرُ كافرٌ في حياتهِ ومماتهِ. والمعنى : إنَّ المؤمن يموتُ على إيمانهِ ويُبعَثُ عليه ، والكافرُ يموت على كُفرهِ ويبعَثُ عليه ، يريد مَحيَا القبيلتَين ومَماتَهم سواءٌ.
ومَن قرأ (سَوَاءً) بالنصب جعلَهُ مفعولاً ثانياً ، فجعلَهُ على تقديرِ : فجعلَ محيَاهم ومماتَهم سواءً ، يعني أحَسِبُوا أنَّ حياتَهم وموتَهم كحياةِ المؤمنين وموتِهم ؛ كَلاّ ؛ وقولهُ تعالى : { سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } ؛ أي بئْسَ ما يَقضُونَ حين يرَون أنَّ لهم في الآخرةِ ما للمؤمنين ، { وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }.

(٠/٠)

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَاهَهُ هَوَاهُ } ؛ وذلك أنَّ أهلَ مكَّة كانوا يعبُدون الحجَرَ والخشبَ ، فإذا رأوْا ما هو أحسنُ منه ، رَمَوا بالأوَّلِ وعبَدُوا الثاني ، فهُم يعبدون ما تَهوَاهُ أنفسُهم ، قال قتادةُ : (هُوَ الْكَافِرُ لاَ يَهْوَى مَا شَاءَ إلاَّ رَكِبَهُ ، يَبْنُونَ الْعِبَادَةَ عَلَى الْهَوَى لاَ عَلَى الْحُجَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ : { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَاهَهُ هَوَاهُ }). قال الحسنُ : (اتَّخَذ إلَهَهُ هَوَاهُ لاَ يَعْرِفُ إلَهَهُ بعَقْلِهِ وَإنَّمَا يَعْرِفُهُ بهَوَاهُ).
وقولهُ تعالى : { وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ } ؛ أي خذلَهُ على ما سبقَ في عمَلهِ أنه ضَالٌّ قبلَ أن يخلقَهُ ، { وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ } ؛ فلم يسمَعِ الهدَى ، وعلى { وَقَلْبِهِ } ؛ فلم يعقل الهدى ، { وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً } ؛ أي ظُلمةً فهو لا يُبصِرُ الهدَى بهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ } ؛ أي مَن يَهديهِ مِن بعدِ إضلالِ اللهِ لَهُ ، { أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } ؛ فتعرِفُوا قدرتَهُ على ما يشاءُ.

(٠/٠)

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا } ؛ أي نموتُ نحنُ ويحيَى آخَرُون مِمَّن يأتُون بعدَنا ، وقال الزجَّاجُ : (مَعْنَاهُ نُحيي وَنُمِيتُ ، وَالْوَاوُ لِلاجْتِمَاعِ) وَالْقَائِلُونَ بهَذا زَنَادِقَةُ قُرَيْشٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدَّهْرُ } ؛ أي إلاَّ طُولُ الْعُمُرِ واختلافُ الليلِ والنهار ، { وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ } ؛ أي لَمْ يقولوهُ على علمٍ عَلِموهُ ، بل قالُوا ضُلاَّلاً شَاكِّين.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ } ؛ وكان هذا القولُ من زنادِقَتهم الذين كانُوا يُنكِرُونَ الصانعَ الحكيمَ ، ويزعمُون أنَّ الزمانَ ومُضِيَّ الأوقاتِ هو الذي يُحدِثُ هذه الحوادثَ ، يَمُوتُ قومٌ ويحيَا قومٌ.

(٠/٠)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائْتُواْ بِآبَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ } ؛ فيه بيانُ أنَّهم كانوا يتعلَّقون بالْحُجَجِ الباطلةِ ، ولو تأَمَّلوا لعَلِمُوا أنَّ دلائلَ معجزاتِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أوكدُ مما كانوا يطلبُون.

(٠/٠)

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً } ؛ أي وترَى أهلَ كلِّ دينٍ باركةً على الرُّكَب متهيِّئةً للحساب

والجزاءِ ، مُترقِبةً لِمَا يُصنَعُ بها ، كما يَنحَنِي بين يدَي الحاكمِ ينتظرُ القضاءَ ، { كُلُّ أمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا } ؛ أي إلى صحائفِ أعمَالِها ، يقالُ لَهم : { الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ في دار الدُّنيا من الخيرِ والشرِّ.

(٠/٠)

هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ يعني كتابَ الحفظِ يقرَؤُونَهُ فيدُلُّهم على ما عَمِلوا ، فكأنَّهُ ينطقُ كما يقالُ : نطقَ الكتابُ بتحريمِ الخمرِ ، وقولهُ { بِالْحَقِّ } أي بالعدلِ ، فيه حسناتُهم وسيِّئاتُهم ، وقولهُ تعالى { إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ } أي نأمرُ الملائكةَ بنَسخِ ما عمِلتُم وتَبيينهِ بياناً شافياً وتثبيتهِ عليكم.
وما بعدَها هذا ظاهرُ المعنى : { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ }.

(٠/٠)

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ؛ لبعثٍ ، { وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا } ؛ أي القيامةُ كائنةٌ من غيرِ شكٍّ ، { قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ } ؛ أنْكَرتُموهم وأظهرتُم الشكَّ فقلتم : { إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } ؛ ومَن قرأ (وَالسَّاعَةَ) بالنصب فهو عطفٌ على (وَعْدَ) { وَبَدَا لَهُمْ } ؛ في الآخرةِ ، { سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ؛ في الدُّنيا ؛ أي ظَهَرَ لهم قَبائِحُ أعمالهم حين عايَنُوا ذلكَ في كتابهم الذي أحْصَى عليهم كلَّ قليلٍ وكثير.

(٠/٠)

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَاذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } ؛ أي نترُكم في النار ، ونتركُ مراعاتَكم وحِفظَكم ، ولا نحفظُكم من العذاب كما لم تحفَظُوا حقَّ اللهِ ، وتركتُم الإيمانَ والعملَ بلقاءِ هذا اليوم. والنسيانُ ضِدُّ الحفظِ ، وقد يكون للتَّركِ.

(٠/٠)

ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُواً } ؛ أي ذلك العذابُ عليكم بسبب أنَّكم اتَّخذتُم كتابَ اللهِ ورسولَهُ استهزاءً ، { وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } ؛ حتى قُلتم لا بعثَ ولا حسابَ ، { فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعَتَبُونَ } أي لا يُطلَبُ رضاهُم ، ولا يقالُون ؛ لأنه لا يقبل في ذلك اليوم استقالة وقد انقطعتِ المعايَنةُ فلا يُجابون ، ولا يُقبَلُ لَهم في " ذلك " اليوم عُذرٌ ولا توبةٌ.

(٠/٠)

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي للهِ الشُّكر على عظيمِ نَعمائِهِ على الخلائقِ كلِّهم ، { وَلَهُ الْكِبْرِيَآءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ وهو المختصُّ بالكبرياءِ في السَّموات والأرضِ ، وله العظَمةُ والجبَروتُ فيهما ، { وَهُوَ الْعزِيزُ } ؛ في مُلكهِ وسُلطانهِ ، { الْحَكِيمُ }

؛ في قضائهِ وأمرهِ لَهُ وَحْدَهُ فِي أعْلَى مَرَاتِب التَّعْظِيمِ لأنه سبحانَهُ لا يجوزُ عليه صفةُ النقصِ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " يَقُولُ اللهُ : الْكِبْرِيَاءُ ردَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إزَارِي ، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدَةً مِنْهَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ ".

(٠/٠)

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ } ؛ ظاهرُ المعنى ، { وَأَجَلٍ مُّسَمًّى } ؛ ينتهِي إليه وهو يومُ القيامةِ تنتهي إليه السَّمواتُ والأرض ، وهذا إشارةٌ إلى فنائِهما وانقضائِهما.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ } ؛ أي مُعرِضون عمَّا خُوِّفُوا به من القُرآنِ ، ولا يتدبَّرون ولا يتفكَّرون.

(٠/٠)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ من الملائكةِ والأصنامِ ، وتدَّعون أنَّها آلهةٌ ، { أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ } ؛ أي أخبرونِي ماذا خلَقُوا من الأرضِ ، لأنَّ الخالقَ هو الذي يستحقُّ العبادةَ ، { أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ } أمْ لَهم نصيبٌ في خلقِ السَّموات ، فذلك ما أشرَكتُموهم في عبادةِ الله تعالى ، { ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَاذَآ } ؛ القرآنِ فيه برهانُ ما تدَّعون ، { أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ } ؛ معناه ائتُونِي ببقية من علمِ المتقدِّمين ، { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }.
وَقِيْلَ : الأثَارَةُ ؛ والأَثْرَةُ – بإسكان الثاء – والأَثَرَةُ – بفتحِها – معناها : الرِّوايَةُ من العُلماءِ ، يقالُ : فلانٌ يَأْثُرُ الحديثَ عن فلانٍ ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هَاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ }[المدثر : ٢٤] ، والعلمُ الْمَأْثُورُ هو الْمَرْوِيُّ.

(٠/٠)

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } ؛ أي أبْعَدُ ذهاباً عن الصَّواب ممن يدعُو مِن دون الله مَن لا يستجيبُ دعاءً ولو دعاهُ ، { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } يعني الأصنامَ ، { وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ } أي عن دُعاءِ مَن دعاها ؛ لأنَّها جَمَادٌ لا تسمعُ ولا تُبصِرُ.

(٠/٠)

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } معناهُ : وإذا جُمِعَ الناسُ يومَ القيامة صارتِ الأصنامُ أعداءً لِمَن عبَدَها في الدُّنيا ، كما قالَ تعالى : { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ }[فاطر : ١٤] ، وقال : { تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ }[القصص : ٦٣].

(٠/٠)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨)

وقولهُ تعالى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَاذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ } ؛ ويقولون : إنَّ مُحَمَّداً أتَى به من نفسهِ ، وهو قوله : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } ؛ أي لايَقدِرون أن يُردُّوا عنِّي عذابَهُ ، فكيف أفتَرِي على اللهِ لأجلِكم وأنتُم لا تقدِرُون على دفعِ عِقابهِ عنِّي إن افتريتُ عليهِ شيئاً ؟ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ } ؛ أي اللهُ

أعلَمُ بما تَقولون في القرآنِ وتَخوضُونَ فيه من التَّكذيب به والقولِ فيه إنه سحرٌ وكهانةٌ ، { كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } ؛ أي القرآنُ جاءَ من عندِ الله ، { وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } ؛ في تأخيرِ العذاب عنكم حين لَمْ يعجِّلْ عليكم بالعقوبةِ.

قال الزجَّاجُ : (هَذا دُعَاءٌ لَهُمْ ؛ أي التَّوْبَةُ ، مَعْنَاهُ : أنَّ مَنْ أتَى مِنَ الْكَبَائِرِ بمِثْلِ مَا أتَيْتُمْ بهِ مِنَ الافْتِرَاءِ عَلَى اللهِ ثُمَّ تَابَ ، فَاللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ ، أيْ غَفُورٌ لَهُ رَحِيمٌ بهِ).

(٠/٠)

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ } ؛ أي ما أنا أوَّلُ رَسُولٍ أُرسِلَ إلى الناسِ ، قد بُعِثَ قَبلِي كثيرٌ من الرُّسل. والبديعُ من كلِّ شيء المبتَدِعُ ، { وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ } ؛ أيَترُكني بمكَّة أو يُخرِجُني منها أو يُخرِجكم. وَقِيْلَ : معناهُ : لا أدري أموتُ أم أُقتَلُ ، ولا أدري أيُّها المكذِّبون أترُمَون بالحجارةِ من السَّماء أو يُخسَفُ بكم.

وهذا إنَّما هو في الدُّنيا ، فأمَّا في الآخرةِ فقد عَلِمَ أنه في الجنَّة ، وأنَّ مَن كذبَهُ في النار ، ألاَ تراهُ يقول : { إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ } ؛ وقد أُوحيَ إليه ما يصيرُ إليه الكافرُ والمؤمنُ في الآخرةِ. وَقِيْلَ : معناهُ : وما أدري ماذا أوْمَرُ به في الكفَّار من حربٍ أو سلمٍ ، وما أدري ماذا يفعَلُ اللهُ بهم أيُعَاجِلُهم اللهُ بالعقوبةِ أو يؤخِّرُها عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ } أي ما أتَّبعُ إلاَّ القرآنَ ولا أبتَدِعُ من عندي شيئاً ، { وَمَآ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } ؛ أي أُنذِرُكم وأُبَيِّنُ لكم الشرائعَ.

(٠/٠)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ

وَاسْتَكْبَرْتُمْ } ؛ ثم اختلَفُوا ، والمرادُ بشاهدٍ في هذه الآيةِ فقالَ مَن ذهبَ إلى أنَّ هذه السُّورةَ مكِّيةٌ كلُّها : أنَّ المرادَ به يَامِينَ بن يامين ، فإنَّ عبدَالله بنَ سلام مِمَّن أسلمَ بالمدينةِ ، وهذا شاهدٌ قَدِمَ بمكَّة فآمنَ. وَقِيْلَ : إنَّ المرادَ بالشاهدِ مُوسَى عليه السلام كان مِن بني إسرائيلَ ، وكان شهادتهُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم في التوراةِ من تصديقِ القُرآنِ ، ومثل القرآن هو التوراةُ.

وقال ابنُ عبَّاس : (هُوَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ) ، رُوي : " أنَّهُ قَدِمَ مِنَ الشَّامِ ، فأتَى النَّبيَّ عليه السلام لَيْلاً وشَهِدَ أنَّ نَعتَهُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ فَآمَنَ بِهِ ، ثم قالَ : أخْبِئْنِي فِي الْبَيْتِ ، ثُمَّ أحْضِرِ الْيَهُودَ سَلْهُمْ عَنِّي ، فَإنَّهُمْ سَيَذْكُرُونَنِي عِنْدَكَ ويُخْبرُونَكَ بمَكَانِي مِنَ الْعِلْمِ.

فَفَعَلَ ذلِكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَاسْتَخْبَرَ الْيَهُودَ وَقَالَ لَهُمْ : " مَا تَقُولُونَ فِي عَبْدِاللهِ ابْنِ سَلاَمٍ ؟ " فَقَالُواْ : عَالِمُنَا وَابْنُ عَالِمِنَا ، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا ، وَبَقِيَّةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَّا. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أرَأيْتُمْ إنْ آمَنَ بي تُؤْمِنُوا أنْتُمْ ؟ " فَقَالُواْ : إنَّهُ لاَ يَفْعَلُ ذلِكَ.

فَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى قَالُواْ : نَعَمْ ، فَخَرَجَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَقَالَ لَهُمْ : أَلَمْ يَأْتِكُمْ فِي التَّوْرَاةِ عَنْ مُوسَى عليه السلام : إذا رَأيْتُمْ مُحَمَّداً فَأَقْرِئُوهُ مِنِّي السَّلاَمَ وَآمِنُواْ بِهِ ؟ ثُمَّ جَعَلَ يُوقِفُهُمْ مِنَ التَّوْرَاةِ عَلَى مَوَاضِعَ مِنْهَا فِيْهَا ذِكْرُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَصِفَتُهُ ، وَكَانُواْ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَجْحَدُونَ ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّكَ رَسُولُ اللهِ ، أرْسَلَكَ بالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ. فَقَالُواْ : مَا كُنْتَ أهْلاً لِمَا أثْنَيْنَا عَلَيْكَ ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ غَائِباً فَكَرِهْنَا أنْ نغْتَابَكَ ".

ومعنى الآيةِ : أخبروني ماذا تقُولون إنْ كان القرآنُ من عندِ الله ، أنزلَهُ وكفرتُم أيُّها المشركون ، { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ } عبدُاللهِ بن سلامٍ على صدقِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في نبُوَّتهِ { عَلَى مِثْلِهِ } أي عليه أنَّهُ من عندِ الله ، والْمِثْلُ صلةٌ. وقولهُ تعالى : { فَآمَنَ } يعني الشاهدُ واستكبَرتُم أنتم عن الإيمانِ به ، وجوابُ (إنْ) محذوفٌ ؛ وتقديرهُ : أليسَ قد ظَلمهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } ؛ وَقِيْلَ : تقديرُ الجواب : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ } أفَأَمِنُوا عقوبةَ اللهِ ، { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } يعني المعانِدين بعدَ الوضُوحِ والبيانِ يَحرِمُهم اللهُ الهدايةَ.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونآ إِلَيْهِ } ؛ أي قالَ الكفارُ مِن بني أسَدٍ وغطَفان وأشجَعَ لِمَن أسلمَ من جُهينَةَ ومُزَيْنَةَ وأسْلمَ وغِفَارٍ : (لَوْ كَانَ هَذا) يعنُونَ القرآنَ (خَيْراً) مما نحنُ عليهِ لَمَا سبقَ رعاةُ الشاةِ ونحن أرفعُ منهم ، { وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ } ؛ مع ظُهورِهِ ووضُوحِهِ ، { فَسَيَقُولُونَ } مع ذلك ، { هَاذَآ } ؛ القرآنُ ؛ { إِفْكٌ قَدِيمٌ } ؛ كذِبٌ متقَادِمٌ أتَّبعَهُ مُحَمَّدٌ وأحِبَّاؤهُ في عصرِهِ.

يقول اللهُ تعالى : { وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً } ؛ أي ويشهدُ للقرآن كتابُ موسَى قبلَهُ إمامٌ يُقتدَى ونجاةٌ من العذاب لِمَن آمنَ به ، { وَهَاذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ } وَهَذَا القرآنُ مُصَدِّقٌ لِمَا في التوراةِ.

وقولهُ تعالى : { لِّسَاناً عَرَبِيّاً } ؛ أي بلسانٍ عربيٍّ تَعقِلونَهُ. ويجوزُ أن يكون منصوباً على الحالِ ، ويكون (لِسَاناً) توكيداً ، كما يقالُ : جاءَنِي زيدٌ رجلاً صالحاً ، يريدُ : جاءَنِي زيدٌ صالحاً ، وقال الزجَّاجُ : (قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِمَاماً } نُصِبَ عَلَى الْحَالِ) تَقْدِيرُهُ : وَتَقَدَّمَهُ كِتَابُ مُوسَى عليه السلام إِمَاماً.

وَفِي الْكَلام محذوفٌ تقديرهُ : إمَاماً ورحمةً فَلَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ } وذلك أنَّ المشرِكين لم يهتَدُوا بالتوراةِ فيترُكوا عبادةَ الأصنامِ ويعرِفُوا منه صفةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

ثم قالَ تعالى : { وَهَاذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ } ؛ غيرَ الكُتب التي قبلَهُ { لِّسَاناً عَرَبِيّاً } منصوبٌ على الحالِ ؛ أي مصَدِّقٌ لما بين يَدَيهِ عَرَبيّاً. ومعنى قولهِ تعالى : { كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً } أي يُقتدَى بهِ ؛ يعني التوراةَ ، { وَرَحْمَةً } من اللهِ للمؤمنين به ؛ قِيْلَ : القرآنُ.

وعن عروة عن أبيه قالَ : (كَانَتْ زنِّيرَةُ أمْرَأةً ضَعِيفَةَ الْبَصَرِ ، فَلَمَّا أسْلَمَتْ كَانَ الأَشْرَافُ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ يَسْتَهْزِئُونَ بهَا وَيَقُولُونَ : وَاللهِ لَوْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ خَيْراً مَا سَبَقَتْنَا إِلَيْهِ زنِّيرَةُ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيْهَا وَفِي أمْثَالِهَا { وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَاذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ } أيْ أسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيُنذِرَ } ؛ أي أنزلناهُ لِتُخَوِّفَ ، { الَّذِينَ ظَلَمُواْ } ، يعني مُشركي مكَّة. ومَن قرأ بالياءِ أسندَ الفعلَ إلى الكتاب. وقولهُ تعالى : { وَبُشْرَى } أي وهو بُشْرَى ، { لِلْمُحْسِنِينَ } ؛ الموحِّدين ، يعني الكتابَ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }.

(٠/٠)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً } ؛ في الآيةِ دليلٌ على أنَّها نزَلت في رجُلٍ بعينهِ ؛ لأنَّ الناسَ كلَّهم لا يكون حَملُهم ورضاعُهم ثلاثون شَهراً ، ولا يقولون إذا بلَغُوا أربعين سَنةً : { رَبِّ أَوْزِعْنِي }. وجاءَ في التفسيرِ : أنَّها نزَلت في أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً } ؛ أي على كُلْفَةٍ ومشَقَّةٍ ، وأرادَ به الحملَ في البطنِ إذا ثَقُلَ عليها الولدُ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً } ؛ يريدُ شدَّةَ الطَّلْقِ ومشقَّةَ الوضعِ. قرأ أهلُ الكوفة { إِحْسَاناً } وهي قراءةُ ابنِ عبَّاس رضي الله عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً } ؛ أي حَملهُ سِتَّةُ أشْهُرٍ ورضاعهُ أربعَةٌ وعشرون شهراً. ورَوى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه قال : (إذا حَمَلَتِ الْمَرْأَةُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ أَرْضَعَتْهُ أَحَدَ وَعِشْرِينَ شَهْراً). وقال مقاتلُ وعطاء والكلبيُّ : (هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي أبي بَكْرٍ رضي الله عنه ، وَكَانَ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ هَذا الْقَدْرَ) ، ويدلُّ على صحَّة هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ... } ثم إلى آخر الآية. وقرأ الحسنُ ويعقوب (وَفَصْلُهُ) بغيرِ ألفٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (أَشُدَّهُ بِضْعٌ وَثَلاَثُوْنَ سَنَةً) وقال : (ثَمَانِي عَشَرَةَ سَنَةً). وذلك أنه صَحِبَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو ابنُ ثَمانِي عشرةَ سنةً ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ابنُ عشرين سَنة في تجارتهِ إلى الشامِ ، وكان لا يفارقهُ في أسفارهِ وحضورهِ. فلما { وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً } ؛ ونُبِئَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دعا ربَّهُ ، { قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ } ؛ أي ألْهِمْنِي شُكْرَ نِعمَتِكَ ، { الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ } ؛ بالهدايةِ والإيمانِ حتى لم أُشرِكْ بكَ شيئاً ، { وَعَلَى وَالِدَيَّ } ؛ أبي قُحَافَةَ عثمان بنِ عُمر وأُمِّي أمُّ الخيرِ بنت صخرِ بن عمر ، قال عليٌّ رضي الله عنه : (هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي أبي بَكْرٍ أَسْلَمَ أَبَوَاهُ جَمِيعاً ، وَلَمْ يَجْتَمِعْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْمُهَاجِرِينَ أَبَوَاهُ غَيْرُهُ ، وَأَوْصَاهُ اللهُ بِهِمَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ } ؛ فأجابَ اللهَ وأعتقَ تسعةً مِن المؤمنين يعذبون في اللهِ ولم يُرِدْ شيئاً من الخيرِ إلاَّ أعانَهُ اللهُ عليه ، واستجابَ اللهُ في ذُريَّتِهِ حين قال : { وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي } ؛ فلم يبقَ له ولدٌ ولا والدٌ إلاَّ آمَنُوا باللهِ وحدَهُ ، قال موسى بنُ عُقبةَ : (لَمْ يُدْرِكْ أَرْبَعَةٌ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم هُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ إلاَّ هَؤُلاَءِ : أَبُو قُحَافَةَ ، وَأَبُو بَكْرٍ ، وَابْنُهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ ، وَأَبُو عَتِيقِ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ أبي بَكْرٍ رضي الله عنه). قال البخاريُّ : (أَبُو عَتِيقٍ أَدْرَكَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم).
قولهُ { وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي } أي اجعَلْ أولاَدِي كُلَّهم صالِحين وقولهُ : { إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } ؛ أي إنِّي أقبَلْتُ إلى كلِّ ما يجبُ وأسلمتُ لكَ بقلبي ولساني وإنِّي من المخلِصين ، فأسلمَ أبوهُ وأُمُّهُ ولم يبقَ له ولدٌ إلاَّ أسلمَ.

(٠/٠)

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ } ؛ أي أهلَ هذه الصِّفةِ الذين يَتقبَّلُ عنهم أحسنَ ما عمِلُوا وهو الطاعاتُ ، { وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ } ؛ التي سَبقت في الجهلِ ، وقولهُ تعالى : { فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ } ؛ أي يدخُلون في أصحاب الجنَّة وَعْداً صِدْقاً من اللهِ تعالى : { الَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ } ؛ به في الدُّنيا على ألسِنَةِ الرسُلِ.

(٠/٠)

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ } ؛ نزَلت في عبدِالرَّحمنِ بن أبي بكر ، قالَ لأَبيه وأُمه قبلَ أن يسلمَ حين كانا يدعُوَانهِ إلى الإسلامِ ، ويُخبرانهِ بالبعثِ بعد الموت وهو يأبَى ويُسِيءُ القولَ لهما ، فقالَ لهما : { أُفٍّ لَّكُمَآ } أي أُفٍّ قذفاً لكما ، كما يقالُ عند شمِّ الرائحةِ الكريهة ، { أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي } ؛ أي تُخوِّفانِني أن أخرَجَ من القبرِ وقد مضَتِ القرونُ مِن قبل ولم

يخرج أحدٌ منهم من قبرهِ ، أين عبدُالله بن جَدعان ؟ أين فلان وأين فُلان؟! { وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ } ؛ يعني أبَويهِ يدعُوانِ الله له بالْهُدَى ويقولان له : { وَيْلَكَ آمِنْ } ؛ أي صدِّقْ بالبعثِ ، { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ، بالبعثِ ، { فَيَقُولُ مَا هَاذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } ؛ فيقولُ لَهما : ما هذا الذي تقُولانِ إلاَّ أكاذيبُ الأوَّلين.

والاستغاثةُ باللهِ دعاؤُكَ اللهَ ليُغِيثَكَ على ما نَابَكَ ، والجارُّ محذوفٌ ، تقديرهُ : يستغِيثان باللهِ. وقرأ القُرَّاء والأعمشُ (أنْ أخْرُجَ) بفتحِ الألف وضمِّ الراءِ.

قال ابنُ عبَّاس : (فَلَمَّا ألَحَ عَلَيْهِ أبَوَاهُ فِي دُعَائِهِ إلَى الإِيْمَانِ ؛ قَالَ لَهُمَا : أحْيُوا لِي عَبْدَاللهِ بْنَ جَدْعَان ، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخاً صَدُوقاً ، وَأحْيُوا لِي عَامِرَ بْنَ كَعْبٍ ، وَمَشَايِخَ مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى أسْأَلَهُمْ عَنْ مَا تَقُولاَنِ ، وَأخْرِجَا لِي بَعْضَ آبَائِي وَأجْدَادِي مِنْ قُبُورِهِمْ لأَسْأَلَهُمْ ، فَإِنْ صَدَّقُوكُمَا آمَنْتُ).

(٠/٠)

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ أي وجبَتْ عليهم كلمةُ العذاب في أُمَمٍ قد مضَتْ من قبلِهم ، { مِّنَ } ؛ كفار ، { الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ } ؛ الإيمانَ. ثم أسلمَ عبدُالرحمنِ وحَسُنَ إسلامهُ ، وكان من أفاضلِ المؤمنين.

وذهب الحسنُ إلى أنَّ الآيةَ نزلت في كافرٍ عاقٍّ لوالديهِ مكذِّبٍ للبعثِ ، ماتَ على كُفرهِ ، قالَ : (لأَنَّ قَوْلَهُ { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ } إعْلاَمٌ بأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) وإلى هذا القولِ ذهبَ الزجَّاجُ.

ويُروى أن معاويةَ كتبَ إلى مروان : (لَتَأْخُذنَّ عَلَى النَّاسِ الْبَيْعَةَ لِيَزِيدَ) فَكَرِهَ ذلِكَ عَبْدُالرَّحْمَنِ وَقَالَ : (أتَأْخُذُونَ الْبَيْعَةَ لأَبْنَائِكُمْ؟!) قَالَ مَرْوَانُ : هَذا الَّذِي يَقُولُ اللهُ فِيْهِ{ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ }[الحاقة : ١٧] فَلَمَّا بَلَغَ ذلِكَ عَائِشَةُ فَقَالَتْ : (كَذبَ مَرْوَانُ! وَاللهِ مَا هُوَ بِهِ ، إنَّمَا أنْزَلَ اللهُ ذلِكَ فِي رَجُلٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَلَوْ شِئْتُ أنْ أُسَمِّيَهُ لَسَمَّيْتُهُ لَكُمْ ، وَلَكِنْ أشْهَدُ أنَّ اللهَ لَعَنَ أبَاكَ وَأنْتَ فِي صُلْبِهِ ، فَهُوَ فِي قَصَصِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ).

(٠/٠)

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ } ؛ أي ولكلِّ الفريقَين من الكافرِين والمؤمنين منازلُ مما عمِلُوا ، { وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } ؛ أي لا يُنقَصُ من حسناتِهم ولا يُزَادُ في سيِّئاتِهم.

(٠/٠)

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

وقولهُ تعالى : { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ } ؛ أي وأنذِرهُم يومَ يُعرَضُ كفَّارُ مكَّة على النار ويقالُ لَهم : { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا } ؛ أي أذهَبتُم أموالَكم ، وَقِيْلَ : قوَّتَكم وشبَابَكم في لذاتِكم في الدُّنيا ، لا في طلب رضَى اللهِ ، بل في وُجوهٍ مُحرَّمَةٍ ، وانتقَصتُم بطيِّباتكم في الدُّنيا ، { وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا } ؛ (فَ) ليس لكم ، { فَالْيَوْمَ } ؛ ههنا حسناتٍ ، وإنما { تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } ؛ أي الْهَوَانِ الشديدِ باستكباركم في الأرضِ بالباطلِ ، وخُروجِكم من أمرِ الله تعالى إلى المعصيةِ.

وعن ابنِ عبَّاس : " أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ : لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : (أُدْعُ اللهَ أنْ يُوَسِّعَ عَلَى أُمَّتِكَ ، فَقَدْ وَسَّعَ اللهُ عَلَى فَارسَ وَالرُّومَ وَهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى) فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أوَفِي شَكٍّ أنتَ يَا ابْنَ الْخَطَّاب؟! أوْلَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا " ".

ورُوِي : " أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ : (دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَيْتِ حَفْصَةٍ وَإنَّهُ لَمُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ ، وَإنَّ بَعْضَهُ لَعَلَى التُّرَاب ، وَتَحْتَ رَأسِهِ وسَادَةٌ مَحْشُوَّةٌ لِيْفاً ، فَسَلَّمْتُ ثُمَّ جَلَسْتُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أنْتَ نَبيُّ اللهِ وَصَفْوَتُهُ وَخِيْرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَكِسْرَى وَقَيْصَرَ عَلَى سُرُر الذهَب وَفُرُشِ الدِّيبَاجِ وَالْحَرِيرِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : يَا عُمَرُ ؛ إنَّ أُوْلَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ وَهِيَ وَشِيكَةُ الانْقِطَاعِ ، وَإنَّا أُخِّرَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا ") ".

وعن سالِم بن عبدِالله بن عمر كان يقولُ : (وَاللهِ مَا نَعْبَأُ بلَذاتِ الْعَيْشِ بأَنْ نَأْمُرَ بصِغَار الْمِعْزَى فَتُسْمَطَ لَنَا ، وَنَأْمُرَ بِلبَاب الْحِنْطَةِ فَيُخْبَزُ لَنَا ، وَنَأْمُرَ بالنَّبيذِ فَيُنْبَذُ لَنَا ، حَتَّى إذا صَارَ مِثْلَ عَيْنِ يَعْقُوبَ أكَلْنَا هَذا وَشَرِبْنَا هَذا ، وَلَكِنَّا أرَدْنَا أنْ نَسْتَبْقِيَ طَيِّبَاتِنَا لأنَّا سَمِعْنَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَذْكُرُ قَوْماً فَقَالَ { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا }.

وعن جابرِ بن عبدِالله رضي الله عنه قالَ : (رَأى عُمَرُ رضي الله عنه فِي يَدَيَّ لَحْماً مُعَلَّقاً فَقَالَ : مَا هَذا يَا جَابرُ ؟ قَالَ : اشْتَهَيْتُ لَحْماً فَاشْتَرَيْتُهُ ، فَقَالَ عُمَرُ : وَكُلَّمَا اشْتَهَيْتَ يَا جَابرُ اشْتَرَيْتَ ؟ أمَا تَخَافُ

هَذِهِ الآيَةَ { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا }.

وعن محمَّد بن مَيسَرة قالَ : قال جابرُ بن عبدِالله : (اشْتَهَى أهْلِي لَحْماً فَشَرَيْتُهُ وَمَرَرْتُ بعُمَرَ ، فَقَالَ : مَا هَذا يَا جَابرُ ؟ قُلْتُ : اشْتَهَى أهْلِي اللَّحْمَ فَاشْتَرَيْتُ هَذا اللَّحْمَ بدِرْهَمٍ ، فَقَالَ : أوَكُلَّمَا اشْتَهَى أحَدُكُمْ شَيْئاً جَعَلَهُ فِي بَطْنِهِ ، أمَا تَخْشَى أنْ تَكُونَ مِنْ أهْلِ هَذِهِ الآيَةِ { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا }).

وعن عِمَارَةَ بن القَعْقَاعِ عن أبي زَرعَةَ قالَ : (دَخَلَ عُتْبَةُ بْنُ فَرْقَدَ عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه وَهُوَ يُكَوِّمُ كَعْكاً شَامِيّاً وَيَتَفَوَّقُ لَبَناً حَازراً فَقَالَ : يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أمَرْتَ أنْ يُصْنَعَ لَكَ طَعَامٌ أَلْيَنُ مِنْ هَذا ؟ فَقَالَ : يَا ابْنَ فَرْقَد ؛ أتَرَى أحَداً مِنَ الْعَرَب أقْدَرُ عَلَى ذلِكَ مِنِّي ؟ فَقَالَ : مَا أحَدٌ أقْدَرُ عَلَى ذلِكَ مِنْكَ يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ عُمَرُ : سَمِعْتُ اللهَ تَعَالَى عَيَّرَ أقْوَاماً فَقَالَ { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا } وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أنْ أكُونَ أصْلَبَكُمْ طَعَاماً وَأحْسَنَكُمْ ثِيَاباً لَفَعَلْتُ ، وَلَكِنْ أسْتَبْقِي دُنْيَايَ لآخِرَتِي).

(٠/٠)

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ } ؛ أي اذكُرْ يا مُحَمَّدُ لقومِكَ أهلِ مكَّة أخَا عادٍ وهو هودٌ عليه السلام ، { إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ } ؛ أي إذْ خَوَّفَ قومَهُ وحذرَهم عذابَ اللهِ إن لم يُؤمِنُوا بالأحقافِ ، وهو جمعُ حُقْفٍ وهو المستطيلُ الْمُعْوَجُّ من الرَّملِ ، قال عطاءٌ : (رَمَالُ بلاَدِ الشَّعرِ) ، وقال مقاتلُ : (هِيَ بالْيَمَنِ فِي حَضْرَمَوْتٍ) ، وقال ابنُ عبَّاس : (وَادٍ بَيْنَ عُمَانَ وَمَهرة) وَإلَى مُهْرَةَ يُنْسَبُ الْجِمَالُ الْمَهْرِيَّةُ. وقال قتادةُ : (ذُكِرَ لَنَا أنَّ عَاداً كَانُوا حَيّاً بالْيَمَنِ أهْلَ رَمْلٍ مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا الشَّعر ، وَكَانُواْ مِنْ قَبيلِ إرَمَ). وقال ابنُ زيد : (الأَحْقَافُ : مَا اسْتَطَالَ مِنَ الرَّمْلِ وَأشْرَفَ كَهَيْئَةِ الْجَبَلِ ، وَلَمْ يَبْلُغْ أنْ يَكُونَ جِبَالاً ، وَجَمْعُهُ حُقُفٌ ، وَالأَحْقَافُ جَمْعُ الْجَمْعِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ } ؛ أي وقد مضَتِ الرسُلُ من قبلِ هودٍ ومن بعدِهِ إلى قومِهم ، { أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ } ؛ أي لَمْ يُبعَثْ رسولاً قبلَ هودٍ ولا بعدَهُ إلاَّ بالأمرِ بعبادة اللهِ وحدَهُ ، وهذا كلامٌ اعترضَ بين إنذار هود وكلامهِ لقومه ، ثم عادَ إلى كلامِ هودٍ لقومه بقوله : { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } ؛ تقديرُ الكلامِ : إذ أنذرَ قومَهُ بالأحقافِ وقال : إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم ، ويحتملُ أن يكون المرادُ بهذا العذاب عذابَ الدُّنيا ، ويحتمل عذابَ الآخرةِ.

(٠/٠)

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا } ؛ أي قالوا : يا هودُ أجِئتَنا لتَصرِفَنا عن عبادةِ آلهتنا بالإفكِ ، { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنآ } ؛ من العذاب ، { إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } إنَّ العذابَ نازلٌ بنا ، { قَالَ } ؛ لَهم هودٌ : { إِنَّمَا الْعِلْمُ } بمجيءِ العذاب ، { عِندَ اللَّهِ } ؛ يعلمُ متى يأتيكم العذابُ وَأنا { وَأُبَلِّغُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ } ؛ إليكم من الوحيِ والإنذار ، والمعنى : إنما أنا مُبَلِّغٌ ، والعلمُ بوقتِ العذاب عند الله ، { وَلَاكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ } ؛ أي أمرَ اللهِ وعقابه.

(٠/٠)

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ } ؛ معناهُ : فلمَّا رأوا العذابَ الذي خوَّفُوا به عارضاً كهيئةِ السَّحاب تستقبلُ أودِيَتَهم التي كانوا إذا رأوا الغيمَ من نواحِيها كانت سَنتهم سَنة خصبٍ ، ظنُّوهُ سحابَ خيرٍ ، { قَالُواْ هَاذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا } ؛ أي هذا الذي وعَدتَنا به سحابٌ قد عرضَ في السَّماء مُمطِرُنا ، فقال لَهم هود : { بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ أي ريحُ الدَّبُور جاءت من قِبَلِ المغرب فيها عذابٌ أليم وجيع لكم.
قال المفسِّرون : كان عادٌ قد حُبسَ عنهم المطرُ أيَّاماً ، فَسَاقَ اللهُ إليهم سحابةً سوداء فخرَجت عليهم من وادٍ لهم يقالُ له : الْمُغِيثُ ، فلمَّا رأوهُ مستقبلَ أودِيتهم استَكبَروا وقالوا : { هَاذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا } غَيمٌ فيه مطرٌ ، فقال هودُ : { بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ } ثُم بيَّنَ ما هو ؛ فقالَ : { رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ }.

(٠/٠)

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا } ؛ أي تُهلِكُ كلَّ شيءٍ مرَّت به من الناسِ والدواب والأموالِ { فَأَصْبَحُواْ } ؛ يعني عاداً ؛ { لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ } ؛ قال الزجاج : (معناهُ لا ترَى شيئاً إلاَّ مساكنَهم ، والمعنى : لا ترَ أيُّها المخاطَبُ إلاَّ مساكِنَهم ، لأنَّ السُّكَّانَ والأنعامَ بادت بالريحِ).
قال ابنُ عبَّاس : (فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ هُودٌ وَمَنْ مَعَهُ) ، وعن ابنِ عبَّاس قالَ : (لَمَّا رَأوا الْعَارِضَ قَامُواْ ، فَأَوَّلُ مَا عَرَفُوا أَنَّهُ عَذابٌ رَأوا مَا كَانَ خَارِجاً مِنْ دِيَارِهِمْ مِنَ الرُّعَاةِ وَالْمَوَاشِي تَطِيرُ بِهِ الرِّيحُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَرَأوا الْفَسَاطِيطَ وَالضَّعَائِنَ تُرْفَعُهَا الرِّيَاحُ كَأَنَّهَا جَرَادٌ فَدَخَلُوا بُيُوتَهُمْ وَأَغْلَقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الأَبْوَابَ ، فَجَاءَتِ الرِّيحُ فَقَلَعَتْ أَبْوَابَهُمْ وَاحْتَمَلَتْهُمْ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ هَرَعَتْهُمْ وَأَهَالَتْ الرِّمَالَ ، فَكَانُواْ تَحْتَ الرَّمْلِ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً لَهُمْ أنِينٌ ، ثُمَّ أَمَرَ اللهُ بَعْدَ ذلِكَ فَاحْتَمَلَتْهُمْ فَرَمَتْ بِهِمْ فِي الْبَحْرِ).
وقرأ الأعمشُ وحمزة وعاصم ويعقوب (فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى) بياءٍ مضمومة (إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ) بالرفع أي لا ترَى الناسُ إلاَّ مساكنَهم لأنَّهم كانوا تحتَ الرَّملِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ } ؛ أي هكذا نَجزِي مَن أجرمَ جُرمَهم بمثلِ ما جازَيناهم.
وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : " كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا رَأى الرِّيحَ فَزِعَ ، وَقَالَ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ " وَكَانَ يَقُومُ وَيَقْعُدُ وَيَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! فَيَقُولُ : " إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ قَوْمٍ هُودٍ حَيْثُ قَالُوا : هَذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا " ".

(٠/٠)

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ } ؛ الخطابُ لأهلِ مكَّة ، والمعنى : ولقد مكَّنا عَاداً فيما لم نُمكِّنْكُم فيه من البَسطَةِ في المالِ والولدِ وزيادة القوَّةِ والقامَةِ وشدَّة الأبدانِ ، قال المبرِّدُ : (مَا) فِي قَوْلِهِ (فِيمَا) بِمَنْزِلَةِ (الَّذِي) و(إِنْ) بمَنْزِلَةِ (ما).
وتقديرهُ : ولقد مكنَّاهم في الذي ما مكنَّاكم فيه ، { وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً } ؛ أي قُلوباً

يعقلون بها فلم ينفَعهم ذلك من عذاب الله إذ نزلَ بهم بسبب أنَّهم ، { فَمَآ أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } ؛ دلائلِ الله ، { وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ؛ أي نزلَ بهم عقابُ استهزائِهم بالرُّسلِ ، أخبرَ اللهُ أنَّهم أعرَضُوا عن قبولِ الْحُجَجِ والتفكُّر فيما يدلُّهم على التوحيدِ ما أعطاهم اللهُ من الحواسِّ التي تدرَكُ بها الأدلَّة.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧)

قَوْلُه تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَى } ؛ هذه زيادةُ التخويفِ لأهل مكَّة ، والمعنى : ولقد أهلَكنا ما حولَكم من أهلِ القُرَى مثلَ عادٍ وقوم تُبَّعٍ باليمنِ وقومِ صالح بالحِجْرِ وقوم لوطٍ على طريقكم بالشَّام ، أرادَ بالقُرَى الْمُهلَكَةِ باليمنِ والشَّام. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ؛ وبَيَّنَا لكم الآياتِ في كلِّ وجهٍ لكي تَرجِعُونَ من الكفرِ إلى الإيمانِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : وبيَّنا الآياتِ لعلَّ أهلَ القُرْى يرجِعون.

(٠/٠)

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

وقولهُ تعالى : { فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً } ؛ فهلاَّ حين نزلَ بهم العذابُ أعانَهم الذين عبَدُوهم من دونِ الله ليُقرِّبوهم إلى اللهِ في زَعمِهم ، وقولهُ تعالى : { بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ } ؛ أي بل ما نفَعُوهم ، وقولهُ تعالى : { وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ } ؛ أي إنَّ دُعاءَهم آلهتَهم هو إفْكُهم وافتراؤُهم ، { وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } ؛ يعني اتِّخاذهم الآلهةَ من دون اللهِ هو كَذِبُهم وافتراؤُهم على اللهِ أنَّها آلهة.

(٠/٠)

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ } ؛ معناهُ : اذكُر إذ وجَّهنا نفراً من الجنِّ ؛ " أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا آيَسَ مِنْ إسْلاَمِ أهْلِ مَكَّةَ ، خَرَجَ إلَى الطَّائِفِ لِيَدْعُوَهُمْ إلَى الإسْلاَمِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الطَّائِفِ رَاجِعاً إلَى مَكَّةَ وَوَصَلَ بَطْنَ نَخْلَةَ ، قَامَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ ، فَمَرَّ بِهِ نَفَرٌ مِنْ أشْرَافِ جِنِّ نَصِيبِينَ مِنَ الْيَمَنِ فَاسْتَمَعُواْ الْقُرْآنَ ".

قال ابنُ عبَّاس : (كَانُوا تِسْعَةَ نَفَرٍ) ، وقال الكلبيُّ ومقاتل : (كَانُوا سَبْعَةً صُرِفُوا إلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لِيَسْتَمِعُواْ مِنْهُ وَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ). وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ }.

فلمَّا انتهَوا إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ بعضُهم لبعضٍ : اسكتُوا حتى تَستَمِعوا قراءَتهُ ، وذلك معنى قولهِ تعالى : { فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُواْ أَنصِتُواْ } ؛ أي فلما فرغَ من التلاوةِ قال بعضُهم لبعض : اسكُتوا حتى تَستمعوا قراءته ، وإما قالوا ذلك لأنهم سَمعوا شيئاً لم يسمعوا مثلَهُ ، فلما فرغَ من القرآنِ انصرَفُوا إلى قومِهم مخوِّفين لهم بالقرآن ، وذلك معنى قوله تعالى : { فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ } ، أي فلما فرغَ من التلاوةِ انصرفوا إلى قومهم مُنذرين ؛ أي محذِّرين إياهم عذاباً إن لم يُؤمنوا ، وهذا قاله سعيدِ بن جُبير وجماعةٍ من أئمَّة الخبرِ.

وقالَ آخَرُون : بل " أُمِرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُنذِرَ الجنَّ ويدعُوَهم إلى اللهِ ، فقرأ عليهم القرآنَ ، فصرفَ اللهُ نفراً من الجنِّ وجَمَعهم له ، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابهِ : " إنِّي أُمِرْتُ أنْ أقْرَأَ عَلَى الْجِنِّ اللَّيْلَةَ ، فَأَيُّكُمْ تَبعَنِي " فَأَطْرَقُوا ، فَقَالَ لَهُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً ، فَأَطْرَقُواْ ، فَقَالَ لَهُمْ مَرَّةً ثَالِثَةً ، فَاتَّبَعَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ : (لَمْ يَحْضُرْ مَعَهُ أحَدٌ غَيْرِي ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى إذا كُنَّا بأَعْلَى مَكَّةَ دَخَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم شِعْباً يُقَالُ لَهُ شِعْبُ الْحِجَوْنِ ، وَخَطَّ لِي ثُمَّ أمَرَنِي أنْ أجْلِسَ فِيْهِ ، وَقَالَ : " لاَ تَخْرُجْ مِنْهُ حَتَّى أدْعُوَ إلَيْكَ ".

ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى قَامَ فَافْتَتَحَ الْقُرْآنَ ، فَجَعَلْتُ أرَى أمْثَالَ النُّور تَهْوِي ، وَسَمِعْتُ لَفْظاً شَدِيداً حَتَّى خِفْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَغَشِيَتْهُ سَوْدَةٌ كَبيرةٌ حَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حَتَّى مَا سَمِعْتُ صَوْتَهُ ، ثُمَّ طَفِقُواْ يَتَقَطَّعُونَ أمْثَالَ قِطَعِ السَّحَاب ذاهِبِينَ.

فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَعَ الْفَجْرِ ، وَقَالَ : " أنِمْتَ ؟ " قُلْتُ : لاَ وَاللهِ ؛ وَلَقَدْ هَمَمْتُ مِرَاراً أنْ أسْتَغِيثَ بالنَّاسِ حَتَى سَمِعْتُكَ تُفْزِعَهُمْ بعَصَاكَ تَقُولُ : " اجْلِسُوا " فَقَالَ : " لَوْ خَرَجْتَ لَمْ آمَنْ عَلَيْكَ أنْ يخْتَطِفَكَ بَعْضُهُمْ " ثُمَّ قَالَ : " هَلْ رَأيْتَ ؟ " فَقُلْتُ : نَعَمْ ؛ رَأيْتُ رجَالاً سُوداً.

قَالَ : " أُوْلَئِكَ جِنُّ نَصِيبِينَ ، سَأَلُونِي الْمَتَاعَ فَمَنَعْتُهُمْ بكُلِّ عَظْمٍ حَلِيلٍ وَرَوْثَةٍ وَبَعْرَةٍ " فَقَالُواْ : يَا رَسُولَ

اللهِ صلى الله عليه وسلم يُقَذِّرُهَا لِلنَّاسِ عَلَيْنَا ، فَنَهَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يُسْتَنْجَى بالْعَظْمِ وَالرَّوْثِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ صلى عليه وسلم وَمَا يَعْنِي ذلِكَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : " إنَّهُمْ لاَ يَجِدُونَ عَظْماً إلاَّ يَجِدُونَ عَلَيْهِ لَحْمَةً يَوْمَ أُكِلَ ، وَلاَ رَوْثَةً إلاَّ وَجَدُواْ فِيْهَا حَبَّهَا يَوْمَ أُكِلَتْ ".

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ سَمِعْتُ لَفْظاً كَثِيراً شَدِيداً ، قَالَ : " إنَّ الْجِنَّ تَدَارَتْ فِي قَتِيلٍ قُتِلَ بَيْنَهُمْ ، فَتَحَاكَمُوا إلَيَّ فَقَضَيْتُ بَيْنَهُمْ ". ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ : " هَلْ مَعَكَ مَاءٌ ؟ " فَقُلْتُ : يَا رسُولَ اللهِ مَعِي نَبِيذُ تَمْرٍ فِي إدَاوَةٍ ، فَاسْتَدْعَاهُ فَصَبَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ فَتَوَضَّأَ بِهِ وَقَالَ : " تَمَرَةٌ طَيِّبَةٌ وَمَاءٌ طَهُورٌ " ".

(٠/٠)

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُواْ بِهِ } ؛ يعني مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ، { يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } ؛ فاستجابَ لهم من قومِهم نحو من سبعينَ رجُلاً من الجنِّ ، فرجَعُوا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فواقَفوهُ بالبطحاءِ ، فقرأ عليهم القرآنَ ، فقال بعضُهم : أمَرهم ونَهاهم.

واختلفَ العلماءُ في مؤمني الجنِّ ، فقال بعضُهم : ليس لِمُؤمِني الجنِّ إلاَّ نجا منهم من النار ، وتأوَّلوا فيه ، قوله : { يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } ، وعن الليث أنه (الجنُّ ثوابُهم أن يُجَارُوا من النار ، ثم يقالُ لَهم : كونوا تُراباً مثلَ البهائمِ). وقال آخرون : إذا كان عليهم العقابُ في الإساءة ، وجبَ أن يكون لهم الثوابُ في الإحسانِ مثل الإنسِ ، وعن الضحَّاك قال : (الْجِنُّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ).

(٠/٠)

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ } ؛ أي لا يعجزُ اللهَ ولا يفوتهُ ، { وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أُوْلَئِكَ } ؛ الذين لا يُجِيبُونَ الرسُلَ ، { فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ } ؛ أي لم يُضعفْ عن إبداعِهنَّ ، { بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ والمعنى : أليسَ اللهُ بقادرٍ على إحياءِ الموتَى فيما ترَون يا أهلَ مكَّة ، فإنَّ خلقَ السموات والأرضِ بما فيهنَّ من العجائب والبدائعِ أعظمُ من إعادةِ الحياة في الميِّت بعدَ ما كانت فيه.

(٠/٠)

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَاذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ } ؛ الآيةُ ظاهرة المعنى.

(٠/٠)

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

وقولهُ تعالى : { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } ؛ وهم خمسةٌ أُولُوا الكتب والشرائع : مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ونوح وإبراهيم وموسَى وعيسى صَلواتُ اللهِ عليهم ، وَقِيْلَ : إنَّهم رسلٌ سُلِخُوا من جلودِهم فلم يجزَعُوا.

وَقِيْلَ : أرادَ بأُولِي العزمِ الأنبياءُ كلَّهم ، وحرف (مِنْ) على هذا القولِ لِتَبيين الجنسِ كما في قوله{ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ }[الحج : ٣٠] ، قال ابنُ يزيد : (كُلُّ الرُّسُلِ كَانُوا أُوْلِي عَزْمٍ).

وقال بعضُهم : كلُّ الأنبياءِ أُولُوا عزمٍ إلاَّ يونسَ عليه السلام ، ألاَ ترَى أنَّ نبيَّنا صلى الله عليه وسلم نُهي عن أنْ يكون مثلَهُ لخِفَّة وعجلةٍ ظهرت منهُ حين ولَّى مُغَاضِباً لقومهِ ، فابتلاهُ الله بالحوتِ فابتلعَهُ ، وَقِيْلَ : أُولُوا العزمِ نُجبَاءُ الرُّسلِ المذكورون في سُورةِ الأنعامِ وهم ثمانيةُ عشر ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فيهم{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ }[الأنعام : ٩٠].

وقال مقاتلُ : (أُوْلُوا الْعَزْمِ سِتَّةٌ : نُوحٌ صَبَرَ عَلَى أذى قَوْمِهِ وَكَانُواْ يَضْرِبُونَهُ حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ ، وَإِبْرَاهِيمُ صَبَرَ عَلَى النَّار ، وَإِسْحَاقُ صَبَرَ عَلَى الذبْحِ ، وَيَعْقُوبُ صَبَرَ عَلَى فَقْدِ وَلَدِهِ وَذهَاب بَصَرِهِ ، وَيُوسُفُ صَبَرَ عَلَى الْبِئْرِ وَالسِّجْنِ ، وأيُّوبَ صَبَرَ عَلَى الضُّرِّ). قال ابنُ عبَّاس : (الْعَزْمُ : الصَّبْرُ) ، وقال القَرَظِيُّ : الرَّأيُ وَالصَّوَابُ).

وقال الحسنُ : (أُوْلُوا الْعَزْمِ أرْبَعَةٌ : إبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَدَاوُدَ وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ، أمَّا إبْرَاهِيمُ فَعَزْمُهُ أنَّهُ قِيلَ لَهُ : أسْلِمْ ، فَقَالَ أسْلَمْتُ لِرَب الْعَالَمِينَ ، وَابْتُلِيَ فِي وَلَدِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ ، فَوُجِدَ صَادِقاً وَافِياً فِي جَمِيعِ مَا ابْتُلِيَ بهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ }[البقرة : ١٢٤] ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى }[النجم : ٣٧] ، وَأمَّا مُوسَى فَعَزْمُهُ أنَّ قَوْمَهُ كُلَّمَا قَالُوا لَهُ : إنَّا لَمُدْرَكُونَ ، قَالَ : كَلاَّ إنَّ مَعِي رَبي سَيَهْدِينِ. وَأمَّا دَاوُد عليه السلام فَعَزْمُهُ أنَّهُ أخْطَأَ خطِيئَةً فَبَكَى عَلَيْهَا أرْبَعِينَ سَنَةً. وَأمَّا عِيسَى فَعَزْمُهُ أنْ لَمْ يَضَعْ لَبنَةً عَلَى لَبنَةٍ زُهْداً فِي الدُّنْيَا).

فكأنَّ اللهَ تعالى قال لنَبيِّه صلى الله عليه وسلم : فاصبرْ كما صبرَ أُولُوا العزمِ من الرُّسلِ ؛ أي كن صَادقاً فيما ابتُلِيت به مثلَ صدقِ إبراهيمَ عليه السلام ، وكُن واثقاً بنصرِ مَولاَكَ مثلَ ثقةِ مُوسَى عليه السلام مُهتَمّاً بما سلفَ من هفَوَاتِكَ مثل اهتمامِ داودَ عليه السلام ، زاهداً في الدُّنيا مثلَ زُهدِ عيسى عليه السلام ، فقالَ الشاعرُ : أُوْلُواْ الْعَزْمِ نُوحٌ وَالْخَلِيلُ كِلاَهُمَا مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبيُّ مُحَمَّدُفلمَّا نزلت هذه الآيةُ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " واللهِ لأَصْبرَنَّ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَأجْهَدُ كَمَا جَهِدُوا ، ولاَ قُوَّةٍ إلاّ بالله ".

وقولهُ تعالى : { وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ } ؛ وذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ضَجِرَ بعضَ الضَّجرِ من كُفرِهم ، وأحبَّ أن ينْزِلَ العذابُ بمَن أبَى منهم الإسلامَ ، فأُمِرَ بالصَّبرِ وتركِ الاستعجالِ ، ثم أخبرَ أنَّ العذابَ منهم قريبٌ ، فقوله : { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ } ؛ من العذاب في الآخرة ؛ { لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ } ؛ أي إذا عايَنُوا العذابَ صارَ طولُ لُبثِهم في الدُّنيا والقبور كأنَّهُ ساعةٌ ، لأنَّ ما مضَى كأنَّهُ لم يكن وإنْ كان طَويلاً.

وتَمَّ الكلامُ ، ثم قال تعالى : { بَلاَغٌ } ؛ أي هذا القرآنُ وما فيه من البيانِ بلاغٌ عن الله إليك ، والبلاغُ بمعنى التبليغِ بلَّغكم مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم عن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ

الْفَاسِقُونَ } ؛ أي لا يقعُ العذاب إلاَّ بالعاصِين الخارجين عن أمرِ الله تعالى ، وَقِيْلَ : معناهُ : ما يهلكُ إلاَّ مشركٌ أو منافقٌ.

(٠/٠)

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١)

{ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } ؛ معناهُ : الذين كفَرُوا بتوحيدِ الله وصَدُّوا الناسَ عن الإسلامِ ، يعني كفارَ مكَّة أضلَّ أعمالَهم ؛ أي أبطَلَها وأذهبَها فلا أجْرَ لهم فيها وكأنَّها لم تكن ، وأرادَ بأعمالِهم إطعامَهم الطعامَ وصِلَتهم الأرحامَ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)

وقولهُ تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ } ؛ أي صدَّقُوا بالقرآنِ الذي نزلَ على مُحَمَّدٍ ، { وَهُوَ الْحَقُّ } ؛ أي الصدقُ ، { مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } ؛ أي غفَرَها لهم فلا يُحاسَبون عليها ، { وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } ؛ أي حالَهم ، قال المبرِّدُ : (الْبَالُ : الْحَالُ). وقال ابنُ عبَّاس : (عَصَمَهُمْ أيَّامَ حَيَاتِهِمْ حَتَّى لَمْ يُمْنَعُوا).
وَقِيْلَ : معناهُ : وأظهرَهم على أعدائِهم وقوَّاهم من ضَعفِهم ، قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (الَّذِينَ كَفَرُواْ صَدُّواْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ أهْلُ مَكَّةَ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِلأَنْصَار).

(٠/٠)

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ اتَّبَعُواْ الْبَاطِلَ } ؛ أي ذلك الإضلالُ والإصلاحُ باتِّباعِ الذين كفَرُوا الشِّركَ ، { وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّبَعُواْ الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ } ؛ واتِّباعُ المؤمنين التوحيدَ والقرآن ، فالشِّركُ هو الباطلُ ، والتوحيدُ هو الحقُّ والقرآن. قَوْلُهُ تَعَالَى : {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } ؛ معنى أنَّ مَن كان كَافراً أضلَّ اللهُ عملَهُ ، ومَن كان مُؤمناً كفَّرَ اللهُ سيِّئاته وأصلحَ بالَهُ.

(٠/٠)

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥)

وقولهُ تعالى : { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ } ؛ أي إذا لَقِيتمُوهم في القتالِ فاضْرِبُوا رقابَهم ؛ أي اقتلُوهم ، والمعنى : فاضربُوا الرقابَ ضَرباً ، وهذا مصدرٌ أُقِيمَ مقامَ الأمرِ ، كما في قولهِ{ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ }[البقرة : ٩٢] ، وَقِيْلَ : انتصبَ قولهُ { فَضَرْبَ } على الإغراءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ } ؛ أي حتى إذا أكثَرتُم القتلَ فيه وغلَبتُموهم وبالَغْتُم في قتلِهم فاستوثَقْتُموهم بالأسرِ ، ولا يكون الأسرُ إلاَّ بعد المبالَغةِ في القتلِ ، كما قال اللهُ{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ }[الأنفال : ٦٧] ، والمعنَى حتى إذا قَهرتُموهم وغَلبتُموهم وصَاروا أسَارَى في أيدِيكم فشُدُّوا وثاقَهم كَيلاَ يَهربُوا ، يقال : أوْثَقَهُ أيْ إيْثَاقاً إذا شدَّ أسْرَهُ لِئَلاَّ يُفْلِتَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا } ؛ معناهُ : فإما أن تَمُنُّوا عليهم بعد أن تَأسِرُوهم وتطلقوهم بغيرِ فداءٍ ، وإما تُطلِقُوهم يُفْدَوْنَ بأَسرَاكُم عندَهم أو بمالٍ ، والمعنى فإمَّا بعدَ أن تأسِرُوهم إما مَنَنْتُمْ عليهم مَنّاً فأطلقتُموهم بغيرِ عِوَضٍ ، وإما أنْ تُفَدُوا فِدَاءً.

وعن ابنِ عبَّاس قال : (هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ{ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ }[التوبة : ٥]).

وَإِلَيْهِ ذهَبَ أبُو حَنِيفَةَ وقالَ : (لاَ يَجُوزُ الْمَنُّ عَلَى الأَسِيرِ وَلاَ الْفِدَاءُ بالْمَالِ وَلاَ بغَيْرِ الْمَالِ مِنَ الأُسَارَى ، وَلاَ يُبَاعُ السَّبْيُ مِنْ أهْلِ الْحَرْب).

ولم يختلف أهلُ التفسيرِ في أنَّ التوبةَ نزلت بعدَ سُورَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، ولا خلافَ بين العلماءِ في جواز قتل الأسيرِ وجواز قِسمَةِ الأُسَارَى بين المسلمِين إذا لم يكن الأُسارَى من العرب ، وإنما اختَلَفُوا في جواز الْمَنِّ عليهم في مَفَادَاتِهم بالمالِ أو النفس.

قال الشافعيُّ : (يَجُوزُ المَنُّ عَلَيْهِمْ لأَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم مَنَّ عَلَى أبي عَزَّةَ الشَّاعِرِ يَوْمَ بَدْرٍ

عَلَى أنْ لاَ يُقَاتِلَ ، فَرَجَعَ إلَى مَكَّةَ ثُمَّ عَادَ بَعْدَ ذلِكَ لِلْقِتَالِ فَأُسِرَ ، فَأَمَرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بقَتْلِهِ). فأجابَ أصحابُنا عن هذا إنَّما مَنَّ عليه كما مَنَّ العربُ ، وكان لا يجوزُ استرقاقهُ ، وقال أبو يوسف ومحمَّد : (تَجُوزُ مُفَادَاةُ الأَسِيرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا } أي حتى يضعَ أهلُ الحرب أسلِحتَهم ، والأَوْزَارُ في اللغة : الأَثْقَالُ ، وَقِيْلَ : المرادُ بالأوزار هنا الآثَامُ ، وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى قَوْلِهِ { حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا } أيْ حَتَّى لاَ يَبْقَى أحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ). وقال مجاهدُ : (حَتَّى لاَ يَكُونَ دِينٌ إلاَّ الإسْلاَمُ).

وَقِيْلَ : حتى تضعَ حربُكم وقتالُكم أوزارَ المشركين وقبائحَ أعمالِهم بأنْ يُسلِمُوا فلا يبقَى دينٌ غيرُ الإسلامِ ، ولا يُعبَدُ وثنٌ. وقال الفرَّاءُ : (مَعْنَاهُ : حَتَّى لاَ يَبْقَى إلاَّ مُسْلِمٌ أوْ مُسَالِمٌ).

وَقِيْلَ : معناهُ : حتى تضعَ أهلُ الحرب آلتَها وعُدَّتَها ، وآلَتُهم أسلِحَتُهم فيُمسِكُوا عن الحرب ، وحربُ القومِ الْمُحارِبُونَ كالرَّكْب والشُّرب ، ويقال أيضاً للكِرَاعِ : أوْزَارٌ ، قال الشاعرُ وهو الأعشَى :

(٠/٠)

وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ } ؛ أي بَيَّنها لهم حتى عرَفُوها من غيرِ استدلالٍ ، وذلك أنَّهم إذا دخَلُوا الجنةَ تعرَّفُوا إلى منازلِهم. وَقِيْلَ : معناهُ : طيَّبَها لَهم من العُرْفِ وهي الرائحةُ الطيِّبة ، وطعامٌ مُعَرَّفٌ ؛ أي مطيَّبٌ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ } ؛ أي إن تَنصُروا دينَ اللهِ ونبيَّهُ صلى الله عليه وسلم ينصُرْكُم بالتوفيقِ والكفاية والإظهار على الأعداءِ ، { وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } ؛ عندَ القتالِ بتقويَةِ قُلوبكم ، { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ } ؛ أي فمَكرُوهاً لهم وسوءاً ، والتَّعْسُ في اللغة : الانحطاطُ والعثُورُ ، يقال : تَعَسَ يَتْعَسُ إذا انْكَبَّ وعَثَرَ ، قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيدُ : فِي الدُّنْيَا الْعَثْرَةُ ، وَفِي الآخِرَةِ

التَّرَدِّي فِي النَّار).

وانتصبَ قولهُ { فَتَعْساً لَّهُمْ } على الدُّعاء ؛ أي أتْعَسَهُمُ اللهُ تَعْساً ، قال الفرَّاءُ : (هُوَ نَصْبٌ عَلَى الْمَصْدَر) ، وأصلُ التَّعْسِ في الدوَاب والناسِ ، وهو أن يُقالَ للعاثرِ : تَعْساً ؛ إذا لَمْ يُرِيدُوا قِيَامَهُ ، وضِدُّهُ لَعًا إذا أرَادُوا قِيامَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } ؛ أي أبْطَلَها وأحبَطَها لأنَّها كانت في طاعةِ الشيطان. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ } ؛ أي ذلك التَّعْسُ والإضلالُ بأنَّهم كَرِهُوا ما أنزلَ اللهُ على نبيِّه صلى الله عليه وسلم وبيَّن من الفرائضِ من الصَّلاة والزكاةِ ، { فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } ؛ لأنَّها لم تكن في إيمانٍ.

(٠/٠)

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ } ؛ يعني أهلَ مكَّة ، { فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ من الأُمم المكذِّبة ، { دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } ؛ منازَلهم وأهلكَهم بالعذاب ، والتدميرُ : الهلاكُ ، ثم يوعِدُ مشركِي مكَّة فقال : { وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا } ؛ إنْ لم يُؤمِنُوا ؛ أي أمثالُ عقُوبَتِهم وأشباهُ عقوباتِ مَن كان قبلَهم.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١)

وقولُه تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ أي ذلك النَّصرُ للمؤمنين والهلاكُ للكافرين بأنَّ الله وليُّ الذين آمَنُوا يلِي أمرَهم ويتولَّى نصرَهم ، { وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ } ؛ أي ليس لَهم وليٌّ يُعِينُهم ولا ناصرَ يُنْجِيهم من العذاب.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ ظاهرُ المعنى ، { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ } ؛ في الدُّنيا ، { وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ } ؛ تأكلُ وتشرَبُ ولا تدري ما في غدٍ ، كذلك الكفارُ لا يلتَفِتُونَ إلى الآخرة ، { وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ } ؛ أي منْزِلُهم ومُقَامُهم ومصيرُهم.

وأرادَ بالتمتُّعِ التعيُّشَ في الدنيا في الجهلِ ، وشبَّهَ أكلَ الكافرِ بأكلِ الأنعام لأنَّهم يأكلُون للشَّبَعِ لا يَهمُّهم ما في غدٍ ، والمؤمنُ هِمَّتُهُ مصروفةٌ إلى أمرِ دينه يأكلُ للقيامِ بعبادة اللهِ لا للشَّبع ، ويكون قصدهُ من التَّمتُّع إعفافَ نفسه وزوجتهِ ، وابتغاءَ ما كُتِبَ من الولدِ.

وفي الحديثِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ : فَثُلُثاً لِلطَّعَامِ وَثُلُثاً لِلشَّرَاب وَثُلُثاً لِلنَّفَسِ " وقال الحسنُ : (وَهُوَ أَنَّكُمْ إذا أَشْبَعْتُمْ عَصَيْتُمْ شِئْتُمْ أَوْ أَبَيْتُمْ).

(٠/٠)

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ } ؛ هذا تحذيرٌ لأهلِ مكَّة بقولهِ : كم أهلَكنا من أهلِ قريةٍ مَن كان أكثرَ عَدداً وأبسطَ مُلكاً ويَداً من أهلِ قريتِكَ ؛ يعني مكَّة التي أخرجَتْكَ أهلُها ، { فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ } ؛ فلم يكن لَهم ناصرٌ يُنجِيهم من عذاب الله ، فحَذِّرْ قومَكَ يا مُحَمَّدُ مثلَ حالَتِهم.

(٠/٠)

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ } ؛ معناهُ : حالُ مَن كان على نصرهِ من ربهِ ويقين كحالِ مَن زُيِّنَ له قُبْحُ عملهِ فيعبُدوا الأوثانَ ، { وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ } ؛ في عبادتِها.

(٠/٠)

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ } ؛ أي صِفَةُ الجنَّة التي وُعِدَ المتَّقون الشركَ والكبائرَ ، { فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ } ؛ أي مُتغيِّر طَعمهُ وريحهُ ، يقالُ : آسَنَ الماءُ يَأْسَنُ أُسُونَا وَأَسَناً إذا تغيَّرَ ، وهو الذي لا يشتهيه مِن نَتَنِهِ فهو آسِنٌ وأسِنٌ ، مثلُ حَاذِرٍ وحَذِرٍ. وَقِيْلَ : إن الآسِنَ ما يعرَضُ أن يتغيَّر ، والأَسِنُ بالقَصْرِ ، ما تغيَّرَ في الحالِ ، وقرأ ابنُ كثير (آسِنٍ) بالقصرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ } ؛ أي لم يَحْمَضْ كما تَحْمَضُ وتتغيَّرُ ألبانُ الدُّنيا ؛ لأنه لم يخرُجْ من ضُروعِ الأنعامِ ، { وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ } ؛ بخلاف خمرِ الدُّنيا ؛ فإنَّها لا تخلُو من المرارةِ ، وعن ما يحدثُ فيها من أنواعِ المرضِ ومن العقوبةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى } ؛ أي مُصَفًّى من الأقذار ، من العِكْرِ والكَدَر ، بخلافِ عسلِ الدُّنيا الذي يكون من بطونِ النَّحل ، فإنه لا يخلُو من الشَّعرِ وغيرهِ. قال مقاتلُ : (أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْمَذْكُورَةُ تَتَفَجَّرُ مِنَ الْكَوْثَرِ إِلَى الْجَنَّةِ). ويقالُ : إنَّها تتفجرُ من تحتِ شجرة طُوبَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } ؛ أي ولَهم في الجنَّة من جميعِ أنواع الثَّمرَاتِ والفواكهِ مما عَلِموهُ وما لَمْ يعلموهُ ، ومما سَمعوهُ وما لَمْ يسمعوهُ ، ظاهرُها مثلُ باطِنها ، لا يخالِطُها قشرٌ ولا رذالٌ ولا نَوَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ } ؛ أي ولَهم مع ذلك النعيمِ المقيم مغفرةٌ مِن ربهم لذُنوبهم ، فلا يُذكَرُ شيءٌ من معاريضِهم في الجنَّة ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد ستَرَها عليهم فهي بمنْزِلة ما لَمْ يُعمَلْ ، { كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ } ؛ أي مَن كان في هذا النعيمِ كمَنْ هو خالدٌ في النار { وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً } شَديدَ الحرِّ تسْتَعرُ عليه جهنَّم منذُ خُلِقت { فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ } في الجوفِ من شدَّة الحرِّ ، والأمعاءُ : جميعُ ما في البطنِ من الحوايَا ، واحدُها مِعَاءٌ ، كما قالَ تعالى في آيةٍ أُخرى : { يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ }[الحج : ٢٠].

وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إذا شَرِبَهُ صَاحِبُهُ قَطَّعَ أمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ "
وعن محمَّد بن عبدِالله الكاتب قال : قَدِمْتُ مِنْ مَكَّةَ ، فَلَمَّا صِرْتُ إلَى طِيزنَابَاذ ذكَرْتُ بَيْتَ أبي نُوَّاسٍ : بطِيزْنابَاذ كَرْمٌ مَا مَرَرْتُ بهِ إلاَّ تَعَجَّبْتُ مِمَّنْ شَرِبَ الْمَاءَفَهَتَفَ بهِ هَاتِفٌ أسْمَعُهُ وَلاَ أرَاهُ : فِي الْجَحِيمِ حَمِيمٌ مَا تَجَرَّعَهُ خَلْ قٌ إلاَّ مَا بَقِيَ لَهُ بَطْنُ أمْعَاءِ

(٠/٠)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً } ؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم خَطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَعَابَ الْمُنَافِقِينَ في خُطْبَتِهِ ، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ قَالُواْ لِعَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ : مَاذا قَالَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْمِنْبَرِ السَّاعَةَ ؟ فَقَدْ سَمِعْنَا قَوْلَهُ وَلَمْ نَفْهَمْهُ ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ سَمَاعَ تَهَاوُنٍ وَاسْتِخْفَافٍ.
والآنِفُ : السَّاعَةُ ؛ مِن قولِكَ : اسْتَأْنَفْتُ الشَّيءَ إذا ابتدأتَهُ ، والمعنى : ومِن هؤلاءِ الكفَّار مَن يستمعُ إليك : المنافِقُون يستمِعون قولَكَ فلا يَعُونَهُ ولا يفهمونَهُ تَهَاوُناً منهم بذلكَ وتثَاقُلاً ، فإذا خرَجُوا قالوا للَّذين أوُتُوا العلمَ من الصحابةِ : مذا قالَ مُحَمَّدٌ الآنَ ، وذلك أنَّهم سأَلُوا ابنَ مسعودٍ وابنَ عبَّاس عمَّا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم استهزاءً وتَهاوُناً وهذا كالرجُلِ يستمعُ إلى غيرِ سماعٍ استخفافاً ، ثم يقولُ بعدَ ذلك لأصحابِهِ : أليس الذي كانَ يقولُ فلانٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } ؛ أي خَتَمَ عليها بالكُفرِ فلا يعقِلُون الإيمانَ ، والطبعُ هو الْخَتْمُ على القلب بسِمَةٍ تعلَمُها الملائكةُ بأنَّه جاحدٌ لا يفلحُ أبداً ، { وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُمْ } ؛ في الكفرِ والنِّفاقِ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)

وقولهُ تعالى : { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } ؛ أي والذين اهتدَوا بالإيمانِ بكَ

والاستماعِ إلى خُطبَتِكَ زادَهم اللهُ بصيرةً في دِينهم ، وألْهَمَهُم تركَ المعاصِي واجتنابَ المحارمِ. ويجوزُ أن يكون زادَهم إعراضُ المنافقين هدًى ، وأعطَاهم اللهُ ثوابَ تَقَوَاهُم في الآخرةِ.

(٠/٠)

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً } ؛ أي ما ينتظرُ هؤلاءِ الكفارُ والمنافقون إلاَّ أنْ تأتِيَهم الساعةُ فجأةً على غِرَّةٍ منهم ، { فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا } ؛ أي علاَماتُها ، ومِن أشراطِها خروجُ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، فإنَّهَا تَأتِيهِمْ بَغْتَةً في آخرِ الزمان ، قالَ صلى الله عليه وسلم : " بُعِثْتُ أنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ " ، ومِن أشراطِها أيضاً بيعُ الْحُكْمِ وقطيعةُ الرَّحمِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ } ؛ أي مِن أين لَهم التوبةُ ؟ ومِن أين لَهم أن يتذكَّروا أو يتُوبُوا إذا جاءَتْهم الساعةُ حين لا ينفَعُهم ذلكَ.

(٠/٠)

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ } ؛ الخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والمرادُ بهِ غيرُ.
والمعنى : إذا جاءَتْهم الساعةُ فاعلم أنَّه لا قاضيَ حينئذٍ إلاَّ اللهُ ، ولا مخرجَ يومئذٍ إلاَّ إليهِ ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم قد كان عَلِمَ ذلك ، ولكن هذا خطابٌ يدخلُ فيه الناسُ.
والمعنى : مَن عَلِمَ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ فليَقُمْ على العلمِ ويَثبُتْ عليهِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ } ؛ أي استَعصِمْ مِن مُواقعَةِ ذنبٍ يُوجِبُ الاستغفارُ. ويقالُ : معناهُ : استَغفِرْ لصَغَائِرِكَ ؛ فإنه لا صغيرةَ مع الإصرار ، { وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } ؛ واستغفِرْ لذُنوب المؤمنين والمؤمناتِ ، وهذا إكرامٌ من اللهِ لهذه الأُمة حين أمرَ نبيَّهم أنْ يستغفرَ لهم وهو الشفيعُ الْمُجَابُ فيهم.
وقوله تعالى : { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ } ؛ أي مُتصرَّفَاتِكم في الدُّنيا من أوَّلِ ما ينقلِبُون من ظهرٍ إلى بطنٍ إلى أن تَخرُجوا من دُنياكم إلى قُبوركم ، ويعلمُ أينَ مَثْوَاكُمْ في الآخرةِ ، قال عكرمةُ : (مَعْنَاهُ : واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ مِنَ أصْلاَبِ الآبَاءِ إلَى أرْحَامِ الأُمَّهَاتِ ، وَمَثْوَاكُمْ مَقَامَكُمْ فِي الأَرْضِ). وقال مقاتلُ :

(وَاللهُ يَعْلَمُ مُنْتَشَرَكُمْ بالنَّهَار وَمَأْوَاكُمْ باللَّيْلِ). والمعنى : إنَّهُ عالِمٌ بجميعِ أحوالِكم ، لا يخفَى عليه شيءٌ منها.

(٠/٠)

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (إنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَأَلُواْ رَبَّهُمْ أنْ يُنْزِلَ سُورَةً فِيهَا ثَوَابُ الْقِتَالِ فِي سَبيلِ اللهِ). وَقِيْلَ : إنَّ المؤمنين كانُوا يَشتَاقُون إلى تَواتُرِ نزولِ القرآن ، وكانوا يَستَوحِشُونَ إذا أبطأَ الوحيُ ، وهو قولُهم { لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ } أي هلاَّ نُزِّلتْ سورةٌ ، يقولُ اللهُ تعالى : { فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ } ؛ أي بالأحكامِ التي لا يجرِي عليها النسخُ ، يعني لا يُنسَخُ منها شيءٌ ، قال قتادةُ : (كُلُّ سُورَةٍ يُذْكَرُ فِيْهَا الْجِهَادُ فَهِيَ مُحْكَمَةٌ وَهِيَ أشَدُّ السُّوَر عَلَى الْمُنَافِقِينَ).
والمعنى : أنَّ المؤمنِين قالُوا : هلاَّ أُنزِلَتْ سورةٌ تأمُرنا بالجهادِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ } { وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ } ؛ أي إيجابُ القتالِ ، { رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ } ؛ وهم المنافِقُون ، { يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } ؛ عندَ ذكرِ القتالِ كنظَرِ الذي هو في غَشَيَانٍ من الموتِ ، كراهةً منهم للقتالِ مخافةَ أن يُقتَلوا في الحرب. قال الزجَّاجُ : مَعْنَاهُ : رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَشْخَصُونَ نَحْوَكَ بأَبْصَارِهِمْ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَراً شَدِيداً ، شَزِراً بتَحْدِيقٍ شَدِيدٍ كَرَاهَةً مِنْهُمْ لِلْجِهَادِ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَوْلَى لَهُمْ } ؛ كلمةُ وعيدٍ لهم ، ومعناهُ : وَلِيَهُم المكروهُ والعقابُ أولَى لهم ، وهذا كما قالَ تعالى : { أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى }[القيامة : ٣٤] ، قال الأصمعيُّ : (مَعْنَى قَوْلِهِ : أوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ؛ أيْ وَلِيَكَ وَقَارَبَكَ مَا تَكْرَهُ).

(٠/٠)

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ } ؛ ابتداءٌ وخبرهُ محذوف ، تقديرهُ : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثَلُ

وأحسنُ ، والمعنى على هذا : أنَّ اللهَ تعالى قالَ : لو أطَاعُوا وقالوا قَوْلاً مَعْرُوفاً كان أمثلَ وأحسنَ.
ويجوز أنْ يكون هذا متَّصلاً بما قبلَهُ على معنى : فأَوْلَى لَهم طاعةٌ لله ولرسولهِ وقولٌ معروف بالإجابةِ والطاعة.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ } ؛ فإذا وُجِدَ الأمرُ ولَزِمَ فرضُ القتالِ ، نَكَلُوا وكذبوا فيما وعَدُوكَ من أنفسهم ، { فَلَوْ صَدَقُواْ اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ } ؛ أي صدَّقوا اللهَ في إيمانِهم وجِهَادِهم لكان خيراً لَهم من المعصيةِ والكراهة والمخالفةِ.

(٠/٠)

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)

وقولهُ تعالى : { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي فلعَلَّكم إن انصَرفتُم من مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وعن ما يأمُركم به أنْ تعودُوا إلى مثلِ ما كُنتم عليه من الكفرِ والفسادِ في الأرضِ من وَأدِ البناتِ ، ومن قَتْلِ بعضِكم بعضاً كفعلِ الجاهليَّة ، وَقِيْلَ : معناهُ : لعلَّكم إنْ تولَّيتُم أمرَ هذه الأُمة بعدَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنْ تُفسِدُوا في الأرضِ بالقتال ، { وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ } ؛ بالبغْيِ ، فيقتلُ قريشٌ بني هاشِمَ ، وبنو هاشمٍ قُريشاً.
وذهبَ كثيرٌ من الناسِ إلى أنَّ هؤلاءِ بنُو أُميَّة ، والمعنى : فلعلَّكم إنْ أعرَضتُم عن الإيمانِ والقرآن ، وفارَقتم أحكامَهُ أن تُفسِدُوا في الأرضِ فتَعُودُوا إلى ما كُنتم عليه في الجاهليَّة من الفسادِ وقتلِ بعضكم بعضاً ، وتُقَطِّعُوا أرْحَامَكُمْ بسَفكِ الدماءِ بعد ما جَمَعكم اللهُ بالاسلامِ والأُلفة ، فتَعُودوا إلى ما كُنتم عليه في جاهليَّتكم من القتلِ والبغيِ وقطيعة الرَّحم. وقال المسيَّب بن شُريك : (مَعْنَاهُ : فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أمْرَ النَّاسِ أنْ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بالظُّلْمِ ، نَزَلَتْ فِي أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَفِي بَنِي هَاشِمٍ).
قرأ يعقوبُ وأبو حاتمٍ : (وَتَقْطَعُوا) مُخفَّفاً من القطعِ اعتباراً بقولهِ{ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ }[البقرة : ٢٧] ، وقولُ الحسن (وَتَقَطَّعُواْ) بفتح الحروف المشدَّدة اعتباراً بقوله{ فَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ }[المؤمنون : ٥٣] ، وقرأ الكافَّة (وَتُقَطِّعُواْ) بضمِّ التاء وتشديدِ الطاء وكسرِها من القطعِ على التكثيرِ لأجل الأرحامِ.
ثم ذمَّ اللهُ تعالى مَن يريدُ ذلك فقالَ تعالى : { أَوْلَائِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ } ؛ فلاَ يَسمعون الحقَّ ولا يهتَدون للرُّشدِ ، يعني المنافقِين الذين يُفسِدون في الأرضِ ، ويُقطِّعون أرحامَهم ، ونسَبَهم اللهُ تعالى إلى الصَّمَمِ والعمَى لإعراضِهم عن أمرِ الله تعالى ، وأمَّا في مُشاهدَتِهم فإنَّهم لا

يكونون صُمّاً ولا عُمياناً ، ومثلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ }[الأحقاف : ٢٦].

(٠/٠)

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)

قولهُ : { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ } ؛ فتَعرِفُوا ما يُوعَدون للمُتمَسِّكِ بالقرآن ، { أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ } ؛ يعني الطَّبْعَ على القلب ، وهذا استعارةٌ لإغلاقِ القلب عن معرفةِ الإسلامِ والقرآن ، وكأنَّ على قُلوبهم أقفَالاً تَمْنَعُهُمْ من الاستدلالِ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى } ؛ قال قتادةُ : (هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ الْكِتَاب ، كَفَرُواْ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ وَيَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كِتَابِهِمْ ، وَنَعْتَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ). فمعناهُ : إنَّ الذين رجَعُوا كفَّاراً من بعدِ ما ظهرَ لهم أمرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بنَعتهِ وصفتهِ في كتابهم ، { الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ } ؛ أي زَيَّنَ لهم القبيحَ ، { وَأَمْلَى لَهُمْ } ؛ اللهُ تعالى ؛ أي أمْهَلَهُمْ مَوَسِّعاً عليهم ليتَمَادَوا في طُغيانِهم ، ولم يُعجِّلْ عليهم بالعقوبةِ.

ويُحْسَنُ الوقوفُ على قولِ : { سَوَّلَ لَهُمْ } لأنه فِعلُ الشيطانِ ، والإملاءُ فعلُ اللهِ تعالى ، على قولِ الحسنِ : لاَ يُحْسَنُ الْوُقُوفُ ؛ لأَنَّهُ يُقَالُ فِي تَفْسِيرِهِ : { وَأَمْلَى لَهُمْ } : مَدَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فِي الْعَمَلِ.

وقرأ أبو عمرٍو (وَأُمْلِي لَهُمْ) على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلهُ ، وهو حسنٌ للفصلِ بين فعلِ الشَّيطان وفعلِ الله تعالى ، ونعلمُ يقيناً أنَّهُ لا يُؤَخِّرُ أحدٌ مدَّة أحدٍ ولاَ يُوَسِّعُ فيها إلاَّ اللهُ تعالى. وقرأ مجاهدُ (وَأُمْلِي) بضمِّ الهمزةِ وإسكانِ الياء على معنى : وأنَا أُمْلِي لَهم.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ } ؛ معناهُ : ذلكَ الإملاءُ لليهودِ بأنَّهم قالُوا للمُشركين : سَنُطِيعُكُمْ في بعضِ الأمُور ؛ أي في التَّعاوُنِ على عداوةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، قالُوا ذلك فيما بينَهم ، فأخبرَ اللهُ تعالى عنهم وأعلمَ أنه يعلمُ ذلك فقالَ : { وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ } ؛ وقرأ بكسر الألفِ على المصدر ؛ أي إسْرَارَهُمْ بكسر الألف ، والمعنى : وَاللهُ يعلَمُ أسرارَ اليهودِ والمنافقين.

(٠/٠)

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ } ؛ أي كيف يكونُ حالُهم إذا قبَضت أرواحَهم الملائكةُ ، { يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } ؛ وظُهورَهم بمَقَامِعِ الحديدِ عند قبضِ الأرواح.
ثم ذكرَ سببَ ذلك الضَّرب : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } ؛ بما كتَمُوا من التوراةِ ، وكفَرُوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وكَرِهُوا ما فيهِ رضوانُ اللهِ وهو الطاعةُ والإيمانُ { فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } ، معنى ما كان من برٍّ وصلةٍ وخير عَمِلوهُ في غيرِ الإيمان بكُفرِهم.

(٠/٠)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ } ؛ أظَنَّ المنافقون ؛ { أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ } ؛ يعني أنْ لَنْ يَتْلُوا شيئاً يُظْهِرُ فيه حِقدَهم للمسلمين وضَغْنَهُمْ عليهم ، فأمرَ اللهُ تعالى بالقتالِ والنَّفقةِ ، فبَخِلَ المنافقون بالمالِ فظهرَ نفاقُهم ، والضَّغْنُ : هو الحقدُ الذي يُضمِرهُ الإنسانُ بقلبِهِ ولا يُظهِرهُ لغيرِهِ.

(٠/٠)

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ } ؛ أي لعرَّفنَاكَهُمْ وأعْلَمْنَاكَهُمْ ، { فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ } ؛ أي بالعلامةِ القبيحةِ التي نظهرها عليهم ، قال الزجَّاجُ : (مَعْنَاهُ : لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا عَلَى الْمُنَافِقِينَ عَلاَمَةً ؛ وَهِيَ السِّيمَاءُ ؛ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِتِلْكَ الْعَلاَمَةِ).

وقولهُ تعالى : { وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ } ؛ أعلمَ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أنْ يُطلِعَهُ على نفاقِهم في فَحْوَى كلامِهم ، فكان لا يتكلَّمُ بعدَ نُزولِ الآية منافقٌ عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلاَّ عُرِفَ بكلامهِ وبما يعتذرون إليه به مِن المعاذيرِ الكاذبة.

قال المفسِّرون معنى قولهِ { فِي لَحْنِ الْقَوْلِ } أي في فَحْوَى القولِ ، ومعناهُ : ومَقْصَدِهِ ، ويقالُ : فلانٌ لَحَنَ بحُجَّتهِ ولاَحَنَ في كلامهِ ، وفي الحديث : " لَعَلَّ بَعْضَكُمْ ألْحَنُ بحُجَّتِهِ " أي أذْهَبُ بها في الجهاتِ لقوَّتهِ على تصريفِ الكلام ، وإذا قِيْلَ : لَحَنَ في كلامهِ أو ألْحَنَ ؛ فمعناهُ : ذهبَ بالكلامِ إلى خلافِ جهة الصَّواب. ولَحَنَ القارئُ إذا تركَ الإعرابَ الصَّوابَ وعدلَ عنه. وقولهُ تعالى : { وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ } ؛ أي يعلمُ ظَواهِرَها وبوَاطِنَها.

(٠/٠)

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ } ؛ لنُعامِلُكم معاملةَ المختَبر فيما نأمُركم به من الجهادِ حتى نُمَيِّزَ المجاهدينَ منكم من غيرِهم ، والصابرِين في القتالِ من الذين لا يصبرُون.

وإنما كَنَّى بالعلمِ عن التمييزِ ؛ لأنه يُتَوَصَّلُ بالعلمِ إلى التمييزِ ، فكان اللهُ تعالى عالِماً بكلٍّ منهم قبلَ أنْ خَلَقَهم ، ولكن أرادَ بالعلمِ في هذه الآية العلمَ الذي يجبُ به الجزاءُ ، وهو علمُ الشهادةِ لا علمُ الغيب.

وقولهُ تعالى : { وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ } ؛ أي نَختبرُ بما نأمرُكم به وننهاكم عنه أخبارَكم وأحوالكم حتى يظهرَ

للناسِ ، وكان الفضيلُ بن عِيَاضٍ إذا أتَى على هذه الآيةِ بَكَى وقالَ : (إنَّكَ إنْ بَلَوْتَ أخْبَارَنَا وَفَضَحْتَنَا وَهَتَكْتَ أسْتَارَنَا).

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ يعني بنِي قُرِيظَةَ والنَّضيرِ ، { وَشَآقُّواْ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى } ؛ في التوراةِ ، { لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً } ؛ بتَركِهم الهدَى ، إنما يضُرُّون أنفُسَهم ، { وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ } ؛ فلا يُرِيدُونَ لها في الآخرةِ ثوَاباً.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ } أي أطِيعُوا اللهَ في الفرائضِ وأطِيعُوا الرسولَ في السُّنن ، { وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ } بالشِّركِ والربا ، فإن الشركَ يُبطِلُ العملَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ }[الزمر : ٦٥] ، والرِّياءُ يُحبطُ العملَ بالمعصيةِ ، وَقِيْلَ : بالْعُجْب ، وقال عطاءُ : (بالشَّكِّ وَالنِّفَاقِ) ، قال الحسنُ : (بالْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ).
ويستدلُّ بظاهرِ هذه الآيةِ : على أنَّ مَنْ شَرَعَ في قُربَةٍ نحوَ الصلاةِ والصومِ والحجِّ ، لم يَجُزْ له الخروجُ منها قبلَ إتْمَامِها ؛ لِمَا فيه من إبطالِ عَمَلِها.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } ؛ وإنما ذُكِرَ الموتُ على الكفرِ ؛ لأن الكفارَ قبلَ الموتِ يُفْرَضُ أن يُؤمِنَ فيُغفَرَ له ، وإذا ماتَ على كُفرِهِ حَبطَ عملهُ حُبُوطاً لا يلحقهُ التداركُ والتَّلافِي.

(٠/٠)

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ } ؛ أي لا تَعطِفُوا عن قتالِ الكفَّار وتدعُوهم إلى الصُّلحِ { وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ } بما وعدكم اللهُ من النصرِ في الدُّنيا والثواب والكرامةِ في الأُخرَى. قال الزجَّاجُ : (مَنَعَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ أنْ يَدْعُوا الْكُفَّارَ إلَى الصُّلْحِ وَأمَرَهُمْ بحَرْبِهِمْ حَتَّى يُسْلِمُواْ) { وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ } أي الغَالِبُونَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ مَعَكُمْ } ؛ أي بالعَوْنِ والنُّصرَةِ على عدُوِّكم بثَوَابَي حِفظِكم ، { وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } ؛ أي لن يَنْقِصَكم شيئاً من ثواب أعمالكم ، وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّهُ لا يجوزُ للإمامِ أن يدعُوا الكفارَ إلى الصُّلحِ ، ولا أنْ يُجِيبَهم إلى الصُّلح في حالِ ما تكون الغَلَبَةُ للمسلمين ، فإنَّ الواوَ في قولهِ : { وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ } واوُ الحالِ ، كما يقالُ : لا تُسَلِّمْ على فُلانٍ وأنتَ راكبٌ ؛ أي في حالِ ما كُنتَ راكباً.

(٠/٠)

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا الْحَيَاوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ } ؛ أي الدُّنيا بما فيها من زينَتِها باطلٌ وغُرورٌ ، تفنَى وتزولُ عن قريبٍ ، واللَّعِبُ : العملُ الذي لا تتعلَّقُ به فائدةٌ ، واللَّهْوُ : هو الفرحُ الذي لا يبقَى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ } ؛ أي تُؤمِنُوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ ، وتتَّقُوا الفواحشَ والكبائرَ ، يُؤتِكُمْ ثوابَ أعمالكم كافياً وَافِياً ، { وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ } ؛ كلَّها في الإنفاقِ في سَبيلهِ ، بل يأمرُكم بالإيمانِ والطاعة ليُثِيبَكم الجنَّةَ ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن

رِّزْقٍ }[الذاريات : ٥٧].

وَقِيْلَ : معناهُ : ولا يسأَلُكم مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم أموالَكم ، وَقِيْلَ : معناهُ : ولا يسأَلُكم اللهُ ورسولهُ أموالَكم كلَّها ، إنما يسألُكم رُبُعَ العُشرِ ، فطِيبُوا نَفْساً ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ } ؛ معناهُ : إنْ يُجهِدْكُم في المسألةِ ، ويُلِحَّ عليكم ويسألُكم جميعَ أموالِكم ، فبَخِلُوا بها ويمنَعُوا الواجبَ.

وقوله : { وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ } التي تحدثُ في القلوب بسبب البُخلِ ، قال قتادةُ : (قَدْ عَلِمَ اللهُ أنَّ فِي مَسْأَلَةِ الْمَالِ خُرُوجَ الأَضْغَانِ). وقوله { أَضْغَانَكُمْ } أي بَعضَكم وعداوَتَكم للهِ ولرسوله ، ولكن فَرَضَ عليكم يَسِيراً وهو رُبُعُ العُشرِ. والإحْفَاءُ في المسألةِ : هو الإلْحَاحُ والتشديدُ. وَقِيْلَ : معنى الآيةِ : ولا يسألُكم أموالَكم لنفسهِ ، بل يسألُكم ليُؤتِكُمْ أجُورَكم.

(٠/٠)

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَا أَنتُمْ هَاؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ يعني ما فَرَضَ عليهم في أموالِهم من الزكاةِ ، { فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ } ؛ بذلك ، { وَمَن يَبْخَلْ } ؛ بذلكَ ، { فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ } ؛ عاقبةُ بُخلِهِ تعودُ عليه في العقاب ، فيصيرُ بُخلهُ على نفسهِ ، { وَاللَّهُ الْغَنِيُّ } ؛ عن ما عندَكم من الأموالِ وعن أعمالِكم ، { وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ } ؛ وأنتم مُحتَاجُونَ إلى اللهِ وإلى ما عندهِ من الجزاءِ والرَّحمةِ والمغفرة ، ثم يأمرُكم بالإنفاقِ لحاجتهِ ولا لِجَرِّ منفعةٍ ولا لدفعِ مضَرَّة ، وإنما أمرُكم بذلك لمصالِحكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ } ؛ أي وإنْ تُعرِضُوا عن طاعةِ الله يَسْتَبْدِلْ قوماً لا يَعْصُونَ ويفعلون ما يُؤمَرون ، وَقِيْلَ : معناهُ : وإنْ تُعرِضُوا عن الإسلامِ وعمَّا افتَرَضَ عليكم من حقٍّ يستبدِلْ قوماً غيرَكم أطوعَ للهِ منكم ، { ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم } ؛ بل يكون أمثلَ منكم وأطوعَ. قال الكلبيُّ : (هُمْ كِنْدَةُ وَالنَّخْعُ) ، وقال الحسنُ : (هُمُ الْعَجَمُ) ، قال عكرمةُ : (هُمْ فَارسُ وَالرُّومُ).

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم " أنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ؛ فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ إنْ تَوَلَّيْنَا اسْتُبْدِلُواْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أمْثَالَنَا ؟ فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ فِي صَدْرِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ – وَقِيلَ : عَلَى فَخِذِهِ – وَقَالَ : " هَذا وَأصْحَابُهُ ". وَقَالَ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ كَانَ الإيْمَانُ مُعَلَّقاً بالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رجَالٌ مِنْ أبْنَاءِ فَارسَ " قال الكلبيُّ فِي قَوْلِهِ : { وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ } قَالَ : (لَمْ يَتَوَلَّوْا وَلَمْ يَسْتَبْدِلْ بِهِمْ).

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)

{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً } ؛ " وذلك أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ يُرِيدُ الْعُمْرَةَ ، وَتَجَهَّزَ مَعَهُ نَاسٌ كَثِيرٌ مِنْ أصْحَابِهِ وَمَعَهُمُ الْهَدْي يَسُوقُونَهَا مَعَ أنْفُسِهِمْ ، فَبَلَغَ ذلِكَ قُرَيْشاً فَاسْتَعَدُّواْ لِيَصُدُّوهُ وَأصْحَابَهُ ، فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالْحُدَيْبِيَةِ ، فَزِعَ الْمُشْرِكُونَ بنُزُولِهِ صلى الله عليه وسلم ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيّ لِيَأْتِيَهُمْ بالْخَبَرِ ، فَلَمَّا أتَاهُمْ عُرْوَةُ أبْصَرَ قَوْماً عُمَّاراً لَمْ يَأْتُواْ لِلْقِتَالِ ، فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ وَأخْبَرَهُمْ بذلِكَ وَهُوَ كَارِهٌ لِصَدِّهِمْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْكَعْبَةِ ، فَشَتَمُوهُ وَاتَّهَمُوهُ.

ثُمَّ بَعَثُوا رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ ، فَقَالَ النَّبيُّ : " ابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وُجُوهِهِمَا وَلَبُّوا " فَلَمَّا رَجَعَ الرَّجُلاَنِ إِلَيْهِمْ قَالاَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ عُرْوَةُ. فَبَعَثُوا سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو أحَدَ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيّ ، قَالَ صلى الله عليه وسلم حِينَ أبْصَرَهُ : " هَذا رَجُلٌ فَاجِرٌ ، وَمَا أرَى إلاَّ قَدْ سَهُلَ أمْرُكُمْ ". فَلَمَّا أتَاهُمْ سُهَيْلُ تَذاكَرُواْ الْمُهَادَنَةَ وَالْمُوَادَعَةَ.

فَلَمَّا كَانَ فِي وَسَطِ النَّهار ، أمَرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالْبَيْعَةِ ، فَنَادَى مُنَادِيهِ فِي الْعَزْمِ : " الآنَ رُوحُ الْقُدُسِ جِبْرِيلُ عليه السلام نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَأَمَرَهُ بالْبَيْعَةِ " فَأَتَوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ جَلَسَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَبَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَكَادَتْ تِلْكَ الْبَيْعَةُ فِي صُدُور الْمُشْرِكِينَ.

فَلَمَّا أمْسَوا وَهُمْ عَلَى ذلِكَ ، رَمَى رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ باللَّيلِ فِي أصْحَاب رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ بالْحِجَارَةِ فَرَمَواْ أعْدَاءَ اللهِ حَتَّى أدْخَلُوهُمُ الْبُيُوتَ وَهَزَمُوهُمْ بإِذْنِ اللهِ. وَأقْبَلَ أشْرَافُهُمْ إِلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ هَذا لَمْ يَكُنْ عَنْ رضًى مِنَّا وَلاَ مُمَالأَةً ، وَإِنَّمَا فَعَلَهُ سُفَهَاؤُنَا ، وَعَرَضُوا الصُّلْحَ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَبلَهُ ، وَلَمْ يُعْطِهِمُ الْمُشْرِكُونَ الصُّلْحَ حَتَّى قَهَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي غَيْرِ قِتَالٍ بالرَّمْيِ بالْحِجَارَةِ.

فَاصْطَلَحَ الْفَرِيقَانِ عَلَى أنْ يَتَوَادَعُوا سِنِينَ ، عَلَى أنْ يَرْجِعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وَأصْحَابُهُ تِلْكَ السَّنَةَ ، فَمَنْ لَحِقَ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَقْبَلْهُ حَتَّى تَنْقَضِيَ الْمُدَّةُ ، وَمَنْ لَحِقَ بالْمُشْرِكِينَ مِنْ أصْحَاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَهُوَ مِنْهُمْ. عَلَى أنَّ الْمُسْلِمِينَ إذا شَاؤُا اعْتَمَرُوا الْعَامَ الْقَابلَ فِي هَذا الشَّهْرِ الَّذِي صَدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ فِيْهِ ، عَلَى أنْ لاَ يَحْمِلُواْ بأَرْضِهِمْ سِلاَحاً.

فَصَالَحَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى ذلِكَ ، وَكَتَبُواْ كِتَابَ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ النَّبيِّ صلى الله عليه

وسلم وَبَيْنَهُمْ ، فَوَجَدَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذلِكَ الشَّرْطِ وَجْداً شديداً ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَنْ لَحِقَ بنا مِنْهُمْ لَمْ نَقْبَلْهُ ، وَمَنْ لَحِقَ بهِمْ مِنَّا فَهُوَ مِنْهُمْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " أمَّا مَنْ لَحِقَ بهِمْ مِنَّا فَأَبْعَدَهُمُ اللهُ ، وَأمَّا مَنْ أرَادَنَا مِنْهُمْ فَسَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ مَخْرَجاً ، وَإنْ يَعْلَمِ اللهُ مِنْهُ الصِّدْقَ يُنَجِّيهِ مِنْهُمْ ".

فَلَمَّا فَرَغُواْ مِنْ كِتَاب الْقَضِيَّةِ ، أقْبَلَ جَنْدَلُ بْنُ سُهَيْلٍ وَهُوَ يَرْشِفُ فِي قُيُودِهِ ، وَكَانَ أبُوهُ قَدْ أوْثَقَهُ حِينَ خَشِيَ أنْ يَذْهَبَ إلَى رَسُولِ اللهِ ، فَجَاءَ حَتَّى وَقَعَ بَيْنَ ظَهْرَانِ المُسْلِمِينَ ؛ وَقَالَ : إنِّي مِنْكُمْ وَإنِّي أعُوذُ باللهِ أنْ تُرْجِعُونِي إلَى الْكُفَّار.

فَأَرَادَ رجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أنْ يَمْنَعُوهُ ، وَنَاشَدَهُمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الْعَهْدَ وَالْمِثَاقَ! فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " خَلُّوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ؛ فَسَيُنَجِّيهِ اللهُ مِنْهُمْ ". فَانْطَلَقَ بِهِ أبُوهُ ، وَكَانَ مَاءُ الْحُدَيْبِيَةِ قَدْ قَلَّ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَأُتِيَ بدَلْوٍ مِنَ الْمَاءِ ، فَتَوَضَّأَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَتَمَضْمَضَ ثُمَّ مَجَّهُ فِي الدَّلْوِ ، ثُمَّ أمَرَهُمْ أنْ يَجْعَلُوهُ فِي الْبِئْرِ ، فَامْتَلأَتِ الْبِئْرُ مَاءً حَتَّى جَعَلُواْ يَغْرِفُونَ مِنْهُ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى شَفَةِ الْبِئْرِ ، وَكَانَ هَذا شَأْنُ الْحُدَيْبِيَةِ.

ولَبِثَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَهراً وَصَيْفاً فوعَدَهم اللهُ خَيراً أنْ يفتحَها لَهم ، فلَمَّا رجعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينةِ نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً } ، والفتحُ الْمُبينُ : ما كان من استعلاءِ المسلمين عليهم حتى غلَبُوهم بالحجارةِ وأدخَلُوهم بيوتَهم ، وتيسير الصلحِ أيضاً من الفتحِ المبين وظهور النبيِّ صلى الله عليه وسلم على خَيبرَ من الفتحِ.

قال : (وَأنْجَى اللهُ أبَا جَنْدَلَ بْنَ سُهَيْلٍ مِنْ أيْدِيهِمْ ، وَخَرَجَ مِنْهُمْ وَاجْتَمَعَ إلَيْهِ قَرِيبٌ مِنْ سَبْعِينَ رَجُلاً كَرِهُواْ أنْ يَقْعُدُواْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، وَعَلِمُواْ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لاَ يَقْبَلُهُمْ حَتَّى تَنْقَضِي الْمُدَّةُ ، فَجَعَلُواْ يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، فَأَرْسَلَ الْمُشْرِكُونَ إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يُنَاشِدُونَهُ أنْ يَقْبضَهُمْ إلَيْهِ ، وَقالُواْ : أنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّنِ اخْتَارَكَ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ ؛ فَإنَّهُمْ إنْ يَكُونُوا مَعَكَ كَانَ أهْوَنَ عَلَيْنَا ، فَلَحِقُوا بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم) ".

(٠/٠)

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ } ؛ قال ابنُ الأنباريِّ : (سَأَلْتُ أبَا عَبَّاسٍ عَنِ اللاَّمِ فِي قَوْلِهِ { لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ } ، فَقَالَ : هُوَ لاَمُ كَيْ ، مَعْنَاهَا : إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِكَيْ يَجْتَمِعَ

لَكَ مَعَ الْمَغْفِرَةِ تَمَامُ النِّعْمَةِ فِي الْفَتْحِ ، فَلَمَّا انْضَمَّ إِلَى الْمَغْفِرَةِ حادثٌ واقعٌ حَسُنَ مَعْنَى (كي).
وقولهُ تعالى : { مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ } المرادُ بالذنب ههُنا الصغائرُ ، فأما الكبائرُ فالأنبياء معصُومون منها أبداً ؛ لأنَّهم الأُمَناء على الوحيِ والرسالةِ. وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال : "كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَقُومُ حَتَّى تَدْمَى قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَتَصْنَعُ هَذا وَقَدْ جَاءَكَ مِنَ اللهِ أنْ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ : أفَلاَ أكُونُ عَبْداً شَكُوراً ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً } ؛ أي بالنبوَّة والمغفرةِ ، والمعنى ليجتمعَ لكَ مع الفتحِ تَمامُ النِّعمة بالمغفرةِ والهداية إلى صراطٍ مستقيم وهو الإسلامُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً } ؛ أي ينصُرَك بالحجَّةِ والسيفِ على عدُوِّك نصراً قوياً لا ذُلَّ معه.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ قِيْلَ : السَّكينةُ هي ما أسكنَ اللهُ قلوبَهم من التعَظُّيم للهِ ولرسولهِ والوَقَار لئلاَّ تُزعَجَ نفوسُهم لِمَا يَرِدُ عليهم. وقوله تعالى : { لِيَزْدَادُواْ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ } ؛ أي ليَزدَادُوا تَصديقاً إلى تصديقهم السابقِ. قال الكلبيُّ : (لَمَّا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَصَدَّقُوا بَها ازْدَادُواْ تَصْدِيقاً إِلَى تَصْدِيقِهِمْ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي جُمُوعُ أهلِ السَّموات والإرضِ ، يعني الملائكةَ والإنس والشياطين ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً } ؛ بمصالحِ خَلقهِ ، { حَكِيماً } ؛ فيما يأمُرهم به وينهاهُم عنه.
قال ابنُ عبَّاس : (فَلَمَّا نَزَلَ{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ }[الفتح : ١-٢] قَالَ الصَّحَابَةُ : هَنِيئاً لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَا أعْطَاكَ اللهُ ، فَمَا لَنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً } ؛ أي نجاةً عظيمةً من النار وظَفَراً بالجنَّة.

(٠/٠)

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ } ؛ معناهُ : إنَّا فتَحنا لكَ ليُدخِلَ اللهُ المؤمنين والمؤمناتِ جنَّاتٍ تجري من تحتِها الأنْهارُ وليُعَذِّبَ المنافقين من الرِّجال والمنافقاتِ من النساءِ ، وهُم أظهَرُوا الإيمانَ باللِّسان وأسَرُّوا الكفرَ من أهلِ المدينة ، { وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ } ؛ مِن أهلِ مكَّة ، { الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ } ؛ ومعنى ظنُّهم السوءَ : أنَّهم ظَنُّوا أن مُحَمَّداً صلى الله عليه لا يُنصَرُ عليهم وأنَّهم هم الذين ينصرُهم اللهُ على رسولِهِ ، وذلك قبيحٌ لا يجوز في صفةِ الله تعالى : وقوله : { عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ } ؛ أي العذابُ والهلاكُ ، { وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ } أي وطردَهم عن رحمتِهِ ، { وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ } ؛ في الآخرةِ ، { وَسَآءَتْ مَصِيراً }.

(٠/٠)

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ ليس على وجهِ التِّكرار ؛ لأنَّ الأولَ في أعانةِ المؤمنين ، وهذا متَّصلٌ بذكرِ المنافقين في الانتقامِ منهم ، ومعنى ذلك : أنَّ في الأولِ { وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } فاللهُ قادرٌ على أن يُسَخِّرهم لينتقمَ بهم من أعدائهِ مِن كلِّ ما دبَّ ودرجَ من ذلك حتى البرغوث والعقربَ ؛ لأنَّ اللهَ لم يأمُرِ المسلمين بالقتالِ لأجلِ هلاك المشركين ، وإنما أمَرَهم بالقتالِ ليُعوِّضَهم بذلكَ جزيلَ الثواب الذي لا يُنَالُ إلاَّ بالقتالِ ، وههنا متَّصل ذكرُ الانتقامِ من المنافقين.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً } ؛ أي لم يَزَلْ مَنِيعاً مستغنياً من الكفَّار ، حَكِيماً في أمرهِ وقضائه.

(٠/٠)

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً } ؛ معناهُ : إنا أرسلناكَ يا مُحَمَّدُ شَاهداً على أُمَّتِكَ بتبليغِ الرسالة ، وَقِيْلَ : شاهدٌ على أقوالِهم وأفعالهم فإنَّها تُعرَضُ عليه ، { وَمُبَشِّراً } بالجنةِ للمطيعين ، { وَنَذِيراً } أي مُخَوِّفاً بالنار لِمَن عصَى اللهَ تعالى.

(٠/٠)

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ } ؛ أي قُرِئ بالتاءِ في الأربعةِ على معنى قولِهم : لتُؤمِنَ باللهِ ورسوله ، وقُرِئ بالياءِ في الأربعة أيضاً ؛ يعني : مَن آمنَ به وصدَّقَهُ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتُعَزِّرُوهُ } راجعٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي يُعِينُوهُ ويَنصرُونَهُ بالسَّيْفِ واللسان ، وقرأ محمَّد بن السُّمَيقِعِ : (وَتُعَزِّزُوهُ) بزائين ، وقولهُ { وَتُوَقِّرُوهُ } أي وتُعَظِّموهُ وتُبجِّلوهُ ، وهذا وقفٌ تامٌّ.
وقولهُ تعالى : { وَتُسَبِّحُوهُ } ؛ أي وتسبحون اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ، { بُكْرَةً وَأَصِيلاً } ؛ أي يُصَلُّونَ له بالغَداةِ والعشِيِّ ، وفي قراءةِ ابن عبَّاس : (وَتُسَبحُوا اللهَ بُكْرَةً وَأصِيلاً).

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ } ، يعني بيعةَ الرِّضوان بالحديبيةِ ، { إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ } بايَعُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم على أنْ لا يفِرُّوا ويقاتِلُوا ، بايعَهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم تحتَ شجرةٍ استظلَّ بها بالحديبيةِ ، وكان الذين بايعوهُ نحوَ ألفِ رجُلٍ وخمسمائة رجل ، بايعوهُ على النُّصرَةِ والنُّصحِ والسمعِ والطاعة ، وأن لا يفِرُّوا من العدوِّ.
ومعنى الآيةِ : إنَّ الذين يُبايعونكَ يا مُحَمَّدُ بالحديبيةِ على أن لا يفِرُّوا ، إنما يُبايعُون في ذاتِ الله ، ليس أنتَ المرادُ بذلك ، بل المرادُ به القيامُ بعبادةِ الله. وَقِيْلَ : المرادُ بذلك أنَّهم بَاعُوا اللهَ أنفُسَهم بالجنَّة.
وقولهُ تعالى : { يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } ، أي نِعمَةُ اللهِ في الهدايةِ فوقَ أيديهم في الطاعة ، يعني إحسانَ

اللهِ إليهم بأن هدَاهُم للإيمانِ أبلغُ وأتَمُّ من إحسانِهم إليكَ بالنُّصرة والبيعةِ ، وقال ابنُ كَيسان : (مَعْنَاهُ : قُوَّةُ اللهِ وَنُصْرَتُهُ فَوْقَ أيْدِيهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ ؛ أي اتَّقِ باللهِ وَنُصْرَتِهِ لَكَ لاَ بنُصْرَتِهِمْ ، وَإنْ بَايَعُوكَ) ، وقال : مَعْنَاهُ : يَدُ اللهِ فِي الثَّوَاب وَالْوَفَاءِ لَهُمْ فَوْقَ أيْدِيهِمْ في الوفاء ، فَإنَّهُمْ لَوْ وَفَّوا بمَا ضَمِنُوا فَاللهُ أوْفَى بمَا ضَمِنَ ، وَأقْدَرُ عَلَى ذلِكَ). واليدُ ههنا هي القُدْرَةُ.

قولهُ : { فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ } ؛ أي مَن نقضَ عقدَ البيعةِ فضررُ نقضهِ عائدٌ عليه ، وليس له الجنَّةُ ولا كرامةٌ ، { وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ } ؛ مِن البيعة فتَمَّ على ذلك واستقامَ ، { فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً } ؛ فسيعطيهِ اللهُ في الآخرةِ ثَواباً عظيماً في الجنة.

ورُوي أنَّ هؤلاء المبايعين لم ينقُضْ أحدٌ منهم البيعةَ ؛ لأنَّهم كانوا مُخلِصين ، ولذلك قالَ اللهُ{ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ }[الفتح : ١٨] رضاهُ عنهم دليلٌ على أنَّهم كانوا مُؤمنين على الحقيقةِ ، أولياءَ الله أهلَ النُّصرة ، والذي لَمْ يدخُلْ معهم في البيعةِ يومئذٍ إلا رجلٌ من المنافقِين يقال له جَدُّ بن قيسٍ ، اختبأ يومئذ تحتَ إبطِ بَعيرهِ ولم يدخُلْ في بيعتِهم ، أماتَهُ اللهُ على نفاقهِ.

(٠/٠)

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا } أخبرَ اللهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنه إذا رجعَ من الحديبيةِ إلى المدينةِ ، أتاهُ الأعرابُ الذين يخلِفُون عنه بغيرِ عُذرٍ ، ولم يَخرُجوا معه وهم مُزَينَةُ وجُهَيْنَةُ وغطَفَانُ وقومٌ من الدَّيلِ ، فيقولون له : شَغَلَتْنَا أموالُنا وأهلُونا عن الخروجِ معك يا محمد ، أي شغلَتنا النساءُ والذراري فلم يكن لنا مَن يخلِفُنا فيهم ، { فَاسْتَغْفِرْ لَنَا } ؛ من التخلُّفِ عنكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } ؛ أي يسألُون المغفرةَ بألسِنَتِهم { مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } يعني : لأنَّهم لا يُبَالُونَ أسْتَغْفَرْتَ لَهم أمْ لم تستغفِرْ لَهم.

وقد كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حِينَ أرَادَ الْمَسِيرَ إلَى مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ، اسْتَنْفَرَ مَنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الأَعْرَاب وَأهْلِ الْبَوَادِي لِيَخْرُجُوا مَعَهُ حَذراً مِنْ قُرَيْشٍ أنْ يُحَارِبُوهُ وَيَصْرِفُوهُ عَنِ الْبَيْتِ ، وَأحْرَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بالْعُمْرَةِ وَسَاقَ الْهَدْيَ لِيُعْلِمَ النَّاسَ أنَّهُ لاَ يُرِيدُ حَرْباً ، فَتَثَاقَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الأَعْرَاب وَقَالُواْ :

نَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى قَوْمٍ قَدْ جَاءُوا يَقْتُلُونَ أصْحَابَهُ فَيُقَاتِلُهُمْ ، فَتَخَلَّفُوا عَنْهُ ، وَاعْتَلُّوا بالشُّغْلِ ، فأنزلَ اللهُ تعالى : { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا } الآيةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً } ؛ معناهُ : مَن يمنعُكم من عذاب الله إنْ أقَمتُم على الكفرِ والنفاق ، { بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } ؛ معناهُ : بل كان اللهُ عالِماً بتخلُّفِكم عن القتالِ من غير عُذرٍ.

قرأ حمزةُ والكسائي وخلفٌ (ضُرّاً) بضم الضاد وهو سُوءِ الحالِ ، وقرأ الباقون (ضَرّاً) بفتح الضادِ لأنه قابَله بالنفعِ ، وأرادَ بالنفعِ الغنيمةَ. وذلك أنَّهم ظَنُّوا أن تَخلُّفَهم عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم يدفعُ عنهم الضُّرَّ ، ويعجِّلُ لهم النفعَ بالسلامةِ في أنفسهم وأموالِهم ، فأخبرَهم اللهُ تعالى أنه إنْ أرادَ بهم شيئاً لم يقدِرْ أحدٌ على دفعهِ عنهم.

(٠/٠)

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً } أظهرَ اللهُ نفاقَهم ، وبيَّن أنَّ تخلُّفَهم عنه لم يكن بسبب أموالهم وأهلِيهم ، ولكن كانوا يقُولون فيما بينهم : يَسْتَأْصِلُ مُحَمَّداً وأصحابَهُ عدُوُّهم في هذِه الكرَّة فلا يرجِعون إلى المدينةِ أبداً فنَستريحُ منهم.

وقولهُ تعالى : { وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ } ؛ أي زَيَّنَ الشيطانُ لكم ذلك الظنَّ في قُلوبكم ، { وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ } ؛ أي ظنَنتُم نبيَّ اللهِ وأصحابَهُ أنَّهم لن يرجِعُوا من سفَرِهم هذا وأنَّهم سيهلَكُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً } ؛ أي هَلْكَى فاسدِي القلُوب لا تَصلُحون لخيرٍ ، والبَوَارُ الهلاكُ ، وما بعدَ هذا ، { وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً } ، ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ } ؛ يعني هؤلاءِ المخَلَّفين سيقولون لرَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه : { إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ } ، خيرٍ ، { لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ } ؛ نخرُجْ معَكم ، فأمرَ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أنْ يَمنَعَهم من ذلك بعدَ تخلُّفهم من غزوةِ الحديبية.

فلما رجعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم من الحديبيةِ وانطلقَ إلى خيبرَ ، قال هؤلاءِ المخلَّفون { ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ } قَالَ اللهُ تَعَالَى : { يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلاَمَ اللَّهِ } ؛ أي أنَّ اللهَ تعالى خصَّ أهلَ الحديبيةِ بمغانمِ خَيبرَ ، وأمرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن لا يَأْذنَ للمنافقين أن يُخرِجُوهم معهم إلاَّ متطوِّعين ليس لهم من المغانمِ شيءٌ. فأرادَ المنافقون أن يُشاركوا فيها ليُبطِلُوا حكمَ اللهِ تعالى : { قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَالِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ } ؛ يعني : أمَرَ اللهُ نَبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أنْ لا يُسَيِّرَ معه منهم أحداً.

ومعنى قوله { مِن قَبْلُ } أي قالَ اللهُ في ذلك بالحديبيةِ قبلَ خيبرَ ، وقبلَ خروجنا إليكم : أنَّ غينمةَ خيبر لِمَن شَهِدَ الحديبيةَ ، { فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا } ؛ أي سيقُولون للنبيِّ صلى الله عليه وسلم لم يأمُرْكم اللهُ بذلك ، ولكن تحسُدُونَنا أن نُشارِكَكم في الغنيمةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ أي لا يعلَمُون عن اللهِ ما لهم وعليهم مِن الدين إلاَّ قليلاً منهم ، وهو مَن صدَّقَ الرسول ولم يُنافِقْ.

(٠/٠)

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ } ؛ أي قُل لهؤلاء المخلَّفين عن الحديبيةِ : { سَتُدْعَوْنَ } ؛ بعدَ موتِ النبي صلى الله عليه وسلم { إِلَى } ؛ قتالٍ ؛ { قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } ؛ أي أهلِ اليمَامَةِ ، قال الزهريُّ : (هُمْ أَهْلُ الْيَمَامَةِ بَنُو حَنِيفَةَ أَتْبَاعُ مُسَيْلَمَةَ ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه) ، قال رافعُ بن خَديج : (كُنَّا نَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ وَلاَ نَعْلَمُ مَنْ هُمْ حَتَّى دَعَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه إِلَى قِتَالِ بَنِي حَنِيفَةَ فَعَلِمْنَا أَنَّهُمْ هُمْ).

وقال ابنُ جُريج : (سَيَدْعُوكُمْ عُمَرُ رضي الله عنه إِلَى قِتَالِ فَارِسَ وَالرُّومَ) { تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ } ؛

معناهُ : تُقاتِلُوهم أن يكون منهم الإسلام ، { فَإِن تُطِيعُواْ } ؛ أبَا بكرٍ وعمر ، { يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً } ؛ عَظيماً في الجنَّة ، { وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ } ؛ عن طاعةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم في المسيرِ إلى الحديبية ، { يُعَذِّبْكُمْ } ؛ في الآخرةِ ، { عَذَاباً أَلِيماً } ؛ شَديداً.
قرأ أُبَيٌّ (أوْ يُسْلِمُوا) بحذفِ النُّون ؛ أي حتى يُسلِمُوا ، وكقولِ امرئِ القيسِ : (أوْ نَمُوتَ) ، وقرأ الكافَّة بإثباتِ النُّون في محل الرفعِ عطفاً على { تُقَاتِلُونَهُمْ }.

(٠/٠)

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ } ؛ أي ليس على هؤلاءِ إثْمٌ في قُعودِهم عن القتالِ لعَجزِهم عنه ، { وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ عائدٌ إلى مَن يلزمهُ الجهادُ ، { وَمَن يَتَوَلَّ } ؛ عن الجهادِ مع قُدرتهِ عليه ، { يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً }.

(٠/٠)

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } ؛ يعني بيعةَ الرُّضوانِ بالحديبيةِ ، وإنما سُميت بيعةُ الرضوانِ بهذه الآية ، وكان سببُ هذه البيعةِ : " أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا سَارَ يُرِيدُ مَكَّةَ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْحُدَيْبِيَةَ وَقَفَتْ نَاقَتُهُ ، فَزَجَرَهَا فَلَمْ تَنْزَجِرْ وَبَرَكَتْ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا هَذا بعَادَةٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابسُ الفِيْلِ ".
وَدَعَا عُمَرَ رضي الله عنه لِيُرْسِلَهُ إلَى أهْلِ مَكَّةَ ، فَيَأْذنُوا لَهُ بأَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ وَيُحِلَّ مِنْ عُمْرَتِهِ وَيَنْحَرَ هَدْيَهُ ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَا لِي بهَا حَمِيمٌ وَلَيْسَ بمَكَّةَ مِنْ بَنِي عَدِيُّ بْنُ كَعْبٍ يَمْنَعُنِي ، وَإنِّي أخَافُ قُرَيْشَ عَلَى نَفْسِي لأَنَّهَا قَدْ عَلِمَتْ عَدَاوَتِي إيَّاهَا ، وَلَكِنْ أدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ أعَزُّ بهَا مِنِّي

عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ ، قالَ : " صَدَقْتَ ". فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عُثْمَانَ بْنُ عَفَّانٍ فَأَرْسَلَهُ. فَجَاءَ الشَّيْطَانُ وَصَاحَ فِي عَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : بأَنَّ أَهْلَ مَكَّة قَتَلُواْ عُثْمَانَ ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الشَّجَرَةِ فَاسْتَنَدَ إِلَيْهَا ، وَبَايَعَ النَّاسَ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ مَكَّةَ.

قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَعْقِلٍ : كُنْتُ قَائِماً عَلَى رَأسِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذلِكَ الْيَوْمَ ، وَبِيَدِي غُصْنٌ مِنَ الشَّجَرَةِ أذبُّ بِهِ عَنْهُ وَهُوَ يُبَايِعُ النَّاسَ ، كَانَ أَوَّلُ مَنْ بَايَعَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهُ أَبُو سِنَانِ بْنِ وَهَبٍ ".

واختلَفُوا في عددِ أهلِ البيعة ، فقال قتادةُ : (كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً) ، وقال ابنُ عبَّاس : (كَانُوا ألْفاً وَخَمْسَمِائَةٍ وَخَمْسَةً وَعِشْرِينَ) ، وقال جابرُ : (كَانُوا ألفاً وَأَرْبَعَمِائَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ } ؛ أي فعَلِمَ اللهُ ما في قلوبهم من الصِّدق والوفاءِ والإخلاصِ والعزمِ على القتال ، { فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ } ؛ يعني الطُّمَأنِينَةَ والصبرَ والرضا حين بايَعُوا على أن يُقاتِلوا ولا يفِرُّوا ، { وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً } ؛ أي وأعطَاهم فتحَ خيبرَ.

(٠/٠)

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا } ؛ معناهُ : ومغانِمَ كثيرةً يأخذُونَها من أموالِ يهود خيبرَ ، وكانت خيبرُ ذات عقارٍ وأموالٍ ، { وَكَان اللَّهُ عَزِيزاً } ؛ أي غَالباً ، { حَكِيماً } ؛ في أمرِهِ ، حكَمَ لهم بالغنيمةِ ، ولأهلِ خيبرَ بالسَّبي والهزيمةِ.

وعن أنسٍ رضي الله عنه : " وأنَا رَدِيفَ أبي طَلْحَةَ يَوْمَ أَتَيْنَا إِلَى خَيْبَرَ ، فَصَبَّحَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ أَخَذُواْ مَسَاحِيهِمْ وَفُؤُسَهُمْ وَغَدَوا عَلَى حُرُوثِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْنَا أَلْقَواْ ما بِأَيْدِيهِمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " اللهُ أَكْبَرُ ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إِنَّا إذا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ " ".

وعن عبدِاللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أبيهِ قَالَ : " خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى خَيْبَرَ ، سَرَيْنَا لَيْلاً وَعَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ مَعَنَا وَكَانَ شَاعِراً ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَلاَ تُسْمِعُنَا يَا عَامِرُ ، فَنَزَلَ يَحْدُوا بِالْقَوْمِ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ : " اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَاهُمُ الَّذِينَ بَغَواْ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مِنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَافَاغْفِرْ بِفَضْلِكَ مَا أَتَيْنَا وَثَبِتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَاوَأَلْقِيَنَّ السَّكِينَةَ عَلَيْنَا " قَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ هَذا ؟ " قَالُوا : عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ ، قَالَ : " قَدْ غَفَرَ لَكَ رَبُّكَ يَا عَامِرُ " فَقَالَ رَجُلٌ : لَوْ أَمْتَعْتَنَا بِهِ يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم). وإنما قالَ ذلكَ ؛ لأنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ما

استغفرَ لرجُلٍ قطُّ إلاَّ استُشهِدَ.
قالَ : (فَلَمَّا قَدِمْنَا خَيْبَرَ وَتَصَافَّ الْقَوْمُ ، خَرَجَ يَهُودِيٌّ فَخَرَجَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ وَهُوَ يَقُولُ : " قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرُ شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُغَامِرُ " وَاخْتَلَفَا بضَرْبَتَيْنِ ، فَوَقَعَ سَيْفُ الْيَهُودِيِّ فِي تِرْسِ عَامِرٍ ، وَوَقَعَ سَيْفُ عَامِرٍ عَلَى رُكْبَةِ نَفْسِهِ وَسَاقِهِ فَمَاتَ مِنْهَا. قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ : فَمَرَرْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ : بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَأَنَا أَبْكِي فَأَخْبَرْتُهُ بذلِكَ ، فَقَالَ : "كَذبَ مَنْ قَالَ ذلِكَ ، بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ".
ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلِيّاً رضي الله عنه وَكَانَ حِيْنَئِذٍ أَرْمَدَ قَدْ عَصَبَ عَيْنَهُ بشِقِّ بُرْدٍ ، قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ : فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَا لَكَ يَا عَلِيُّ ؟ " قَالَ : رَمَدْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : " أُدْنُ مِنِّي " فَدَنَا مِنْهُ ، فَتَفَلَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرِئَ مِنْ سَاعَتِهِ ، وَمَا وُجِعَتْ عَيْنَاهُ بَعْدَ ذلِكَ أَبَداً حَتَّى مَضَى سَبِيلُهُ. ثُمَّ أَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الرَّايَةَ فَهَدَى بهَا وَعَلَيْهِ حُلَّةُ أُرْجُوَانٍ حَمْرَاءُ ، فَأَتَى مَدِينَةَ خَيْبَرَ ، فَخَرَجَ مَرْحَبُ صَاحِبُ الْحِصْنِ وَعَلَيْهِ مِغْفَرٌ وَحَجَرٌ قَدْ ثَقَبَهُ مِثْلَ الْبَيْضَةِ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ : "

(٠/٠)

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا } ؛ أي وعدكم اللهُ في المستقبلِ من زمانٍ غنائمَ كثيرةً تأخُذونَها ، قال مقاتلُ : (مَنْ قَاتَلَ مَعَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَمَنْ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) { فَعَجَّلَ لَكُمْ هَاذِهِ } ؛ يعني غنيمةَ خيبر ، { وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ } ؛ أي مَنَعَ أسَداً وغطفانَ من قتالِكم ، وكانوا حُلفاء لأهلِ خيبرَ ، وذلك أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا قَصَدَ خَيْبَرَ وَحَاصَرَ أَهْلَهَا ، هَمَّتْ قَبَائِلُ مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ أَنْ يُغِيرُواْ عَلَى عِيَالِ الْمُسْلِمِينَ وَذرَارِيهِمْ بالْمَدِينَةِ ، فَكَفَّ اللهُ أَيْدِيَهُمْ بإِلْقَاءِ الرُّعْب فِي قُلُوبِهِمْ.
وقولهُ تعالى : { وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي ولتكون غنيمةُ خيبرَ دلالةً على المؤمنين على صدقِكَ يا مُحَمَّدُ ، حيث إنَّ اللهَ تعالى أخبرَ أنَّهم يُصيبونَها في المستقبلِ ، ثم وجدَ المخبر على وفق الخبر ، وقولهُ تعالى : { وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً } ؛ أي ويُثبِّتكم على دينِ الإسلامِ ، ويُرشِدكم إلى الأدلَّة في الدينِ.

(٠/٠)

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا } ؛ أي وعدَكم فتحَ بلدةٍ أُخرى لم يقدِرُوا عليها الآن ، { قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا } ؛ يفتَحُها عليكم ، قال الفرَّاءُ : (حَفِظَهَا لَكُمْ وَمَنَعَهَا مِنْ غَيْرِكُمْ حَتَّى يَفْتَحَهَا لَكُمْ). واختلَفُوا فيها ، فقالَ ابنُ عبَّاس وابن أبي ليلى والحسن ومقاتل : (هِيَ فَارِسُ وَالرُّومُ) وَكَانَتِ الْعَرَبُ لاَ تَقْدِرُ عَلَى قِتَالِ فَارِسَ وَالرُّومَ ، وَفَتْحِ مَدَائِنِهَا حَتَّى قَدِرُواْ عَلَيْهَا بالإسْلاَمِ. وقال قتادةُ : (هِيَ مَكَّةُ) ، وقال عكرمةُ : (هِيَ خَيْبَرُ). وقولهُ تعالى { قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا } أي أحاطَتْ قدرتهُ بها وبأهلِها ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً } ؛ كلِّ شيءٍ من فتحِ القُرى والنصرِ وغير ذلك قديرٌ.

(٠/٠)

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ الأَدْبَارَ } ؛ يعني أسَداً وغطفانَ الذين أرَادُوا نَهب ذراري المسلمين فانْهَزَمُوا عنكم لأنَّ الله ينصرُكم عليهم ، { ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً } ؛ قال ابنُ عباس : (مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ اللهِ خَذلَهُ اللهُ وَلَمْ يَنْصُرْهُ).

(٠/٠)

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ } ؛ أي سُنة اللهِ التي قد خلَتْ من قبلُ في نَصرِ أوليائهِ وقهرِ أعدائه ؛ أي هذه سُنَّتي في أهلِ طاعةٍ وأهلِ معصية أنصُر أوليائي وأخذلُ أعدائي ، { وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ } ؛ لحكمِ الله ، { تَبْدِيلاً } ؛ تغييراً.

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ } ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى منعَ أيدِي أهلِ مكَّة يومَ الحديبيةِ عن قتالِ المسلمين بالرُّعب ، ومنعَ أيدينا عن قتالِهم بالنَّهي.

وَقِيْلَ : إنَّ المؤمنين لم يُنهَوا عن قتالِهم يومئذٍ ، ولكن لم يقدِّرْ الله ذلك للمؤمنين إبقاءً للمؤمنين المستضعَفين الذين كانوا في أيدِي المشركين كما قال تعالى : { وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ }.

وقولهُ تعالى : { مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ } ، قال أنسُ رضي الله عنه : (وَذلِكَ أنَّ ثَمَانِينَ رَجُلاً مِنْ أهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ مِنْ جَبلِ التَّنْعِيمِ عِنْدَ صَلاَةِ الْفَجْرِ مُتَسَلِّحِينَ ، يُرِيدُونَ غِرَّةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ، فَأَخَذهُمْ رَسُولُ اللهِ وَأعْتَقَهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ) { وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ }.

وقال ابنُ عبَّاس : (بَعَثَتْ قُرَيْشُ أرْبَعِينَ رَجُلاً أوْ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنْهُمْ ، وَأمَرُوهُمْ أنْ يَطُوفُواْ بعَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ لِيُصِيبُوا لَهُمْ مِنْ أصْحَابِهِ أحَداً ، فَأُخِذُواْ فَأُتِيَ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ، فَعَفَا عَنْهُمْ وَخَلَّى سَبِيلَهُمْ ، وَقَدْ كَانُوا رَمَوا فِي عَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ بالْحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). { هُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ } أي هم الذين كفَرُوا بمُحَمَّدٍ والقرآنِ ، يعني كفَّارَ مكة ، وصَدُّوكم عن المسجدِ الحرام أن تطُوفوا به للعُمرة ويحلوا من عمرتِكم.

وقولهُ تعالى { وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً } أي وصَدُّوا الهديَ مَمْنُوعاً أن يبلغَ مَحِلَّهُ الذي إذا صارَ إليه حلَّ نحرهُ وهو الحرمُ ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم ساقَ في ذلك العام سَبعين بَدْنَةً إلى مكَّة. { مَعْكُوفاً } في اللغة هو الممنوعُ عن الذهاب في جهته بالإقامةِ في مكانه ، يقالُ : عَكَفَ على الأمر عكوفاً ، واعْتَكَفَ في المسجدِ إذا أقامَ به.

ومعنى الآيةِ : هم الذين كفَرُوا وصدُّوكم عن المسجدِ الحرام ، وصدُّوا الهديَ وهي البُدْنُ التي ساقَها

رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وكانت سَبعين بَدْنَةً معكوفاً أي مَحْبُوساً أن يبلُغَ مَحِلَّهُ أي مسجدَهُ ، وهذه الآيةُ دلالةٌ على أن محِلَّ الهدي الحرمُ ، ولو كان محلهُ غيرُ الحرمِ لَمَا كان مَعْكُوفاً عن بلوغِ محلِّه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ } ؛ معناهُ : ولو تطَأُوا رجالاً مُؤمِنين ونساءً مُؤمِنات مُقِيمَات بمكَّة لم تعلَمُوهم فتقتلوهم ، { فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ } ؛ قِبَلَهم ، { مَّعَرَّةٌ } ؛ أي عَيْبٌ ومسَبَّة في العرب بأنَّكم قتَلتُم أهلَ دينِكم ، ويقالُ : أراد بالْمَعَرَّةِ الغَمَّ والجزعَ. وجوابُ (لَوْلاَ) محذوفٌ تقديرهُ : لولا ذلك لدَخلتُم على أهلِ مكَّة ولوطأتموهم لَيْلاً ولضَربتُم رقابَ المشركين بنَصرِنا إيَّاكم ، ولكنَّ اللهَ منعَ من ذلك كراهةَ وطئِ المؤمنين المستضعَفين الذين كانوا بمكَّة ، والمؤمناتِ بالقتلِ لأنَّهم لو دخَلُوا مكَّة لم يتميَّز لهم المؤمنون من الكفَّار ، فلم يأْمَنوا أن يَقتُلوا المؤمنين.

(٠/٠)

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ } قال مقاتلُ : (إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا قَدِمَ الْحُدَيْبِيَةَ وَمَعَهُ الْهَدْيُ ، قَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ : قَتَلَ مُحَمَّدٌ أَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا ، ثُمَّ أَتَانَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا فِي مَنَازِلِنَا ، فَتُحَدِّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَيْنَا عَلَى رَغْمِ آنَافِنَا ، واللاَّتِ وَالعُزَّى لاَ يَدْخُلُ عَلَيْنَا. فَهَذِهِ الْحَمِيَّةُ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي دَخَلَتْ قُلُوبَهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ } ؛ حتى لم يدخُلوا ، { وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى } ؛ وهو كلمةُ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ ، الكلمةُ التي يُتَّقَى بها من الشِّرك.

والحميَّةُ في اللغة : هي الأَنَفَةُ التي تَحمِي الإنسانِ كأنَّ قُلوبَهم حَمِيَّةٌ لِمَعصِيَةِ اللهِ ، فأنزلَ اللهُ بدلُّ ذلك على قلب نَبيِّهِ عليه السلام وعلى قلوب المؤمنين من الطُّمأنينةِ والسُّكون والوقَار والهيبةِ ، وألزَمَهم توحيدَ اللهِ والإيمان برسولِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا } ؛ أي كانُوا أحَقَّ بكلمةِ التوحيد من كفَّار مكَّة وكانوا أهلَها في علمِ الله تعالى مستحقِّين لها في الدُّنيا ، { وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ } ؛ من أمرِهم ، { عَلِيماً }.

وعن وعثمانِ بن عفان رضي الله عنه قال : " سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا عَبْدٌ حَقّاً مِنْ قَلْبِهِ إلاَّ حَرَمَهُ عَلَى النَّار " ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : (أنَا أُحَدِّثُكَ بهَا ، هِيَ كَلِمَةُ الإخْلاَصِ الَّتِي أَلْزَمَهَا اللهُ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ وَهِيَ كَلِمَةُ التَّقْوَى).

وقال عطاءُ الخراساني : (هِيَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ). وعن عليٍّ رضي الله عنه أنْ سُئِلَ عَنْ كَلِمَةِ التَّقْوَى فَقَالَ : (هِيَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَاللهُ أكْبَرُ) ، وهو قولُ ابنِ عمر. وقال عطاءُ بن رَباح : (هِيَ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وَقِيْلَ : إنَّ الْحَمِيَّةَ التي جعلَها الكفارُ في قلوبهم ، هي مَا رُوي : " أنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا سَأَلُواْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَكْتُبَ لَهُمْ بكِتَاب الصُّلْحِ ، قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : " أكْتُبْ : بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : أمَّا الرَّحْمَنُ فَلاَ نَدْري مَا هُوَ ، وَلَكِنِ اكْتُبْ : باسْمِكَ اللَّهُمَّ ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : وَاللهِ لاَ يَكْتُبُهَا إلاَّ بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم لِعَلِيٍّ : " أُكْتُبْ : باسْمِكَ اللَّهُمَّ ، ثُمَّ اكْتُبْ : هَذا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ". فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو : وَاللهِ لَوْ نَعْلَمُ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلاَ قَاتَلْنَاكَ ، لَكِنِ اكْتُبْ باسْمِكَ وَاسْمِ أبيكَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَلَقَدْ كَذبْتُمُونِي ".

وَقَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : " أمْحُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم " فَـقَالَ عَلِيٌّ : لاَ أمْحُوكَ يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَمَحَاهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ قَالَ : " أكْتُبْ : هَذا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ سُهَيْلَ ابْنَ عَمْرٍو عَلَى وَضْعِ الْحَرْب بَيْنَ النَّاسِ بكَفٍّ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ ، عَلَى أنَّهُ مَنْ قَدِمَ مَكَّةَ مِنْ أصْحَاب مُحَمَّدٍ حَاجّاً أوْ مُعْتَمِراً أوْ يَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللهِ فَهُوَ آمِنٌ عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ. وَمَنْ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ قُرَيْشٍ مُجْتَازاً إلَى مِصْرَ أو الشَّامِ فَهُوَ آمِنٌ عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ " ".

(٠/٠)

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ } ؛ وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَأى فِي الْمَنَامِ وَهُوَ بالْمَدِينَةِ قَبْلَ أنْ يَخْرُجَ إلَى الْحُدَيْبِيَةِ كَأَنَّهُ هُوَ وَأصْحَابُهُ حَلَقُواْ وَقَصَّرُواْ ، فَأَخْبَرَ بذلِكَ أصْحَابَهُ فَفَرِحُوا وَحَسِبوا أنَّهُمْ دَاخِلُوا مَكَّةَ عَامَهُمْ ذلِكَ ، وَقَالُواْ : إنَّ رُؤْيَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم حَقٌّ.

فَلَمَّا رَجَعَ وَأصْحَابُهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ وَلَمْ يَدْخُلُواْ مَكَّةَ ، قَالَ الْمُنَافِقُونَ : وَاللهِ مَا حَلَقْنَا وَلاَ قَصَّرْنَا وَلاَ دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. فأنزلَ اللهُ الآيةَ وأخبرَ أنه أرَى رسولَ الله الصِّدقَ في منامهِ ، وأنَّهم يدخلونَهُ فقالَ اللهُ : { لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ } ؛ يعني العامَ المقبل ، { إِن شَآءَ اللَّهُ } ؛ قال أبو عُبيدة : (إنَّ مَعْنَى : إنْ

شَاءَ اللهُ) حَيْثُ أُرِيَ رَسُولَ اللهِ فِي الْمَنَامِ. وقال أبو العبَّاس أحمدُ بن يحيى : (اسْتَثْنَى اللهُ فِيْمَا يَعْلَمُ ، لِيَسْتَثْنِي الْخَلْقُ فِيْمَا لاَ يَعْلَمُونَ).

وَقِيْلَ : معناهُ : بمشيئةِ اللهِ ، وقال بعضُهم : هذا اللفظُ حكايةُ الرُّؤيا التي رَآها النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنَّهُ رأى في المنامِ أنَّ ملَكاً يُنادي : { لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ }.

وَقِيْلَ : إنما كان ذلك تَأدِيباً للعبادِ ليَدخُلوا كلمةَ الاستثناءِ فيما يُخبرونَ عنه في المستقبلِ من نفيٍ وإثبات ، قوله : { آمِنِينَ } ؛ أي آمِنين من العدوِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ } ؛ قَريباً أنَّهم يدخُلون مكَّة إلى أنْ يبلُغوا آخرَ النُّسُكِ ، { لاَ تَخَافُونَ } ؛ العدوَّ ، بخلافِ عامِ الحديبية. فيه دليلٌ أن الحلقَ والتقصيرَ قُرْبَةٌ في الإحرامِ من حيث إن الإحلالَ يقعُ بهما ، وفيه دليلٌ أن المحرِمَ بالخيار عند التحليلِ من الإحرام إنْ شاءَ حَلَقَ وإنْ شاء قصَّرَ. وفي الحديثِ : " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دَعَا لِلْمُحَلِّقِينَ ثَلاَثاً ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ مَرَّةً ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ تَخَافُونَ } أي لا تخافُون من المشركين ، { فَعَلِمَ } ؛ اللهُ ما في تأخيرِ الدُّخول عامَ الحديبيةِ من الخير والصَّلاحِ ، { مَا لَمْ تَعْلَمُواْ } ؛ أنتم ، { فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ } ؛ أي من قبلِ الدُّخول ، { فَتْحاً قَرِيباً } ؛ يعني فتحَ خيبر.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } ؛ أي أرسلَ رسولَهُ بالطريقِ المؤدِّي إلى الجنَّة ودينِ الإسلامِ ليُظهِرَ دينَ الإسلامِ على الأديانِ كُلِّها بالحجَّة والغلَبَة ، { وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } ؛ على نبُوَّتكَ ورسالتكَ إنْ لم يشهَدْ سُهَيلُ وأمثالهُ.

(٠/٠)

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ } ؛ هذا مبتدأ وخبرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ } ؛ أي والَّذين معَهُ من المؤمنينِ أشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّار ، غِلاَظٌ عليهم ، والأشِدَّاءُ جمعُ الشَّديدِ ، وهو قويٌّ في دينِ الله تعالى ، القويُّ على أعداءِ الله ، كانوا لا يَمِيلُونَ إلى الكفَّار لقَرابَةٍ ولا غيرِها ، بل أظهَرُوا لهم العداوةَ في الدينِ ، وكانوا على الكفَّار كالأَسَدِ على فرسهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ } ؛ أي مُتَوادِدُون فيما بينَهم ، مُتعَاطِفُون حتى أنَّهم كانوا بعضَهم لبعضٍ كالوالدِ لولدهِ ، والعبدِ لسيِّدهِ ، وقولهُ تعالى : { تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً } ؛ أي رَاكعين وساجِدين يُكثرون الصلاةَ للهِ ، { يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً } ؛ يعني الجنَّةَ ، ورضَى اللهِ تعالى.

قولهُ : { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ } ؛ أي علامةُ التهَجُّد ظاهرةٌ على وجوهِهم من كَثرَةِ السُّجود بالليلِ ، والمعنى يتبيَّن في وُجوهِهم أثرُ السَّهَرِ ، قال الضحَّاك : (إذا سَهِرَ أصْبَحَ مُصْفَرّاً) وقال عطيَّةُ : (مَوَاضِعُ السُّجُودِ أشَدُّ بَيَاضاً فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ). وقال مجاهدُ : (يَعْنِي الأَثَرُ : الْخُشُوعُ وَالتَّوَاضُعُ وَالسَّمْتُ الْحَسَنُ). وقال عكرمةُ : (هُوَ التُّرَابُ عَلَى الْجِبَاهِ لأَنَّهُمْ يَسْجُدُونَ عَلَى التُّرَاب لاَ عَلَى الثِّياب).

وقال الحسنُ في وصفِهم : (إذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ مَرْضَى ، وَمَا بالْقَوْمِ مَرَضٌ ، وَيَقُولُ : لَعَلَّهُمْ خُولِطُواْ فِي عُقُولِهِمْ ، وَاللهِ لَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ). يريدُ بذلك ما في قلوبهم من خوفِ الآخرةِ.

وقال بعضُهم : { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ } هو نورٌ يجعلهُ الله في وجوهِهم يومَ القيامةِ ، يُعرَفون بتلك العلامةِ أنَّهم سجَدُوا في الدُّنيا كما قالَ اللهُ{ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ }[آل عمران : ١٠٦] ، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " تُحْشَرُ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَار الْوُضُوءِ ".

وقال منصورُ : (سَأَلْتُ مُجَاهِدَ عَنْ قَوْلِهِ : { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ } قَالَ : لَيْسَ هُوَ الأَثَرُ الَّذِي يَكُونُ فِي جَبْهَةِ الرَّجُلِ مِثْلَ رُكْبَةِ الْبَعِيرِ ، فَقَدْ يَكُونُ ذلِكَ برَجُلٍ هُوَ أقْسَى قَلْباً مِنَ الْحِجَارَةِ ، وَلَكِنْ هُوَ نُورٌ فِي وُجُوهِهِمْ مِنَ الْخُشُوعِ). وقال ابن جُريج : (هُوَ الْوَقَارُ) ، وقال سَمُرة : (هُوَ الْبَهَاءُ) ، وقال سفيانُ : (يُصَلُّونَ باللَّيْلِ ، فَإذا أصْبَحُوا عُرِفَ ذلِكَ فِي وُجُوهِهِمْ ؛ بيانهُ قولهُ عليه السلام : " مَنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ باللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بالنَّهَار " ورُوي في بعضِ الأخبار : " أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا نَارُ أنْضِجِي ، يَا نَارُ أحْرِقِي وَمَوْضِعَ السُّجُودِ لاَ تقرَبِي ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ } ؛ أي ذلك الَّذي ذكرَهُ في القرآنِ مَن وصفَهم هو ما وُصِفوا به في التَّوراةِ ، { وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ } ؛ أيضاً ، ثم ذكَرَ اللهُ وَصْفَهم في الإنجيلِ : { كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ } ؛ أي سبيلَهُ ، وقال ابنُ زيدٍ : (أوْلاَدَهُ). والشَّطْأُ : فِرَاخُ الزَّرعِ ، يقالُ : الشَّطْأُ الزَّرْعُ أنْ يُخْرِجَ سَبْعاً أو ثَمَانياً أو عَشْراً ، وهذا مثَلٌ ضربَهُ اللهُ لأصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، يعني أنَّهم يكُونون قَليلاً ثم يَزدَادون ويَكثَرون ويَقْوَوْنَ ، قال قتادةُ : (مَكْتُوبٌ فِي الإنْجِيلِ : أنَّهُ سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَنْبُتُونَ نَبَاتَ الزَّرْعِ ، يَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } ؛ أي لا تقطَعُوا أمراً دونَ اللهِ ورسولِهِ ، ولا تعجَلُوا بِهِ ، وقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في قولِهِ { لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } : (أيْ تَصُومُواْ قَبْلَ أنْ يَصُومَ نَبيُّكُمْ صلى الله عليه وسلم) { وَاتَّقُواْ اللَّهَ } ؛ في تَضييعِ حقِّه ومخالفةِ أمرِهِ ، { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ } ؛ لأقوالِكم ، { عَلِيمٌ } ؛ بأفعالِكم ، وقال جابرٍ (نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } فِي النَّهْيِ عَنِ الذبْحِ يَوْمَ الأَضْحَى قَبْلَ الصَّلاَةِ).

وقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : " نَزَلْنَ فِي النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الشُّكِّ) ، وعن مسروقٍ قالَ : (دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي يَوْمِ الشُّكِّ ، فَقَالَتْ لِلْجَارِيَةِ : اسْقِيهِ ، فَقُلْتُ : إنِّي صَائِمٌ ، فَقَالَتْ : قَدْ نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ صَوْمِ هَذا الْيَوْمِ ، وَفِيْهِ نَزَلَ { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ }.

وعن الحسنِ البصريِّ قال : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الذبْحِ يَوْمَ الأَضْحَى ، كَأَنَّهُ قَالَ : لاَ تَذْبَحُواْ قَبْلَ ذبْحِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وَذلِكَ أنَّ نَاساً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ذبَحُواْ قَبْلَ صَلاَةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : فَأَمَرَهُمْ أنْ يُعِيدُواْ الذبْحَ).

وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه قال : (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ : " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ رَهْطاً مِنْ أصْحَابِهِ وَهُمْ سَبْعٌ وَعُشْرُونَ رَجُلاً ، وَأمَّرَ عَلَيْهِمُ الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرٍو ، وَأمَرَهُمْ أنْ يَسِيرُوا إلَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ ، وَأنْ يَمُرُّواْ عَلَى بَنِي سُلَيْمٍ ، فَبَاتُوا عِنْدَهُمْ ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الرَّحِيلِ ، أضَلَّ أرْبَعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعِيراً لَهُمْ ، فَاسْتَأْذنُوا الْمُنْذِرَ أنْ يَتَخَلَّفُواْ عَنْهُ حَتَّى يَطْلُبُوهُ ، فَأَذِنَ لَهُمْ.

وَسَارَ الْمُنْذِرُ بمَنْ بَقِيَ مَعَهُ ، وَكَانَتْ بَنُوا سُلَيْمٍ دَسَّتْ إلَى بَنِي عَامِرٍ خَبَرَ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَاسْتَعَدُّواْ لِقِتَالِهِمْ وَاجْتَمَعُواْ لَهُمْ ، فَسَارَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى بئْرِ مَعُونَةَ ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً وَقُتِلَ الْمُنْذِرُ وَأصْحَابُهُ ، وَقُتِلَ أحَدُ الأَرْبَعَةِ وَرَجَعَ الثَّلاَثَةُ إلَى الْمَدِينَةِ ، فَلَقُوا رَجُلَيْنِ خَارِجَيْنِ مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالُواْ : مِمَّا أنْتُمَا ؟ فَقَالاَ : مِنْ بَنِي عَامِرٍ ، فَقَالُواْ : إنَّهُمَا مِنْ عَدُوِّنَا ، فَقَتَلُوهُمَا وَأخَذوْا سَلْبَهُمَا.

وَجَاءُوا إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَذكَرُوا لَهُ الْقِصَّةَ ، فَقَالَ لَهُمْ صلى الله عليه وسلم : " بئْسَمَا فَعَلْتُمْ ، إنَّهُمَا مِنْ أهْلِ مِيثَاقِي مَنْ بَنِي سُلَيْمٍ ، وَهَذا الَّذِي مَعَكُمْ مِنْ سَلْبِهِمَا مِنْ كِسْوَتِي ".

وَجَاءَ السُّلَيْمِيُّونَ يَطْلُبُونَ الْقَوَدَ ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبيُّ صلى الله عليه سلم : " إنَّ صَاحِبَيْكُمْ اعْتَزَمَا إلَى عَدُوِّنَا ، فَلاَ قَوَدَ فِيهِمَا وَلَكِنَّا نُؤَدِّي إلَيْكُمُ الدِّيَةَ " فَأَمَرَ عليه السلام أنْ تُقْسَمَ دِيَتَهُمَا عَلَى أهْلِ مِيثَاقِهِ

، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ) ".

والمعنى : لا تُقدِّموا بقولٍ ولا فعلٍ حتى يكون النبيُّ صلى الله عليه وسلم هو الذي يأمُركم في ذلك.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ } ؛ رُوِي : " أنَّ رَهْطاً مِنْ بَنِي تَمِيمٍ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، مِنْهُمُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ وَعُطَارِدُ ابْنُ الْحَاجِب وَالْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو وَغَيْرُهُمْ ، فَقَامُوا عَلَى بَاب الْمَسْجِدِ ، فَنَادَى الأَقْرَعُ ابْنُ حَابِسٍ : يَا مُحَمَّدُ أَتَأْذَنُ لِي فِي الْكَلاَمِ ؟ فَوَاللهِ إنَّ حَمْدِي لَزَيْنٌ وَذمِّي لَشَيْنٌ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : "كَذبْتَ! ذلِكُمُ اللهُ تَعَالَى ".

ثُمَّ أذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُواْ ، فَقَالَ : " يَا مُحَمَّدُ أتَأْذنُ لِخَطِيبنَا ؟ " فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أُدْعُوا إلَيَّ ثَابتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ " فَدُعِيَ لَهُ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لِيَتَكَلَّمْ صَاحِبُكُمْ " فَتَكَلَّمَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : " أجِبْ يَا ثَابتَ " فَأَجَابَهُ.

فَقَالَ الأَقْرَعُ : " إئْذنْ لِشَاعِرِنَا يَا مُحَمَّدُ " فَقَالَ عليه السلام : " أُدْعُوا إلَيَّ الْقَارِعَةَ " يَعْنِي حَسَّانَ ، فَلَمَّا جَاءَ حَسَّانُ قَالَ صلى الله عليه وسلم : " لِيَتَكَلَّمْ شَاعِرُكُمْ " فَلَمَّا تَكَلَّمَ ، قَالَ صلى الله عليه وسلم : " أجِبْهُ يَا حَسَّانُ " فَأَجَابَهُ ، فَقَالَ عُطَارِدُ لِلأَقْرَعِ : وَاللهِ إنَّ مُحَمَّداً الْمُؤَتَى لَهُ – أيْ أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ – فَإنَّ خَطِيبَهُ أخْطَبُ مِنْ خَطِيبنَا ، وَشَاعِرُهُ أشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا.

وَعَلَتِ الأَصْوَاتُ وَكَثُرَ اللَّغَطُ ، وَكَانَ أشَدَّهُمْ صَوْتاً وَأعْلاَهُمْ ثَابتُ بْنُ قَيْسٍ ، وَكَانَ بِهِ صَمَمٌ لاَ يَكَادُ يَسْمَعُ إلاَّ أنْ يُصَاحَ بِهِ فَيُجِيبُ بِمِثْلِهِ. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ، ونُهوا أن يَرفَعُوا أصواتَهم على صوتِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم تَعظِيماً له ؛ لأن رفعَ الصَّوت على الإنسانِ يُوهِمُ الاستخفافَ به في ظاهرِ الحال ".

وعن جابرِ بن عبدِالله قال : " لَمَّا جَاءَ بَنُو تَمِيمٍ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَنَادَوا عَلَى الْبَاب : أُخْرُجْ يَا مُحَمَّدُ ؛ فَإنَّ مَدْحَنَا زَيْنٌ وَذمَّنَا شَيْنٌ ، قَالَ : فَخَرَجَ إلَيْهِمْ وَقَالَ : " إنَّمَا ذلِكُمُ اللهُ الَّذِي مَدْحُهُ زَيْنٌ وَذمُّهُ شَيْنٌ " قَالُوا : نَحْنُ أُنَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، جِئْنَا بشَاعِرِنَا وَخَطِيبنَا لِشَاعِرِكُمْ وَنُفَاخِرُكَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا بالشِّعْرِ بُعِثْتُ وَلاَ بالْفَخَار أُمِرْتُ ، وَلَكِنْ هَاتُوا ". فَقَالَ : لِشَابٍّ مِنْ شَبَابِهِمْ : قُمْ يَا فُلاَنُ فَاذْكُرْ فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ ، فَقَامَ فَقَالَ :

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنَا خَيْرَ خَلْقِهِ ، وَآتَانَا أمْوَالاً نَفْعَلُ فِيْهَا مَا نَشَاءَ ، فَنَحْنُ مِنْ خَيْرِ أهْلِ الأَرْضِ وَأكْثَرِهِمْ عُدَّةً وَسِلاَحاً وَمَالاً ، فَمَنْ أنْكَرَ عَلَيْنَا قَوْلَنَا فَلْيَأْتِ بقَوْلٍ هُوَ أحْسَنُ مِنْ قَوْلِنَا ، وَفِعَالٍ هِيَ خَيْرٌ مِنْ فِعَالِنَا.

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم لثابتِ بن قَيسٍ ، وَكَانَ خَطِيبَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " قُمْ " فَقَامَ فَقَالَ : الْحَمْدُ للهِ أحْمَدُهُ وَأسْتَعِينُهُ وَأُؤْمِنُ بِهِ وَأتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ، وَأشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، دَعَا الْمُهَاجِرِينَ مِنْ بَنِي عَمِّهِ أحْسَنَ النَّاسِ وُجُوهاً فَأَعْظَمَهُمْ أخْلاَقاً فَأَجَابُوهُ ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنَا أنْصَارَهُ ، وَرَدَّ اللهُ لِرَسُولِهِ وَعَزَّ الْمَدِينَةَ. فَنَحْنُ نُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُواْ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ، وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، فَمَنْ قَالَهَا مَنَعَ مِنَّا مَالَهُ وَنَفْسَهُ ، وَمَنْ أبَاهَا قَتَلْنَاهُ ، وَكَانَ قَتْلُهُ فِي اللهِ عَلَيْنَا هَيِّناً ، أقُولُ قَوْلِي وَأسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

فَقَالُواْ لِشَابٍّ مِنْهُمْ : قُمْ يَا فُلاَنُ فَقُلْ أبْيَاتاً تَذْكُرُ فِيْهَا فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ ، فَقَامَ الشَّابُّ وَقَالَ : "

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى } ؛ أي أخلصَها واصطفَاها واختبرهَا ، كما يُمتحَنُ الذهبُ بالنار فيخرجُ خَالصاً ، وقال ابنُ عبَّاس : " مَعْنَاهُ : أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أكْرَمَ اللهُ قُلُوبَهُمْ). وَقِيْلَ : أذهبَ الشهواتِ عنها.

قال الزجَّاجُ : أمَرَ اللهُ بتَبْجِيلِ نَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم وَأنْ يَغُضُّواْ أبْصَارَهُمْ عِنْدَمَا يُخَاطَبُونَ بالسَّكِينَةِ وَالْوَقَار ؛ لِئَلاَّ تَحْبَطَ أعْمَالُهُمْ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فلذلك قال : فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْيَمَامَةِ فِي حَرْب مُسَيْلَمَةَ ، قَاتَلَ ثَابتُ بْنُ قَيْسٍ وَسَالِمُ مَوْلَى أبي حُذيْفَةَ قِتَالاً شَدِيداً حَتَّى قُتِلاَ ، وَاسْتُشْهِدَ ثَابتُ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ } الغَضُّ النَّقْصُ مِن كلِّ شيءٍ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ }[لقمان : ١٩] ، وقولهُ تعالى : { امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى } أي أخلَصَها للتَّقوى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } ؛ أي فِي الجنَّة.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } ؛ وذلك : أَنَّ قَوْماً مِنْ بَنِي الْعَنْبَرِ وَهُمْ حَيٌّ مِنْ تَمِيمٍ ، بَعَثَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَيْهِمْ سَرِيَّةً ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عُيَيْنَةُ بْنُ الْحُصَيْنِ الْفَزَّاريُّ ، فَهَرَبُوا فَسَبَى ذرَارِيهِمْ وَنِسَاءَهُمْ وَجَاءَ بِهِمْ إِلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَجَاءَ رجَالُهُمْ لِيُفَادُوا ذرَارِيهِمْ ، فَدَخَلُواْ الْمَدِينَةَ عِنْدَ الْقَيْلُولَةِ وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَائِمٌ.
فَلَمَّا أَبْصَرَهُمُ الْعِيَالُ بَكَوا عَلَيْهِمْ ، فَنَهَضُواْ وَعَجَّلُواْ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وَجَعَلُوا يُنَادُونَ : يَا مُحَمَّدُ اخْرُجْ إِلَيْنَا ، وَكَانَ صلى الله عليه وسلم حِينَئِذٍ نَائِماً ، فَتَأَذى بأَصْوَاتِهِمْ ، وَلَمْ يَعْلَمُوْا فِي أيِّ حُجْرَةٍ هُوَ ، فَجَعَلُواْ يَطْرِقُونَ عَلَى جَمِيعِ حُجُرَاتِهِ ، وَكَانَ لِكُلِّ امْرَأةٍ مِنْ نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حُجْرَةٌ وَبَيْتٌ ، فطَافُوا عَلَى جَمِيعِ الْحُجُرَاتِ وَهُمْ يُنَادُونَ : اخْرُجْ عَلَيْنَا.
وقولهُ تعالى : { أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } وصَفَهم اللهُ بالجهلِ وقلَّة العقلِ وقلَّة الصبرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ } ؛ يعني ولَو أنَّهم صبَرُوا حتى تخرجَ إليهم للصَّلاة لَخَلَّى سبيلَهم بغيرِ فداءٍ ، فلما نادَوهُ وأيقظوهُ أعتَقَ نصفَ ذرَاريهم وفادَى نِصفَهم بقوله تعالى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ } كُنتَ تَعِيقُ كُلَّهم ، { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ لِمَن تابَ منهم.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ } ؛ وذلك : " أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ مُصَدِّقاً إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أحَنَةٌ ، فَلَمَّا اتَّصَلَ خَبَرُهُ بِهِمْ وَسَمِعُواْ بِهِ اجْتَمَعُواْ لِيَتَلَقَّوهُ ، فَفَرَّ مِنْهُمْ وَكَرَّ رَاجِعاً إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : إِنَّهُمْ قَدْ مَنَعُواْ الزَّكَاةَ وَارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلاَمِ وَقَصَدُواْ قَتْلِي.
فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي جَيْشٍ ، وَقَالَ لَهُ : " انْزِلْ بِسَاحَتِهِمْ لَيْلاً ، فَإِنْ رَأَيْتَ مَا يَدُلُّ عَلَى الإِسْلاَمِ مِنَ الأَذَانِ لِلصَّلاَةِ وَالتَّهَجُّدِ أَمْسِكْ عَنْ مُحَارَبَتِهِمْ ، وَطَالِبْهُمْ بِصَدَقَاتِهِمْ ."

فَلَمَّا سَارَ إِلَيْهِمْ خَالِدُ لَيْلاً سَمِعَ فِيهِمْ الأَذانُ وَالتَّهَجُّدَ ، فَكَفَّ عَنْهُمْ إِلَى أنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ لاَ عَلَى وَجْهِ قِتَالٍ ، وَقُالُواْ : قَدِ اسْتَبْطَأْنَا رِسَالَةَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي الصَّدَقَاتِ ، فَسَلَّمُوهَا إِلَيْهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ ".

وسَمَّى الوليدَ بن عُقبة فَاسقاً ، لِكَذِبهِ الذي وقعَ به. الأغَرُّ أو الفاسقُ : الخارجُ عن طاعةٍ بارتكاب كثيرٍ من الذُّنوب. وَقِيْلَ : الفاسقُ الذي لا يَستَحِي من اللهِ. وَقِيْلَ : هو الكذابُ الْمُعلِنُ بالذنب. والنَّبأُ : الخبرُ عمَّا يَعظُمُ شأنهُ فيما يعملُ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَبَيَّنُواْ } ؛ قد ذكَرنا قِراءَتين فيه في سُورة النساءِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ } ؛ أي لِئَلا تُصيبوا قَوماً وهم مُسلمون ، { فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ }.

(٠/٠)

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ } معناهُ : إعْلَمُوا أنَّ رسولَ الله لو يُجِيبُكم في كثيرٍ مما سألتموهُ لوقَعتُم في العَنَتِ وهو الإثمُ والمشقَّة. وَقِيْلَ : اتَّقُوا أن تَكذِبُوا رسولَ اللهِ وتقولوا بَاطلاً ، فإنَّ اللهَ يخبرهُ فتُفتَضَحُوا ، ثم قال : لو يُطِيعُكم الرسولُ في كثيرٍ مما تُخبرونَهُ فيه بالباطلِ لَعَنِتُّمْ ؛ أي لوقَعتُم في العَنَتِ وهو الإثْمُ والهلاكُ.

ثم خاطبَ المؤمنين الذين لا يَكذِبُون فقالَ : { وَلَـاكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ } ؛ أي جعلَهُ أحبَّ الأديان إليكم ، { وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ } ؛ حتى اخترتُموهُ ، { وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ } ؛ أي بَغَّضَ إليكم هذه الأشياءَ : الكفرُ ظاهر المعنى ، والفُسُوق وَالكَذِبُ والخروجُ عن أمرِ الله ، والعصيانُ : جمعُ معاصِي الله.

ثم عادَ إلى الخبرِ عنهم فقال : { أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } ؛ أي المهتَدُون إلى محاسنِ الأمُور. ثم بيَّنَ أنَّ جميعَ ذلك تفضُّلٌ من اللهِ تعالى فقالَ : { فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً } ؛ أي تَفَضُّلاً مِن اللهِ ورحمةً ، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } ؛ بما في قُلوبهم ، { حَكِيمٌ } ؛ فيهم بعِلمِهِ.

(٠/٠)

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)

قوله : { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا } ؛ " نزلَ ذلك في الأَوْسِ والخزرَجِ بسبب الكلامِ الذي جرَى بين عبدِالله بن أُبَي رأسِ المنافقين وعبدِالله ابن رَوَاحة لَمَّا اسْتَبَّا جَاءَ قَوْمُ هَذا فَاقْتَتَلُواْ بالنِّعَالِ وَالتَّرَامِي بالْحِجَارَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ سَيْفٌ.

وَسَبَبُ اخْتِصَامِهِمَا أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَفَ ذاتَ يَوْمٍ عَلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَار وَهُوَ عَلَى حِمَارِهِ ، فبَالَ حِمَارُهُ وَهِيَ أرْضٌ سَبْخَةٌ ، فَأَمْسَكَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ آنْفَهُ وَقَالَ : إلَيْكَ عَنِّي فَوَاللهِ لَقَدْ آذانِي نَتَنُ حِمَارِكَ. فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ : وَاللهِ لَنَتَنُ حِمَار رَسُولِ اللهِ أطْيَبُ رِيْحاً مِنْكَ.

فَغَضَّبَ لعَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ ، وغَضِبَ لابْنِ رَوَاحَةَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَاسْتَبُّواْ وَتَحَامَلَ أصْحَابُ كُلِّ وَاحِدٍ مِعَ أصْحَاب الآخَرِ ، فَتَجَادَلُواْ بالأَيْدِي وَالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ، فَقَرَأهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَاصْطَلَحُواْ وَكَفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ.

وَأقْبَلَ بَشِيرُ بْنُ النُّعْمَانِ الأَنْصَارِيُّ مُشْتَمِلاً عَلَى سَيْفِهِ فَوَجَدَهُمْ قَدِ اصْطَلَحُواْ ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ : أعَلَيَّ تَشْتَمِلُ بالسَّيْفِ يَا بَشِيرُ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَالَّذِي أحْلِفُ بِهِ لَوْ جِئْتُ قَبْلَ أنْ تَصْطَلِحُواْ لَضَرَبْتُكَ حَتَّى أقْتُلَكَ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا } أي الدُّعاء إلى حُكم اللهِ والرِّضا بما في كتاب اللهِ لهما وعليهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى } ؛ أي طَلبت ما ليس لها ولم ترجِعْ إلى الصُّلح ، { فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } ؛ حتى ترجعَ عن البغي إلى كتاب اللهِ ، والصُّلح الذي أمر اللهُ تعالى به.

والبغيُ هو الاستطالَةُ ، والعدولُ عن الحقِّ وعمَّا عليه جماعةُ المسلمين. والطائفةُ الباغِيَةُ هي التي تطلبُ ما ليس لها أنْ تَطْلُبَهُ ، قولهُ { فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } أي حتى ترجعَ إلى طاعةِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ } ؛ أي واعدِلُوا في الإصلاحِ بينهما ، وفي كلِّ حكمٍ ، { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ؛ أي يحبُّ الذين يَعدِلُون في حُكمِهم وأهلِيهم وما تولَّوهُ ، الإقْسَاطُ في اللغة هو العَدْلُ ، يقالُ : أقسَطَ الرجلُ إذا عَدَلَ ، وقَسَطَ إذا جَارَ ، ومنه قولهُ{ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً }[الجن : ١٥].

وعن ابنِ عُمر رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : " يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ ؛ هَلْ تَدْري كَيْفَ حُكْمُ اللهِ فِيمَنْ يَفِيءُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ " ؟ قَالَ : اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ ، قالَ : " لاَ يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهَا وَلاَ يُقْتَلُ أسِيرُهَا وَلاَ يُطْلَبُ هَارِبُهَا وَلاَ يُقْسَمُ فِيْهَا ".

(٠/٠)

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } ؛ يعني في الدُّنيا والولايةِ ، { فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } ؛ يعني بين كلِّ مُسلِمين تَخَاصَما وتقاتَلاَ واختلَفا ، قرأ ابنُ سيرين (بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) بالجمعِ ، وقرأ حسن (بَيْنَ إِخْوَانِكُمْ) بالألف والنُّون.

وقوله تعالى : { وَاتَّقُواْ اللَّهَ } ؛ أي أطِيعُوا اللهَ ولا تُخالفوا أمرَهُ ، { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }. وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال : (الْمُسْلِمُ أخُو الْمُسْلِمِ ؛ لاَ يَظْلِمُهُ ؛ وَلاَ يَعِيبُهُ وَلاَ يَخْذِلُهُ ، وَلاَ يَتَطَاوَلُ عَلَيْهِ بالْبُنْيَانِ فَيَسْتُرُ عَنْهُ الرِّيحَ إلاَّ بإِذْنِهِ ، وَلاَ يُؤْذِيهِ بقِتَارِ قِدْرِهِ إلاَّ أنْ يَغْرِفَ لَهُ مِنْهُ ، وَلاَ يَشْتَرِي لِبَيْتِهِ الْفَاكِهَةَ فَيَخْرِجُونَ بهَا إلَى أوْلاَدِ جَارِهِ إلاَّ أنْ يُطْعِمُوهُمْ مِنْهَا).

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ } ؛ أي لا يَستَهزِئُ الرجلُ من أخيهِ فيقولُ : إنَّكَ رَدِيءُ المعيشةِ لَئِيمُ الْحَسَب وأشباهُ ذلك مما يَنتَقِصهُ به وهو خيرٌ منه عندَ اللهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : لا يُعَيِّرْ قومٌ قوماً لعلَّ المسخُورَ منه أفضلُ عندَ الله تعالى من السَّاخِرين ، { وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ } ؛ ولا يُعَيِّرُ نساؤُنا نساءَنا لعلَّ الْمَسخُورَةَ منهنَّ أفضلُ من السَّاخرتاتِ. وَقِيْلَ : معناهُ : لا يسخَرْ غَنِيٌّ من فقيرٍ لفَقرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ } ؛ أي لا تُعِيبُوا إخوانَكم الذين هم كأَنفُسكم ، { وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ } ؛ أي لا يَدْعُ بعضُكم بعضاً باللَّقَب الذي يكرهُهُ صاحبهُ ؛ لأن عليه أنْ يخاطِبَ أخاهُ بأحَب الأسماءِ إليه.

وقال قتادةُ : (مَعْنَاهُ : لاَ تَقُلْ لأَخِيكَ الْمُسْلِمِ : يَا فَاسِقُ وَيَا مُنَافِقُ ، وَلاَ يَقُولُ لِلْيَهُودِيِّ بَعْدَ أنْ آمَنَ : يَا

يَهُودِيُّ) وذلك معنى : { بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ } ؛ قال عطاءُ : (هُوَ كُلُّ شَيْءٍ أغْضَبْتَ بِهِ أخَاكَ كَقَوْلِكَ : يَا كَلْبُ ؛ يَا خِنْزِيرُ ؛ يَا حِمَارُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن لَّمْ يَتُبْ } ؛ أي مَن لَمْ يَتُبْ ممن التَّنابُزِ { فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } ؛ وقال : (نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ } فِي نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ عَيَّرْنَ أُمَّ سَلَمَةَ بالْقِصَرِ). ويقالُ : نزلَت في عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أشَارَتْ بيَدِهَا فِي أُمِّ سَلَمَةَ أنَّهَا قَصِيرَةٌ.

ورَوى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس : " أنَّ صَفِيَّةَ بنْتَ حَيِيِّ بْنِ أخْطَبَ أتَتْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ : إنَّ النِّسَاءَ يُعَيِّرْنَنِي يَا يَهُودِيَّةُ بنْتُ يَهُودِيَّيْنِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " هَلاَّ قُلْتِ : أبي هَرُونُ وَعَمِّي مُوسَى وَأنَّ زَوْجِي مُحَمَّدٌ " " فَأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ { وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ } أي لا يَغتَبْ بعضُكم بعضاً ولا يطعَنْ بعضُكم على بعضٍ.

وَقِيْلَ : اللَّمْزُ العيبُ في الْمَشْهَرِ ، والْهَمْزُ فِي الْمَغِيب ، وقال محمَّدُ بن زيدٍ : (اللَّمْزُ يَكُونُ باللِّسَانِ وَالْعَيْنِ وَالإِشَارَةِ ، وَالْهَمْزُ لاَ يَكُونُ إلاَّ باللِّسَانِ) ، قال الشاعرُ : إنْ لَقِيتُكَ تُبْدِي لِي مُكَاشَرَةً وَإنْ أغِبْ فَلأَنْتَ الْهَامِزُ اللُّمَزَهْ

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } " وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إذا غزَا أوْ سَافَرَ ، ضَمَّ الرَّجُلَ الْمُحْتَاجَ إلَى رَجُلَيْنِ مُوسِرَيْنِ يَخْدِمُهُمَا وَيُهَيِّءُ لَهُمَا طَعَامَهُمَا وَشَرَابَهُمَا ، وَيُصِيبُ مِنْ طَعَامِهِمَا ، فَضَمَّ سَلْمَانَ إلَى رَجُلَيْنِ مِنْ أصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أسْفَارِهِ ، فَتَقَوَّمَ سَلْمَانُ مَعَهُمَا.

فَاتَّفَقَ ذاتَ يَوْمٍ أنَّهُ لَمْ يُعِدَّ لَهُمَا شَيْئاً فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ ، فَلَمَّا قَدِمَا قَالاَ لَهُ : مَا صَنَعْتَ شَيْئاً ؟ قَالَ : لاَ ، قَالاَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ ، فَقَالاَ : انْطَلِقْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَاطْلُبْ لَنَا مِنْهُ طَعَاماً وَإدَاماً – وَقِيْلَ : إنَّهُمَا قَالاَ لَهُ : انْطَلِقْ إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَاسْأَلْهُ لَنَا فَضْلَ إدَامٍ إنْ كَانَ عِنْدَهُ – فَذهَبَ فَسَأَلَ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنْطَلِقْ إلَى الْخَازِنِ فَلْيُطْعِمْكَ إنْ كَانَ عِنْدَهُ " وَكَانَ الْخَازِنُ يَوْمَئِذٍ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، فَانْطَلَقَ إلَيْهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ شَيْئاً.

فَرَجَعَ إلَيْهِمَا فَأَخْبَرَهُمَا بذلِكَ ، فَقَالاَ : إنَّهُ بَخيلٌ يَأْمُرُهُ رَسُولُ اللهِ وَيَبْخَلُ هُوَ عَلَيْنَا ، فَقَالاَ فِي سَلْمَانَ : لَوْ بَعَثْنَاهُ إلَى بئْرٍ سَمِيحَةٍ لَقَالَ : لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ! ثُمَّ جَعَلاَ يَتَجَسَّسَانِ هَلْ كَانَ عِنْدَ أُسَامَةَ مَا أمَرَ لَهُمَا بِهِ

رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الإدَامِ. فَلَمَّا جَاءَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ لَهُمَا : " مَا لِي أرَى حُمْرَةَ اللَّحْمِ عَلَى أفْوَاهِكُمَا ؟ " قَالاَ يَا رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَا تَنَاوَلْنَا يَوْمَنَا هَذا لَحْماً ؟ فَقَالَ : " ظَلْتُمَا تَأْكُلاَنِ لَحْمَ سَلْمَانَ وَأُسَامَةَ " فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِه الآيَةَ : { يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } { وَلاَ تَجَسَّسُواْ } ؛ والظنُّ الذي هو الإثْمُ : أن يُعرَضَ بقلب الإنسان في أخيه ما يوجبُ الريبةَ فيحقِّقهُ من غيرِ سببٍ يوجبهُ ، كما رُوي في الخبرِ : " إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإنَّ الظَّنَّ أكْذبُ الْحَدِيثِ " ".

وقولهُ تعالى : { وَلاَ تَجَسَّسُواْ } التَّجَسُّسُ : البحثُ عن عيب أخيهِ الذي سترَهُ اللهُ عليه. ومعنى الآيةِ : خُذوا ما ظهرَ ودَعُوا ما سترَ اللهُ ولا تتَّبعوا عوراتِ الناس ، قال صلى الله عليه وسلم : " لاَ تَجَسَّسُواْ ؛ وَلاَ تَحَاسَدُواْ ؛ وَلاَ تَبَاغَضُواْ ؛ وَلاَ تَدَابَرُواْ ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَاناً ".

ورُوي : أنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب رضي الله عنه قَالَ لَهُ : (إنَّ فُلاَناً يُوَاظِبُ عَلَى شُرْب الْخَمْرِ ، فَقَالَ لَهُ : إذا عَلِمْتَهُ يَشْرَبُهَا فَأَعْلِمْنِي. فَأَعْلَمَهُ فَذهَبَ مَعَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى دَارِهِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ : أنْتَ الَّذِي تَشْرَبُ الْخَمْرَ ؟ فَقَالَ : وَأنْتَ تَتَجَسَّسُ عُيُوبَ الْمُسْلِمِينَ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : تُبْتُ أنْ لاَ أعُودَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : وَأنَا تُبْتُ لاَ أعُودُ).

وروى زيدُ بن أسلمَ : (أنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رضي الله عنه خَرَجَ ذاتَ لَيْلَةٍ وَمَعَهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ إذْ شَبَّتْ لَهُمَا نَارٌ ، فَأَتَيَا الْبَابَ فَاسْتَأْذنَا فَفُتِحَ لَهُمَا فَدَخَلاَ ، فَإذا رَجُلٌ وَامْرَأةٌ تُغَنِّي وَعَلَى يَدِ الرَّجُلِ قَدَحٌ ، فَقَالَ عُمَرُ لِلرَّجُلِ : وَأنْتَ بهَذا يَا فُلاَنُ ؟ فَقَالَ : وَأنْتَ بهَذا يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ عُمَرُ : مَنْ هَذِهِ مَعَكَ ؟ قَالَ : امْرَأتِي ، قَالَ : وَفِي الْقَدَحِ ؟ قَالَ : مَاءٌ زُلاَلٌ ، فَقَالَ لِلْمَرْأةِ : وَمَا الَّذِي تُغَنِّينَ ؟ فَقَالَتْ : أقُولُ :

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى } ؛ نزَلت في نفَرٍ من قريشٍ قالوا حِينَ سَمعوا أذانَ بلالٍ : أمَا وجدَ مُحَمَّدٌ مؤذِّناً غيرَ هذا الغُراب ؟ والمعنى : يا أيُّها النَّاسُ إنا خلَقنَاكم من آدمَ وحوَّاء ، فكلُّكم مُتساوون في النَّسب ، لأنَّ كلَّكم يرجعُ إلى أبٍ واحد وأُمٍّ واحدةٍ. ومعنى الآيةِ : الزَّجرُ عن التفاخُر بالأنساب ، قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّمَا أنْتُمْ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَامْرَأةٍ وَاحِدَةٍ ، لَيْسَ لأَحَدٍ عَلَى أحَدٍ فَضْلٌ إلاَّ بالتَّقْوَى ".

ثُم ذكرَ أنه إنما فرَّقَ أنسابَ الناسِ ليتعَارفُوا لا ليتفَاخَرُوا فقالَ تعالى : { وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ } ؛ الشُّعوب جمعُ شَعبٍ بفتح الشِّين ؛ وهو الحيُّ العظيمُ مثل رَبيعةَ ومُضَرَ ، والقبائلُ دونَها وهو كبَكرٍ من ربيعةَ ، وتَميم من مُضر ، هذا قولُ جماعةٍ من المفسِّرين.

ورَوى عطاءُ عن ابن عباس أنه قال : " يُرِيدُ بالشُّعُوب الْمَوَالِي ، وَبالْقَبَائِلِ الْعَرَبَ) وإلى هذا ذهبَ قومٌ فقالوا : الشُّعوب من العجَمِ مَن لا يُعرَفُ لهم أصلُ نَسَبٍ كالهندِ والتُّرك ، والقبائلُ من العرب. وَقِيْلَ : معناهُ : وجعلَكم متشَعِّبين مفرَّقين نحو العرب وفارسَ والرُّوم والهند وقبائلِ العرب وبيوتات العجَمِ.

والشِّعبُ بكسرِ الشين : الطريقُ في الجبلِ ، وجمعه شِعَابٌ.

والحاصلُ أنَّ الشعوبَ رُؤوسُ القبائلِ مثلَ رَبيعةَ ومُضر والأوسَ والخزرجَ ، والقبائلُ دُونَ الشُّعوب وهم كبكرٍ من ربيعةَ وتَميم من مُضر ، ودونَ القبائلِ العَمَائِرُ ؛ واحدَتُها عَمَارَةٌ بفتحِ العين ، وهم كشَيبان من بكرٍ ودَارِم من تَميم ، ودونَ العمائرِ البطونُ ؛ واحدُها بطنٌ وهو كبَني غالبٍ ولُؤَي من قريشٍ ، ودونَ البُطونِ الأفخاذُ ؛ واحدُها فَخْذٌ وهم بني هاشمٍ وبني أُمية من لُؤي ، ثم الفصَائِلُ واحدها فَصِيلَةٌ وعشيرةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِتَعَارَفُواْ } أي ليَعرِف بعضَكم بعضاً في النَّسَب لا لتُفاخِرُوا فيما بينَكم ، كما أنَّ اللهَ تعالى خَالَفَ بين خَلقِكم وصُوَركم لتَعرِفُوا بعضَكم بعضاً ، وقرأ الأعمشُ (لِتَعَارَفُوا) وقرأ ابنُ عبَّاس (لِتَعْرِفُوا) بغير ألفٍ.

وقولهُ تعالى : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } ؛ { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ } بفتحِ الألفِ ، { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } ؛ معناهُ : إنَّ أكرمَكم في الآخرةِ اتقَاكُم للهِ في الدُّنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ اللهَ قَدْ أذْهَبَ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعْظِيمِهَا بالآبَاءِ ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ؛ وَآدَمُ مِنَ التُّرَاب ؛ أكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ ، لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إلاَّ بالتَّقْوَى ".

وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ سَرَّهُ أنْ يَكُونَ أكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهَ " وقَالَ : " كَرَمُ الرَّجُلِ دِينُهُ وَتَقْوَاهُ ، وَفَضْلُهُ عَقْلُهُ ، وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ ".

وقال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إلَى أقْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ وَأعْمَالِكُمْ ، وَإنَّمَا أنْتُمْ بَنِي آدَمَ ، أكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ ".

وقال ابنُ عبَّاس : (كَرَمُ الدُّنْيَا الْغِنَى ، وَكَرَمُ الآخِرَةِ التَّقْوَى) ، وقال الشاعرُ : مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بعِزِّ الْغِنَى وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِيمَنْ عَرَفَ اللهَ فَلَمْ تُغْنِهِ مَعْرِفَةُ اللهِ فَذاكَ الشَّقِي

(٠/٠)

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَاكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا } ؛ نزَلت في نفرٍ من بني أسَدٍ بن خُزيمة قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْمَدِينَةَ فِي سَنَةٍ جَدْبَةٍ ، وَأَظْهَرُواْ شَهَادَةَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَلَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فِي السِّرِّ ، وَأَفْسَدُوا طُرُقَ الْمَدِينَةِ بالعَذرَاتِ وَأَغْلَوْا أسْعَارَهَا ، وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا كَذلِكَ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : يَأْتِيكَ الْعَرَبُ بأَنْفُسِهَا عَلَى ظُهُور رَوَاحِلِهَا وَأَتَيْنَاكَ بالأَثْقَالِ وَالْعِيَالِ وَالذرَارِي ، يَمُنُّونَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ، وَلَمْ نُقَاتِلْكَ كَمَا تُقَاتِلُكَ بَنُو فُلاَنٍ وَبَنُو فُلاَنٍ ، وَيُرِيدُونَ بذلِكَ الصَّدَقَةَ وَيَقُولُونَ : أعْطِنَا. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.
والمعنى : أنَّهم قالوا صدَّقنا باللسانِ والقُلوب ، قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ : لَمْ تُؤْمِنُوا ؛ أي لَمْ تُصدِّقوا بقُلوبكم كما صدَّقتم بأَلسِنَتِكم { وَلَاكِن قُولُواْ } اسْتَسْلَمْنَا وأنقَدْنا مخافةَ السَّبي والقتلِ : { وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } ؛ في السِّر كما أطَعتُم في العَلانية ، فتُتوبوا من الكفرِ والنفاق ، { لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً } ؛ أي لا يَنقِصْكُم من ثواب أعمالكم شيئاً ، { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } ؛ لِمَن تابَ ، { رَّحِيمٌ } ؛ بمَن ماتَ على التوبةِ.
ومن قرأ (لاَ يَأْلِتْكُمْ) بالهمزةِ فهو من ألَتَ يَأْلِتُ ألَتاً إذا نَقَصَ ، ويقال : لاتَ يَلِيتُ لَيْتاً بهذا المعنى ، وكِلا القراءَتين بمعنىً واحدٍ.

(٠/٠)

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } ؛ أي هم الذين أقَرُّوا وصدَّقوا بوحدانيَّةِ اللهِ ونُبوَّة رسولِهِ ، { ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ } ؛ أي لَمْ يَشُكُّوا في دينِهم بعدَ الإيمانِ ، { وَجَاهَدُواْ } ؛ العدوَّ ، { بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ طاعةً ، { أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } ؛ في الإيمانِ.
فلمَّا نَزلت هذه الآيةُ جاءَ القومُ يحلِفون لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إنَّهم يُؤمنون في السرِّ والعلانيةِ

، وقد عَلِمَ الله منهم غيرَ ذلك ، فأنزلَ اللهُ :
قولَهُ تعالى : { قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ؛ معناهُ : كيف يُعلِّمونَ اللهَ بالدِّين الذي أنتُم عليه ، وهو عالِمٌ بكلِّ شيءٍ من كلِّ وجهٍ ، وكيف يجوزُ أن يُعَلَّمَ مَن كان بهذه الصِّفة.
وقوله : { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ } وذلكَ أنَّ هؤلاءِ المنافقين كانوا يقُولون للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : قَاتَلَتْكَ العربُ بأسيافِهم ونحنُ جِئناك بالأهلِ والذراري والأثقالِ ، ولم نُقاتِلْكَ كما قاتَلَك بنو فلانٍ ، فقال اللهُ تعالى : { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ } ؛ يا مُحَمَّدُ ؛ { أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ } ؛ فإنَّ إجَابَتَكم إلى الإسلامِ لم تكن إلاَّ لاجابتكم على أنفُسِكم لاَ إنَّكم أنعَمتُم على مَن دعاكُم إلى ذلك.
ومِن المعلومِ أنَّ حقَّ الداعِي إلى الهدايةِ أعظمُ من حقِّ المطيعِ بالإجابةِ ، فليس للمطالِب أن يُطالِبَ بالحقِّ الذي لَهُ وينسَى الحقَّ الأعظمَ الذي عليهِ ، ولذلك قالَ اللهُ : { بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمَانِ } ؛ وأخرجَكم من الضَّلال ، { إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ؛ في مَقالَتِكم.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } ؛ فيه بيانُ أنه لا ينفعُ المنافقَ عندَ اللهِ كتمانُ الكفرِ ؛ لأنه تعالَى عالِمٌ به.
فإن قِيْلَ : كيف تجوزُ الْمِنَّةُ من اللهِ تعالى والمنَّةُ مما يُكَدِّرُ الصنيعةَ ؟ قِيْلَ : إنَّ الْمِنَّةَ عمَّن يُستغنى عنه تكدِّرُ الصنيعةَ ، وأمَّا اللهُ تعالى ليس من أحَدٍ إلاَّ وهو محتاجٌ إليه ، فليس في مِنَّتِهِ تكديرٌ للنعمةِ لاستحالةِ أن يُستغنى بغيرِهِ عنه. وقد يقالُ : إذا كُفرت النعمةُ حَسُنَتِ الْمِنَّةُ ، وباللهِ التوفيقُ.

(٠/٠)

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)

{ ق } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ أقْسَمَ بهِ) ، وقال القرطبيُّ : (هُوَ افْتِتَاحُ اسْمِهِ : قَدِيرٌ ؛ وَقَادِرٌ ؛ وَقَاهِرٌ ؛ وَقَابِضٌ) ، وقال عكرمةُ والضحَّاك وجماعةُ المفسِّرين : (هُوَ اسْمُ جَبَلٍ مُحِيطٍ بالدُّنْيَا

مِنْ زُبُرْجُدٍ أخْضَرٍ اخْضَرَّتِ السَّمَاءُ مِنْهُ ، وَهُوَ وَرَاءَ الْحِجَاب الَّذِي فِيهِ تَغِيبُ الشَّمْسُ مِنْ وَرَائِهِ بِمَسِيرَةِ سَنَةٍ ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ بَلَدٌ إلاَّ وَتَحْتَهَا عِرْقٌ مِنْ عُرُوقِ ذلِكَ الْجَبَلِ ، فَإذا أرَادَ اللهُ أنْ يُزَلْزِلَ تِلْكَ الأَرْضَ حَرَّكَ عِرْقَهُ ذلِكَ فَزَلْزَلَ ، وَإذا أرَادَ اللهُ بأَهْلِ مَدِينَةٍ هَلاَكاً أمَرَهُ فَحَرَّكَ عِرْقَهُ فَخُسِفَ بِهِمْ).

قال وهبُ : (إنَّ ذا الْقَرْنَيْنِ أتَى عَلَى جَبَلِ قَاف ، فَسَأَلَهُ : هَلْ وَرَاءَكَ شَيْءٌ ؟ قَالَ : وَرَائِي أرْضٌ مَسِيرَةَ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ فِي عَرْضِ خَمْسَمِائَةٍ مِنْ جِبَالِ الثَّلْجِ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً ، وَمِنْ وَرَائِكَ أيْضاً أرْضٌ مِثْلُهَا مِنْ الْبَرَدِ ، لَوْلاَ ذلِكَ الثَّلْجُ وَالْبَرَدُ لاحْتَرَقْتَ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ).

وقال بعضُهم : معنى قوله تعالى { ق } قُضِيَ الأمرُ ما هو كائنٌ ، وقال أبو بكرٍ الورَّاق : (مَعْنَاهُ : قِفْ عِنْدَ أمْرِنَا وَنَهْيِنَا وَلاَ تُعَدِّيهِمَا). وَقِيْلَ : معناهُ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ } ؛ أي الشَّريفِ الكريمِ على اللهِ. واختلفَ العلماءُ في جواب القسَمِ ، فقال أهلُ الكوفةِ جوابهُ : { بَلْ عَجِبُواْ } ، وقال الأخفشُ : (جَوَابُهُ مَحْذُوفٌ ؛ تَقْدِيرُهُ : وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لَتُبْعَثُ).

وَقِيْلَ : جوابهُ{ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ }[ق : ١٨]. وَقِيْلَ : جوابهُ{ قَدْ عَلِمْنَا }[ق : ٤] كما قالَ اللهُ{ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا }[الشمس : ١] إلى أنْ قالَ{ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }[الشمس : ٩] فذلكَ جوابُ القسَمِ ، إلاَّ أن اللامَ حُذفت منه ، ويجوزُ أن تُجعل (بَلْ) في جواب القسَمِ موضعَ (لَقَدْ).

وجواباتُ القسَمِ سِتَّةٌ :

١. (إنَّ) شديدةٌ كقوله{ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ }[الفجر : ١-٢] إلى أنْ قالَ : { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ }[الفجر : ١٤].

٢. و(مَا) في النَّفي كقولهِ{ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ }[الضحى : ١-٣].

٣. و(لا) أي النافية ، واللامُ مفتوحةٌ كقوله{ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }[الحجر : ٩٢].

٤. و(إنْ) الخفيفةُ كقوله{ تَاللَّهِ إِن كُنَّا }[الشعراء : ٩٧].

٥. و(لاَ) كقوله{ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ }[النحل : ٣٨].

٦. و(قَدْ) كقوله{ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا }[الشمس : ١] إلى أنْ قالَ{ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }[الشمس : ٩].

٧. و(بَلْ) كقولهِ { ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُواْ }.

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ عَجِبُواْ أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ } ، أي مُخَوِّفٌ يَعرِفُون حسَبَهُ ونسَبَهُ وصِدقَهُ وأمانتَهُ ، { فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَاذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ } ؛ عَجِبُوا لكونِ مُحَمَّدٍ رسُولاً إليهم ، فأنكَرُوا رسالتَهُ وأنكروا البعثَ بعد الموتِ ، وهو قولهُ : { أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً } ؛ أي أنُبعَثُ إذا مِتنا ؟ قالوا ذلك متعجِّبين أنَّهم إذا ماتُوا وصارُوا تُراباً كيف يُبعثون بعدَ ذلك ؟ وقالوا : { ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } ؛ أي الردُّ إلى الحياةِ بعيدٌ غيرُ كائنٍ أبداً ، استبعَدُوا بجهلِهم أنْ يُبعثوا بعدَ الموتِ.

(٠/٠)

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ } ؛ أي ما تأكلُ الأرضُ من لُحومِهم ودِمائهم وأشعَارهم ، والمعنى : لا يخفَى علينا شيءٌ مما تأخذُ الأرض من أبدانِ الموتَى ، فمَن عَلِمَ ذلك فهو قادرٌ على إعادةِ ذلك الخلقِ بعَينِهِ إلى الحياةِ.

وقوله : { وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } ؛ أرادَ به اللوحَ المحفوظَ ، حُفِظَ من الزِّيادة والنُّقصان ، عِندَنا كتابٌ حافظٌ لعِدَّتِهم وأسمائِهم ، وقد أثبَتنا فيه ما يكون من جميعِ الأشياء المقدَّرة.

(٠/٠)

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ } ؛ أي كذبُوا بالقرآنِ لَمَّا جاءَهم بدلائلِ الله ، { فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ } ؛ أي مُختَلطٍ مُلتَبسٍ عليهم ، لا يَثبُتون على شيءٍ واحد ، مرَّةً يشُكُّون وأُخرى يجحَدُون ، ومرَّة يقولون في النبيِّ صلى الله عليه وسلم : إنَّهُ ساحرٌ ، ومرَّة يقولون : هو شاعرٌ ، ومرَّة يقولون : مُعَلَّمٌ مجنونٌ ، وتارةً يقولون للقرآنِ : هو سِحرٌ يؤثَرُ ، وتارةً يقولون : هو أساطيرُ الأوَّلين ، وتارةً يقولون : سِحرٌ مُفترَى.

وقال الحسنُ : (مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْحَقَّ إلاَّ مَرَجَ أَمْرُهُمْ) ، وقالَ قتادةُ : (مَنْ تَرَكَ الْحَقَّ مُرِجَ عَلَيْهِ رَأيُهُ ، وَالْتَبَسَ عَلَيْهِ دِينُهُ) ، ومن ذلك الْمَرْجُ لاختلاطِ أشجَارها بعضُها من بعضٍ.

(٠/٠)

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ } ؛ ودلَّهم بهذا على قُدرتهِ بعظيمِ خَلقهِ ، فقالَ : أفَلَمْ ينظُروا كيف بَنَيناها وزيَّناها بالكواكب وما لَها من فُتُوقٍ وشُقوقٍ وصُدوعٍ.

(٠/٠)

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا } ؛ أي بسَطناها ، { وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ } أي جِبَالاً ، { وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } ؛ أي من كلِّ لونٍ حَسَنٍ منظَرُهُ.

(٠/٠)

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ } ؛ أي فَعَلنا ذلك الذي ذكرنَاهُ ليُبصَرَ به ويُتَذكرَ به ، فهو تذكيرٌ وعِظَةٌ وتنبيهٌ لكلِّ عبدٍ مُنيبٍ يرجعُ إلى اللهِ ويتفكَّرُ في قُدرتهِ.
قال أبُو حاتم : (قَوْلُهُ { تَبْصِرَةً } مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَر) يعني تَبصِيراً وتَذكيراً وتَنبيهاً له ؛ لأن مَن قَدَرَ على خَلقِ السَّموات والأرضِ والنبات قَدَرَ على بعثهِم.

(٠/٠)

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكاً } ؛ يعني المطرَ ، { فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ } ؛ أي بساتينَ ، { وَحَبَّ الْحَصِيدِ } ؛ يعني الزرعَ الذي من شأنهِ أن يُحصدَ حَصِيداً ، حُصد أم لم يُحصَدْ ، وذلك البُرُّ والشعيرُ وسائرُ الحبوب التي تُحصَدُ وتدَّخَرُ وتُقتَاتُ. وإضافةُ الحب إلى الحصيدِ وهما واحدٌ لاختلافِ اللَّفظين ، كما يُقال مسجدُ الجامعِ ، وربيعُ الأوَّل ، وخُفُّ البعيرِ ، وحبلُ الوريدِ ونحوُها.

(٠/٠)

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ } ؛ معناهُ : وأنبتنا النخلَ طِوَالاً ، يقالُ : بَسَقَتِ النَّخلَةُ إذا طَالَتْ. والطَّلعُ النَّضِيدُ : هو الكُفُرِّيُّ ما دامَ في أكمَامِها ، فهو مَنضُودٌ بعضهُ فوقَ بعضٍ ، وإذا خرجَ من أكمَامِها فليس بنَضيدٍ.

(٠/٠)

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ } ؛ انتصبَ على وجهَين : أحدِهما : رَزَقْنَاهُم هذهِ الأشياءَ ، والثاني : انبَتنَاها للرِّزقِ ، فهو منصوبٌ ؛ لأنه مفعولٌ لَهُ ؛ ولأنه مصدرُ فعلٍ محذوف.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً } ؛ أي أحيَينا بالمطرِ مَكاناً مَيْتاً لا نباتَ فيه ، فكما أحيَينا هذه الأرضَ الْمَيتَة بالماءِ ، وأنبَتنا هذه الأقواتَ من الحبوب الياسبةِ ، { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } ؛ أي كذلك تَنبُتُونَ بالمطرِ في قُبوركم ثم تُخرَجون للبعثِ ، والقدرةُ على إعادةِ النَّبات دليلٌ على القدرةِ على إعادةِ الحياة إلى الميْت.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ } ؛ فيه تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم يقولُ : إنَّ هؤلاءِ الكفار سَلَكوا التكذيبَ طريقةَ مَن قبلِهم من الأُمم المكذِّبة لرُسلِهم ، وقد رأيتُم كيف كان إنْكَاري عليهم ، وكيف أهلَكناهُم.
والرَّسُّ : برزون اليَمَامَةِ ، والنبيُّ هو حَنظَلُ بن سِنَان. وأصحابُ الأيْكَةِ قومُ شُعيب عليه السلام ، والأَيكَةُ غَيْظٌ. وأما قومُ تُبَّعٍ فقد تقدَّم أن تُبَّعَ اسمُ ملكٍ حِميَر ، وقد ذُكر ذلك في قولِهِ تعالى : { أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ }[الدخان : ٣٧].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ } ؛ أي كلٌّ مِن هؤلاءِ المذكُورين كذبَ الرُّسل ، { فَحَقَّ وَعِيدِ } ؛ أي فوجبَ عليهم عذابهُ ، وحقَّ عليهم كلمةُ العذاب.
وسُمي تُبَّعاً لكثرةِ أتباعِهِ وكان يعبدُ النارَ فأسلمَ ودعَا قومَهُ إلى الإسلامِ وهم حِميَرُ فكذبوهُ ، قال حاتِمُ الرقَّاشي :كَانَ أسْعَدُ الْحِمْيَرِيُّ مِنَ التَّتَابعَةِ ، آمَنَ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ بسَبْعِمائَةِ سَنَةٍ ، وَقَالَ : شَهِدْتُ عَلَى أحْمَدَ أنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَاري النَّسَمْفَلَوْ مَدَّ عُمْرِي إلَى عُمْرِهِ لَكُنْتُ وَزيراً لَهُ وَابْنُ عَمْقال قتادةُ : (ذمَّ اللهُ قَوْمَ تُبَّعٍ وَلَمْ يَذُمَّهُ ، وَكَانَ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ ، فَسَارَ بالْجُيُوشِ وَافْتَتَحَ الْبلاَدَ وَقَصَدَ مَكَّةَ لِيَهْدِمَ الْبَيْتَ ، فَقِيلَ لَهُ : إنَّ لِهَذا الْبَيْتِ رَبّاً يَحْمِيهِ ، فَنَدِمَ وَأحْرَمَ وَدَخَلَ مَكَّةَ وَطَافَ بالْبَيْتِ وَكَسَاهُ ، وَهُوَ أوَّلُ مَنْ كَسَا الْبَيْتَ).

(٠/٠)

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ } ؛ هذا جوابٌ لقولِهم (ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ). والمعنى : أعَجِزْنَا حين خلَقنَاهم أوَّلاً ولم يكونوا شَيئاً ، فكيف عن بعثِهم ، وهذا تقريرٌ لهم لأنَّهم اعترَفُوا بأنَّ اللهَ الخالقُ أنكَرُوا البعثَ. ثم ذكَرَ أنَّهم في شَكٍّ من البعثِ ، فقالَ اللهُ تعالى : { بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } ؛ أي بل هُم في شَكٍّ من البعثِ.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ } ؛ أي ولقد خلَقنا لبنِي آدمَ ونعلمُ ما يُحدِّثُ به قلبهُ ؛ أي نعلَمُ ما يُخفِي ويُكِنُّ في نفسهِ ، { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ } ؛ بالعلمِ بأحوالهِ وبما في ضَميرهِ ، { مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } ؛ وهو عِرْقٌ في باطنِ العُنقِ بين العَليا والْحُلقُومِ ، وهما وَريدان عن يَمين ثغرَةِ النَّحرِ ويسارها ، يتَّصِلان من نَاحِيَتي الحلقِ والعاتقِ ، ينصَبَّان أبداً من الإنسانِ. وقال الحسنُ : (الْوَرِيدُ : الْوَتِينُ ؛ وَهُوَ عِرْقٌ مُعَلَّقٌ بِهِ الْقَلْبُ ، وَاللهُ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَى الْمَرْءِ مِنْ قَلْبِهِ).

ومعنى الآيةِ : { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ } أي أعلَمُ به وأقدَرُ عليه مِن بعضهِ ، وإنْ كان بعضهُ له حجابٌ فلا يحجِبُنا شيءٌ ؛ أي لا يحجبُ عِلمُنا عنه شيءٌ.

ثم ذكرَ أنه مع علمهِ وَكَّلَ به مَلَكين يكتُبان ويحفَظان عليه عملهُ إلزاماً للحجَّة ، فقالَ : { إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ } ؛ قال مقاتلُ : (هُمَا مَلَكَانِ يَتَلَقَّيَانِ عَمَلَ ابْنِ آدَمَ وَمَنْطِقِهِ) أي يَأخُذان ذلك ويُثبتانه في صحائِفهما ، أحدُهما عن يمينٍ يكتبُ الحسَنات ، والثاني عن شِمالٍ يكتبُ السيِّئات ، فذلك قولهُ { وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ } ولم يقل قَعِيدَان ؛ لأنه أرادَ عن اليمينِ قعيدٌ وعن الشمالِ قعيدٌ ، فاكتفَى من أحدِهما عن الأُخرى ، كقولِ الشَّاعر : نَحْنُ بمَا عِندَنَا وَأَنْتَ بمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُأي نحنُ بما عندَنا رَاضُون. والقعيدُ مثل قاعدٍ كالسَّميع والعليمِ والقدير ، وقال أهلُ الكوفةِ : أرَادَ قُعُوداً.

رُوي : " أنَّ اللهَ تَعَالَى وَكَّلَ بالإنْسَانِ مَلَكَيْنِ باللَّيلِ ، وَمَلَكَيْنِ بالنَّهَار يَحْفَظَانِ عَمَلَهُ ، أحَدُهُمَا يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ ، وَالثَّانِي يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ ، فَإذا تَكَلَّمَ الْعَبْدُ بحَسَنَةٍ كَتَبَهَا الَّذِي عَلَى الْيَمِينِ عَشْراً ، وَإذا تَكَلَّمَ بسَيِّئَةٍ قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لِلآخَرِ : أنْظِرْهُ ، فَنَظَرَهُ سِتَّ سَاعَاتٍ أوْ سَبْعَ سَاعَاتٍ ، فَإنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ لَمْ يَكْتُبْهَا ، وَإنْ لَمْ يَتُبْ كَتَبَ عَلَيْهِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً " هكذا قال صلى الله عليه وسلم.

وعن أنسٍ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " وَكَّلَ بعَبْدِهِ مَلَكَيْنِ يَكْتُبَانِ عَلَيْهِ ، فَإذا مَاتَ الْعَبْدُ قَالاَ : يَا رَب قَدْ قَبَضْتَ عَبْدَكَ ؛ أفَتَأْذنُ لَنَا أنْ نَصْعَدَ إلَى السَّمَاءِ ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلاَئِكَتِي يُسَبحُونَ ، فَيَقُولاَنِ : أنُقِيمُ فِي أرْضِكَ ؟ فَيَقُولُ : إنَّ أرْضِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ خَلْقِي يَعْبُدُونَنِي ، فَيَقُولاَنِ : أيْنَ نَذْهَبُ ؟ فَيَقُولُ : قُومَا عَلَى قَبْرِ عَبْدِي وَهَلِّلاَنِي وَكَبرَانِي وَاكْتُبَا ذلِكَ لِعَبْدِي إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَعِيدٌ } أي رَصِيدٌ حافظٌ حاضر ملازمٌ لا يبرحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } ؛ أي حافظٌ حاضر { عَتِيدٌ } أي مُعْتَدٌّ لَهُ.

(٠/٠)

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ } ؛ أي جاءَت غمَرَاتُ الموتِ وأهوالهُ وشدَّتُها التي تَغشَى الإنسانَ وتَغلِبُ على عقلهِ ، { بِالْحَقِّ } أي بما يصيرُ إليه من أمرِ الآخرةِ من شَقاوَةٍ أو سَعادةٍ تُحَقَّقُ عليه عندَ الموتِ. ويقالُ له : { ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ } ؛ أي تميلُ وتَهربُ وتَكرَهُ ، قد أيقَنْتَ أنه الآنَ ، يقالُ : حاجَ عنِ الشيءِ يَحِيدُ عنهُ حَيْداً ؛ إذا مَالَ وزَاغَ ونَكَصَ ، وقرأ أبو بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بالْمَوْتِ).

(٠/٠)

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ } ؛ يريدُ نفخةَ البعثِ ، يكون يومُ القيامةِ وهو يومٌ يتحقَّقُ فيه الوعيدُ ، وهو اليومُ الموعُود للأوَّلين والآخِرين يجتَمعون فيه. وَقِيْلَ : معناهُ : ذلك الذي وعدَ اللهُ الكفارَ أنْ يُعذِّبَهم فيه.

(٠/٠)

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ } ؛ أي سائِقٌ يَسُوقُها إلى الْمَحْشَرِ ، وشاهدٌ يَشهَدُ

عليها بما عَمِلَتْ قال الكلبيُّ : (السَّائِقُ هُوَ الَّذِي يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ ، وَالشَّهِيدُ هُوَ الَّذِي يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ) ، والمرادُ بالنَّفْسِ ههُنا نفس الكافر ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَاذَا } ؛ اليوم في الدُّنيا ، { فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ } ؛ الذي كان في الدُّنيا يغشَى قلبَكَ وسمعَكَ وبصرك ، { فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } ؛ أي فأنتَ اليومَ عالِمٌ نافذُ البصرِ ، تُبصِرُ ما كنتَ تُنكِرُ في الدُّنيا. وَقِيْلَ : معناهُ : { فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } أي فعِلمُكَ نافذٌ ، وهو من البَصِيرَةِ لا بصرَ العينِ ، كما يقالُ : فلانٌ بصير بهذا الأمرِ ؛ عالِمٌ به. وَقِيْلَ : معناهُ : فبصرُكَ اليوم شاخصٌ لِمَا ترى من الْهَوْلِ.

(٠/٠)

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ قَرِينُهُ هَاذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } ؛ يعني الْمَلَكَ الذي يكتبُ عملَهُ السَّيِّءَ في الدُّنيا يقول : هذا الذي كَتَبتهُ من عملهِ مُعَدٌّ محفوظٌ مُحصَى ، يعني أن الملَك يقولُ : لديه هذا الذي وكَّلتَني به قد أحضَرتهُ ، فيقولُ الله تعالى لقَرينهِ : { أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ } ؛ إطرَحا فيها ، { كُلَّ كَفَّارٍ } ؛ بالله وبنعمتهِ ، { عَنِيدٍ } ، مُعرضٍ عن الإيمانِ والقرآنِ إعراضَ المضَادِّ له. وهذا خطابُ الواحدِ بلفظ التَّثنِيَةِ على عادةِ العرب ، يقولون للواحدِ : ارحلاها وآزجراها. وَقِيْلَ : الخطابُ لخازنِ النَّار ، ومخاطَبَةُ الواحدِ بلفظ الاثنين من فصيحِ كلامِ العرب ، ومنه قولُهم للواحد في الشِّعر (خَلِيلَيَّ) ، قال امرؤُ القيسِ : خَلِيلَيَّ مُرَّا بي عَلَى أُمِّ جُنْدَب نُقَضِّ لُبَانَاتٍ لِلْفُؤَادِ الْمُعَذبوقالَ : قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ بسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِوقال الفرَّاءُ والسديُّ وأبو ثروان : فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَاومنه قولُ الحجَّاج : (يَا حَرَسِيُّ إضْرِبَا عُنُقَهُ) ، قال الزجَّاجُ : (تَثْنِيَةٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَالْخِطَابُ لِلْمُتَلَقِّينَ مَعاً ، وَالسَّائِقُ وَالشَّهِيدُ جَمِيعاً) ، وقرأ الحسنُ : (أَلْقَيْنَ) بنونِ التأكيد كقوله تعالى : { لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ }[العلق : ١٥].

(٠/٠)

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ } ؛ أي لا يُنْزِلُ خَيراً ولا يُعطي شيئاً من حقِّ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُعْتَدٍ } ؛

أي ظالِمٍ لا يُقِرُّ بتوحيدِ الله ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُّرِيبٍ } ؛ أي شَاكٍّ في البعثِ والتوحيد. قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً آخَرَ } ؛ أي شَريكاً ، { فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ } ؛ أي إطرحاهُ في النار.

(٠/٠)

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧)

وقولهُ : { قَالَ قرِينُهُ } ؛ أي شَيطانهُ : { رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ } ؛ أي ما أغوَيتهُ ، ما أضلَلتهُ ؛ أي لم أتَوَلَّ ذلك. وَقِيْلَ : معناهُ : قال قَرينهُ الذي يشهَدُ عليه من الملائكةِ : { رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ } أي ما عجِلتُ عليه في الكتابةِ وما كتبتُ عليه إلاَّ ما قالَ وفعلَ ، { وَلَاكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ } ؛ خطأ ، { بَعِيدٍ } ؛ من الصَّواب. وإنما يقولُ الملَكُ هذا القولَ بعدَ ما يقولُ الكافرُ : يا رب عليَّ كتبَ ما لَمْ أقُلْ ولم أفعَلْ وما أنظَرَني ، ولكن عجَّلَ في الكتابةِ عليَّ.

(٠/٠)

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ } ؛ أي يقولُ اللهُ تعالى : لا تَختَصِمُوا عندِي كما تختَصِمُوا عند مُلوكِ الدُّنيا ، فإنِّي مَلِكٌ لا يُكرَّرُ الكلامُ عندي ، { وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم } ؛ على ألْسِنَةِ الرسُلِ بالوعدِ و ؛ { بِالْوَعِيدِ } ؛ لا ينفعكُم الاختصامُ بعدَ أن أخبَرتُكم على ألسِنَةِ الرُّسل بعذابي في الآخرةِ لِمَن كفرَ.

(٠/٠)

مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ } ؛ أي لا خَلَفَ لوَعدِي ووعيدي ، وقد قَضيتُ ما أنَا قاضٍ عليكم من العذاب ، لا تبديلَ له. وَقِيْلَ : معناهُ : لا يُكذبُ عندي ولا يغيَّرُ القولُ من جُملتهِ ؛ لأنِّي أعلمُ

الغيبَ وأعلمُ كيف ضَلُّوا وكيف أضْلَلتُموهم ، ولا يقدرُ أحدٌ أن يُشقِي أحداً مِمَّن أسعَدتُّهُ ، ولا يُسعِدُ أحدٌ ممن أشقَيتهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَنَاْ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } ؛ أي لا أعاقِبُ أحداً من غيرِ جُرمٍ ، ولا أخذُل أحداً من غيرِ ذنبٍ ، ومَن عَمِلَ سيِّئةً فلا يُجزَى إلاَّ مِثلَها.

(٠/٠)

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ } قرأ نافعُ (يَقُولُ) بالياءِ على معنى : يقولُ اللهُ. والمعنى : أنذِرْهُمْ يومَ يقولُ لجهنَّم : هَلِ امْتَلأْتِ كما وعَدتُّكِ ، فتقولُ : { هَلْ مِن مَّزِيدٍ } أي لَمْ يبقَ موضعٌ لم يمتلئ فلا مزيدَ ، على هذا قال المفسِّرون : أرَاها اللهُ تصديقَ قوله{ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ }[الأعراف : ١٨] فلمَّا امتَلأَتْ قالَ لَها : هلِ امتلأْتِ ؟ فتقولُ : هل مِن مزيدٍ على هذا الامتلاءِ ؟ وهذا استفهامُ إنكار ؛ أي قدِ امتلأتُ ولم يبقَ فِيَّ موضعٌ خالٍ. هذا قولُ عطاء ومجاهد. وقال ابنُ عبَّاس في رواية أبي صالِح : (أنَّها تَسْتَزِيدُ إلَى مَا فِيهَا) ووجهُ هذا القولِ أنَّ هذا السؤالَ في قوله { هَلِ امْتَلأَتِ } كان قبلَ دُخولِ جميعِ أهلها فيها. ويجوزُ أن يكون المعنى : أنَّها طَلبت أن تُزَادَ في سِعَتها لتَضَايُقِها بأهلِها.

(٠/٠)

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ } ؛ أي قريبٍ ، وأدِّيت الجنةُ للمتَّقين الشِّركَ غيرَ بعيدٍ ، ينظُرون إليها قبلَ دخُولِها ، ويقالُ لَهم عندَ تَقريبِها : { هَاذَا } ؛ الذي تَرونَهُ ، { مَا تُوعَدُونَ } ؛ في الدُّنيا على ألسِنَةِ الرُّسل ، { لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ } ؛ أي لكلِّ رجَّاعٍ عن معاصِي اللهِ إلى طاعةِ الله ، حافظٍ لحدُودِ اللهِ من الخروجِ إلى ما لا يجوزُ.

قال مجاهدُ : (الأَوَّاب الَّذِي يَذْكُرُ اللهَ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ) ، وَقِيْلَ : هو الذي يُذنِبُ ثم يتوبُ ، ثم يُذنِبُ ثم يتوبُ. وَقِيْلَ : الأَوَّابُ الْمُسَبحُ مِن قوله{ ياجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ }[سبأ : ١٠]. وَقِيْلَ : هو الذاكرُ للهِ ، وقال

مقاتلُ : (الْمُطِيعُ). وَقِيْلَ : هو الذي لا يقومُ من محلِّه حتى يستغفرَ اللهَ ، وقال أبو بكرٍ الورَّاق : (هُوَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، لاَ يَهْتَدِي إِلَى غَيْرِ اللهِ). وَقِيْلَ : هو الذي لا يشتَغِلُ إلاَّ باللهِ.

(٠/٠)

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ } ؛ صفةٌ للأَوَّاب الحفيظِ ، والمعنى : مَن خافَ اللهَ وخَافَ من عذابِهِ وأطاعَهُ ولم يَعْصِهِ ، وعبدَهُ حيث لا يراهُ إلاَّ اللهُ ، وهو معنى قولِهِ { بِالْغَيْبِ } { وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ } ؛ أي جاءَ بقَلبٍ مُخلِصٍ راجعٍ عن معاصِي الله إلى طاعتِهِ ، والقلبُ الْمُنِيبُ : هو التَّائِبُ ، وموضِعُ { مَّنْ خَشِيَ } الخفضُ على نعتِ الأَوَّاب.

(٠/٠)

ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)

وقولهُ تعالى : { ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ } ؛ يعني سلامة من الهمومِ والعذاب وأمانٍ من كلِّ مكروه ، { ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ } ؛ في الجنَّة لأنه لا موتَ فيها ولا فناءَ ولا انقطاعَ ، { لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا } ؛ من أنواعِ النَّعيم ، { وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } ؛ أي نَزِيدُهم من عندِنا ما لم يسألوهُ ، ولا خَطَرَ على قلوبٍ ، ولا بلغَتهُ أفهامُهم ، وقال جابرُ : " الْمَزِيدُ هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ بلا كَيْفٍ).

(٠/٠)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً } ؛ هذا تخويفٌ لأهلِ مكَّة ؛ أي كم

أهلَكنا من قومٍ هُم أشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً ، { فَنَقَّبُواْ فِي الْبِلاَدِ } ؛ أي سَارُوا وتَقلَّبُوا وطافُوا في البلادِ.
وأصلهُ من النَّقَب وهو الطريقُ ؛ وكأنَّهم سلَكُوا كلَّ طريقٍ فلم يجِدُوا مَخْلَصاً عن أمرِ الله.
قال الزجَّاجُ : (لَمْ يَرَوا مَخْلَصاً مِنَ الْمَوْتِ ، كَأَنَّهُمْ ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ مَعَ شِدَّةِ شَوْكَتِهِمْ وَبَطْشِهِمْ ، وَفِي هَذا إنْذارٌ لأَهْلِ مَكَّةَ أنَّهُمْ عَلَى مِثْلِ سَبيلِهِمْ لاَ يَجِدُونَ مَفَرّاً مِنَ الْمَوْتِ ، يَمُوتُونَ فَيَصِيرُونَ إلَى عَذاب اللهِ).
قرأ الحسنُ : (فَنَقَبُوا) بالتخفيف ، وقرأ السُّلَمي على اللفظِ الأمرِ على التهديدِ والوعيد ؛ أي أقبلُوا في البلادِ وأدبرُوا يا أهلَ مكَّة وتصرَّفُوا منها كلَّ مُتَصَرَّفٍ ، وسِيرُوا في الأرضِ فانُظروا ، { هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى } ؛ أي إنَّ ما صُنِعَ بهم من هلاكِ القُرى لعِبرَةً وعِظَةً ؛ { لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ } ؛ عقلٌ وحَزْمٌ وبصيرة ، { أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ } ؛ أي استمعَ ما يقالُ له على جهة التَّفَهُّمِ ، يقولُ العربُ : أَلْقِ سَمْعَكَ ؛ أي اسْتَمِعْ مِنِّي ؛ { وَهُوَ شَهِيدٌ } ؛ أي شاهِدُ القلب حاضرهُ غير غافلٍ ولا سَاهٍ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ } ؛ واللُّغُوبُ هو التَّعَبُ ، وذلك أنَّ اليهودَ لَعَنَهُمُ اللهُ قالُوا : خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّام ، أوَّلُها يوم الأحَدِ ، وآخرُها يومُ الجمعةِ ، فأَعَيا واستراحَ يومَ السبتِ! فذلكَ لا يُعمَلُ فيهِ شيئاً. فأكذبَهم اللهُ بقولهِ { وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ } ، واللُّغُوبُ هو التعبُ ، وسُبحانَ اللهِ أن يُوصَفَ بتَعَبٍ أو نصَبٍ.

(٠/٠)

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } ؛ أي إصبرْ يا مُحَمَّدُ على ما يقُولون من الأذى والتكذيب ، وهذا قبلَ أن يؤمَرَ بالقتال ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } ؛ أي صَلِّ بأَمرِ ربكَ واحْمَدْهُ ، { قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ } ؛ أرادَ بذلك صلاةَ الفجرِ وصلاةَ العصرِ. وَقِيْلَ : معناهُ : قبلَ الغروب :

الظهرَ والعصرَ ، { وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ } ؛ يعني : صلاةَ المغرب والعشاءِ. وسُمِّيت الصلاةُ تَسبيحاً لِمَا فيها من التسبيحِ : (سُبْحَانَ رَبِيَ الْعَظِيمِ ، وَسُبْحَانَ رَبِيَ الأَعْلَى).

وقولهُ تعالى : { وَأَدْبَارَ السُّجُودِ } ؛ يعني الرَّكعتين بعدَ المغرب وقبلَ الوترِ. وَقِيْلَ : التسبيحُ في أواخرِ الصَّلاة ، يُسَبحُونَ اللهَ ثلاثاً وثلاثين ، ويَحمَدُون ثلاثاً وثلاثين ، ويُكَبرُونَ ثلاثاً وثلاثين. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : " أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ صَلاَتِهِ عِنْدَ انْصِرَافِهِ : { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ... } إلَى آخرِ السُّورة ".

وعن الشعبيِّ والأوزاعيِّ أنَّهما قالا : (أَدْبَارُ السُّجُودِ الرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِب ، وأَدْبَارُ النُّجُومِ : الرَّكْعَتَانِ قَبْلَ الْفَجْرِ). وقال ابنُ زيدٍ : (مَعْنَى قَوْلِهِ { وَأَدْبَارَ السُّجُودِ } وَهُوَ النَّوَافِلُ ، وَأَدْبَارُ الْمَكْتُوبَاتِ).

قرأ الحسنُ وأبو عمرٍو ويعقوبُ وعاصم والكسائيُّ وابنُ عامرٍ : (وَأَدْبَارَ) بفتحِ الألف جمعُ الدُّبُرِ. وقرأ الباقون بالكسرِ على المصدر مِن أدْبَرَ يُدْبِرُ إدْبَاراً.

(٠/٠)

وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ } ؛ أي استمعْ يا مُحَمَّدُ صيحةَ القيامةِ والبعثِ والنَّشرِ ، ويومَ النداءِ هو يومُ صَيحَةِ إسرافيلَ ، وهو يومُ النَّفْخَةِ الأخيرةِ ، يقومُ فيه على صخرةِ بيتِ المقدسِ فينفخُ في الصُّور ، والصَّخرةُ أقربُ مكانٍ من الأرضِ إلى السَّماء باثْنَي عشر مِيلاً كذا قال الكلبيُّ.

وفي الحديثِ : " أَنَّهُ يُنَادِي : أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ ، وَالْعُرُوقُ الْمُتَمَزِّقَةُ ، وَالشُّعُورُ الْمُتَفَرِّقَةُ ، أُخْرُجْنَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ فَيَكُنَّ ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ".

(٠/٠)

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢)

وقوله تعالى : { يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ } ؛ أي بالبعثِ ، وَقِيْلَ : إنَّها كائنةٌ بالحقِّ ، { ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ } ؛ أي مِن القبور إلى المحشَرِ.

(٠/٠)

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ } ؛ أي نُحيي الأمواتَ ونُمِيتُ الأحياءَ ، { وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ } ؛ في الآخرةِ للجَزاءِ.

(٠/٠)

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤)

وقولُه تعالى : { يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً } ؛ أي تتصَدَّعُ عنهم مُسرعين ، والمعنى يوم تشَقَّقُ الأرضُ عنهم خارجين سِرَاعاً يُسرِعُونَ إلى الدَّاعي ، { ذَلِكَ } ؛ الحشرُ ، { حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ } ؛ أي هَيِّنٌ وسَهْلٌ.

(٠/٠)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ } ؛ يا مُحَمَّدُ مِن تكذيبكَ من أمرِ البعث وغيرِ ذلك ، يعني كفَّارَ مكَّة ، { وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ } ؛ أي بُمسَلَّطٍ قَهَّارٍ تُجبرُهُمْ على الإسلامِ ، إنما بُعِثتَ مُذكِّراً مُحَذِّراً ، وذلك قبلَ أن يُؤمَرَ بالقتالِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ } ؛ أي عِظْ به ، { مَن يَخَافُ وَعِيدِ } ؛ وإنما خَصَّ الخائفِين بالوعظِ ؛ لأنَّهم همُ الذي يَنتَفِعُونَ بذلك ، والمعنى : ذَكِّرْ بالقُرآنِ مَن يخافُ ما وعَدتُ مَن عصَانِي من العذاب.

(٠/٠)

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢)

{ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً } ؛ يعين الرِّياحَ تَذرُوا الترابَ ، وتَهشِمُ النباتَ ، أي تُفَرِّقهُ ، وهي مخفوضةٌ على القسَمِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً } ؛ يعني السَّحابَ تَحمِلُ ثُقْلاً من ماءِ المطرِ ، فتصيرُ كالْمُوقَدَةِ ، والوِقْرُ بكسرِ الواو الْحِمْلُ ، والوَقْرُ بفتح الواو الثُّقلُ في الأُذن.

(٠/٠)

فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً } ؛ يعني السُّفن تجري في الماءِ جَرْياً سَهْلاً مع عِظَمِها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً } ؛ يعني الملائكةَ يَقسِمُونَ الأُمُورَ بين الخلقِ على ما أُمِرُوا به من الأرزاقِ وغيرِها. أقسمَ اللهُ بهذه الأشياءِ لِمَا فيها من الدَّلالةِ على صَنعَتِهِ وقُدرتِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } ؛ يعني إنَّ الذي تُوعَدون من الثَّواب والعقاب لصَادِقٌ ، { وَإِنَّ الدِّينَ } ؛ أي الجزاءَ ، { لَوَاقِعٌ } ؛ كائنٌ يومَ القيامةِ.

وعن عليٍّ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ ذاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَةٍ : (سَلُونِي فَوَاللهِ لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ إلاَّ وَسَأُخْبِرُكُمْ بِهِ. فَقَالَ رَجُلٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا الذاريَاتِ ذرْواً ؟ فَقَالَ : الرِّيَاحُ : وَقَالَ : مَا الْحَامِلاَتِ وقْراً ؟ قَالَ : السَّحَابُ. قَالَ : مَا الْجَارِيَاتِ يُسْراً ؟ قَالَ : السُّفُنُ. قَالَ : مَا الْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ؟ قَالَ : الْمَلاَئِكَةُ).

وعن الأعرجِ قال : بَلَغَنَا أنَّ مَسَاكِنَ الرِّيَاحِ تَحْتَ أَجْنِحَةِ الْكُرُوبِيِّينَ حَمَلَةِ الْكُرْسِيِّ ، فَتَهِيجُ مِنْ ثَمَّ فَتَقَعُ بعَجَلَةِ الشَّمْسِ ، ثُمَّ تَهِيجُ مِنْ عَجَلَةِ الشَّمْسِ فَتَقَعُ برُؤُوسِ الجِبَالِ ، ثُمَّ تَهِيجُ مِنْ رُؤُوسِ الجِبَالِ فَتَقَعُ فِي البَرِّ ، وأمَّا الشِّمَالُ فإنَّهَا تَمُرُّ بجَنَّةِ عَدْنٍ ، فَتَأْخُذُ مِنْ عَرْفِ طِيبِهَا ، فَتَمُرُّ عَلَى أَرْوَاحِ الصِّدِّيقِينَ ، ثُمَّ يَكُونُ مَهَبُّهَا مِنْ كُرْسِي بَنَاتِ نَعْشٍ إلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ ، وَتَهُبُّ الدُّبُورُ مِن مَغْرِبِ الشَّمْسِ إلى مَطْلَعِ سُهَيْلٍ ، وَتَهُبُّ الصَّبَا مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إلى مَغْرِبِ بَنَاتِ نَعْشٍ ، لاَ تَدْخُلُ هَذِهِ فِي حَدِّ هَذِهِ ، وَلاَ هَذِهِ فِي حَدِّ هَذِهِ).

(٠/٠)

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ } ؛ هذا قسَمٌ آخرُ ، ومعناهُ : والسَّماءِ ذاتِ الْخَلْقِ الْحَسَنِ المستَوِي ، هذا قولُ عكرمةَ ، قالَ : (أَلَمْ تَرَ إِلَى النَّسَّاجِ إذا نَسَجَ الثَّوْبَ فَأَجَادَ نَسْجَهُ ، قِيْلَ : مَا أَحْسَنَ حَبْكَهُ!) ، وبهِ قالَ ابنُ عبَّاس وقتادةُ والربيع. وقال سعيدُ بن جبير : (وَمَعْنَاهُ : ذاتِ الزِّينَةِ). وقال مجاهدُ : (وَالسَّمَاءِ ذاتِ الْبُنْيَانِ الْمُتْقَنِ). وقال الضحَّاكُ : (ذاتِ الطَّرِيقِ الَّتِي تُرَى فِيهَا كَحُبُكِ الْمَاءِ إذا ضَرَبَتْهُ الرِّيَاحُ ، وَحُبُكِ الرَّمْلِ إذا سَفَّتْهُ الرِّيحُ ، وَحُبُكِ الشَّعْرِ الْجَعْدِ ، وَحُبُكِ الثَّوْب الْحَسَنِ النَّسِيجِ).

والْحُبُوكُ في اللغة : مَا أُجِيدَ عَمَلُهُ ، وواحدُ الْحُبُكِ حِبَاكٌ ، مثلُ مِثَالٍ ومُثُلٍ. ويجوزُ أن يكون واحدةُ حَبيكَةٍ مثلُ طَرِيقَةٍ وَطُرُقٍ. وَقِيْلَ : الْحُبُكُ طَرِيقُ الملائكةِ ، وقال الحسنُ : (حَبَكَهَا زَيَّنَهَا بالنُّجُومِ). وَقِيْلَ : (ذاتِ الْحُبُكِ) أي ذاتِ الْخَلْقِ الشَّديدِ ، قال تعالى : { وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً }[النبأ : ١٢].

(٠/٠)

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨)

وقولهُ تعالى : { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ } ؛ هذا جوابُ القسَمِ الثاني ، والمعنى : إنَّكم يا أهلَ مكَّة لَفِي قولٍ مُختَلِفٍ من بين مُصَدِّقٍ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم ومُكذِّبٍ به ، ومُتوَقِّفٍ في أمرِهِ ، وبعضُكم يقولُ في مُحَمَّدٍ : هو شاعرٌ ، وبعضكم يقول : مجنونٌ ، وفي القرآنِ يقول بعضُكم : هو سحرٌ ، وبعضكم يقول : هو كهَانَةٌ ، وبعضكم يقولُ : هو أساطيرُ الأوَّلين.

(٠/٠)

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ } ؛ أي يَنصَرِفُ عن الإيمانِ مَن صُرِفَ حتى يُكَذِّبَ بِهِ ، يعني بذلك مَن حَرَمَهُ اللهُ الإيمان بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ.

(٠/٠)

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ } ؛ أي لُعِنَ الكَذابُونَ ، وقال ابنُ عبَّاس : (الْمُرْتَابُونَ) ، والقَتْلُ إذا أُخبرَ به عن اللهِ كان بمعنَى اللَّعْنِ ؛ لأنَّ مَن لَعَنَهُ اللهُ فهو بمنْزِلة المقتولِ الهالكِ ، كما قالَ اللهُ{ قُتِلَ الإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ }[عبس : ١٧] أي لُعِنَ. والْخَرَّاصُونَ : همُ الكذابُونَ.
قال الفرَّاء : (وَالْمُرَادُ بِهِمْ هَهُنَا الَّذِينَ قَالُوا : مُحَمَّدٌ شَاعِرٌ وَكَذابُ وَمَجْنُونٌ وَسَاحِرٌ). والْخَارصُ : هو الذي يقطعُ في الأمور والْحُكمِ بمقدارِهِ بالتَّخمِينِ ، يعني مِن غير علمٍ ، ومنه خَارصُ الذي يقطعُ في مقدارِهِ بغيرِ حقيقةٍ.

(٠/٠)

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ } ؛ نَعْتٌ لهم ، والغَمْرَةُ هي الجهلُ ، ومنه الغَمْرُ الجهلُ ، والسَّاهِي هو الغافلُ عن أمرِ الآخرة. والمعنى : الذين هُم في غفلةٍ وعمًى وجهالةٍ عن أمرِ الآخرة ، سَاهُونَ لاَهُونَ.

(٠/٠)

يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ } ؛ أي يسأَلون متى يكونُ الجزاءُ على وجهِ الإنكار ، يقولون : يا مُحَمَّدُ متى يومُ الجزاءِ ، تَكذيباً منهم واستهزاءً ، فأُجِيبُوا بما يَسُوءُهم ، فقيل : { يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ } ؛ أي يُحرَقون ويُنضَجون ويعذبون بها.

يقالُ : فَتَنْتُ الذهبَ إذا أحرقتُ الغشَّ الذي فيه ، والكفارُ غِشٌّ كلُّهم فيُحرَقون ، ويقولُ لَهم خَزَنَةُ النار : { ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ } ؛ أي حَرِيقَكم وعذابَكم ، { هَاذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ } ؛ في الدُّنيا تَكذيباً به. وإنَّما لم يقُل : فِتنَتَكم هذهِ ؛ لأنَّ الفتنةَ ههُنا بمعنى العذاب ، فردَّ الإشارةَ إلى المعنَى.

(٠/٠)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ } أي قَابلين ما أعطَاهُم ربُّهم من كرامةٍ في الجنَّة. وَقِيْلَ : معناهُ : عَامِلين بما أمَرَهم ربُّهم في الدُّنيا ، وقولهُ تعالى : { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ } ؛ في الدُّنيا في أعمالِهم ، وقولهُ تعالى : { كَانُواْ قَلِيلاً مِّن اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ } ؛ أي ما ينَامُون ، هذا بيانُ إحسانِهم.

والْهُجُوعُ : النَّومُ باللَّيلِ دون النَّهار ، و(مَا) زائدةٌ ، والمعنى : كانُوا يَهجَعُونَ قليلاً من اللَّيل ويُصَلُّونَ أكثرَ اللَّيلِ. وَقِيْلَ : معناهُ : قَلَّ ليلةً أتت عليهم هَجَعُوها كلَّها ، وقال مجاهدُ : (كَانُوا لاَ يَنَامُونَ كُلَّ اللَّيْلِ).

واختارَ قومٌ الوقفَ على قولهِ { كَانُواْ قَلِيلاً } على معنى : كَانُوا من الناسِ قَليلاً ، وهو قولُ الضحَّاك ومقاتل. ثم ابتدأ فقالَ : { مِّن اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ } وهذا على نفيِ النومِ عنهم البتَّةَ. وَقِيْلَ : معناهُ : كانوا لا ينَامُون حتى يُصَلُّوا الْعَتْمَةَ ، وقال أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه : (يُصَلُّونَ مَا بَيْنَ الْمَغْرِب وَالْعِشَاءِ).

وعن جعفرَ بن محمَّد أنه قال : (مَنْ لَمْ يَهْجَعْ مَا بَيْنَ الْمَغْرِب وَالْعِشاءِ فَهُوَ مِنْهُمْ) ، عن أبي ذرٍّ قال : " سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ : أيُّ صَلاَةِ اللَّيْلِ أفْضَلُ ؟ قَالَ : " نِصْفُ اللَّيْلِ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ " قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } ؛ قال الحسنُ : (كَانُوا يَمُدُّونَ الصَّلاَةَ إِلَى الْعَصْرِ ثُمَّ يَأْخُذُونَ فِي الاسْتِغْفَار بالأَسْحَار).

(٠/٠)

وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)

وقولهُ تعالى : { وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ } ؛ يعني بذلك الحقِّ الزكاةَ ، فليس عليهم مِن سِوَاها ، والسائلُ : هو الذي يسأَلُ الناسَ ، والْمَحْرُومُ : هو الذي لا يسألُ ، يَحْرِمُ نفسَهُ بتركِ سُؤالِهِ ، ويحرِمهُ الناسُ بتركِ إعطائهِ.

وقال إبراهيمُ : (الْمَحْرُومُ : هُوَ الَّذِي لاَ سَهْمَ لَهُ فِي الْغَنِيمَةِ) ، وقال زيدُ بن أسلَم : (هُوَ الْمُصَابُ ثَمَرُهُ أَوْ زَرْعُهُ أَوْ نَسْلُ مَاشِيَتِهِ) ، ويقالُ : هو صاحبُ الحاجةِ بذهاب مالهِ بدليلِ قوله{ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ }[الواقعة : ٦٦-٦٧].

عن أبي قُلابة قال : كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ لَهُ مَالٌ ، فَجَاءَ سَيْلٌ فَذهَبَ مَالُهُ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم هَذا الْمَحْرُومُ فَأَقْسَمَ لَهُ). وقال قتادةُ والزهري : (هُوَ الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لاَ يَسْأَلُ) ، وقد ذكرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقالَ : " لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلاَ يُفْطَنُ لِحَاجَتِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ".

وعن عبدِالله بن عمرَ والشعبيِّ والحسن ومجاهد أنَّهم قالوا : (فِي الْمَالِ حَقٌّ وَاجِبٌ سِوَى الزَّكَاةِ) ، وَهِيَ الْحُقُوقُ الَّتِي تَلْزَمُ عِنْدَمَا يُعْرَضُ مِنَ الأَمْوَالِ مِنَ النَّفَقَةِ عَلَى الْوَالِدَيْنِ إذا كَانَا فَقِيرَيْنِ ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ الْمَحْرَمِ ، وَمَا يَجِبُ مِنْ إطْعَامِ الْمُضْطَرِّ وَحَمْلِ الْمُنْقَطِعِ وَغَيْرِ ذلِكَ.

(٠/٠)

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ } ؛ آياتُ الأرضِ جِبالُها وأنْهارُها واختلافُ نباتِها وبحارها وأشجارها ، بذلك كلِّه دلائلُ توحيدِ الله لِمَن أيقنَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } ؛ معناهُ : وفي أنفُسِكم آياتٌ إذ كانت نطفةً ثم علقةً ثم مُضغةً ثم عَظْماً إلى نَفْخِ الروحِ.

وقال عطاءُ : (يَعْنِي اخْتِلاَفَ الأَلْسِنَةِ وَالصُّوَرِ وَالأَلْوَانِ وَالطَّبَائِعِ). وقال ابنُ الزُّبير : (هُوَ أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ مِنْ مَكَانٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ يَخْرُجُ بَعْدَ ذلِكَ مِنْ مَكَانَيْنِ ، مَكَانِ الْغَائِطِ وَمَكَانِ الْبَوْلِ ، حَتَّى أَنَّهُ لَوْ شَرِبَ لَبَناً مَحْضاً خَرَجَ مَاءً). وقولهُ تعالى { أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } أي أفلا تنظُرون بقُلوبكم نظرَ مَن كان يرَى الحقَّ بعَينهِ.

(٠/٠)

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ } ؛ يعني المطرَ الذي هو سببُ النباتِ ، والنباتُ هو مما قَسَمَهُ اللهُ تعالى للعبادِ وكَتبَهُ في السَّماء ، أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ أرزاقَ العبادِ حيث لا يأكلهُ السُّوس ولا تنالهُ اللُّصوصُ ، فقال تعالى : { وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ }.

وعن واصل الأحدب أنَّهُ قرأ هذه الآيةَ فقال : (إنِّي أرَى رزْقِي فِي السَّمَاءِ وَأنَا أطْلُبُهُ فِي الأَرْضِ ، فَدَخَلَ خَرِبَةً فَمَكَثَ فِيهَا لَيَالِيَ لاَ يُصِيبُ شَيْئاً ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الرَابعِ إذْ هُوَ خُوصٍ صُرَّةٍ مِنْ دَوْخَلَّةٍ رُطَب ، فَلَمْ يَزَلْ كَذلِكَ حَتَّى مَاتَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تُوعَدُونَ } ؛ قال عطاءُ : (مَعْنَاهُ : وَفِي السَّمَاءِ مَا تُوعَدُونَ مِنَ الثَّوَاب وَالْعِقَاب مَكْتُوبٌ) ، وقال الكلبيُّ : (وَمَا تُوعَدُونَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ). وقال مجاهدُ : (الْجَنَّةِ وَالنَّار).

(٠/٠)

فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ } أقسَمَ اللهُ تعالى بنَفسهِ ، والذي بَيَّنَهُ مِن أمرِ الرِّزقِ وغيرِه (لَصِدْقٌ) كان نِطقُكم الذي هو الصدقُ من كلمةِ التَّوحيدِ ونحوِها حقٌّ قرأهُ أهلُ الكوفة (مِثْلُ مَا أنَّكُم) برفعِ (مِثْلُ) على أنَّهُ صفةٌ لقوله (لَحَقٌّ). وقرأ الباقون بالنصب على التركِ على معنى إنه يَحِقُّ حَقّاً { مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ } ، وَقِيْلَ : تقديرهُ : كَمِثْلِ ما أنَّكم تَنطِقُونَ.

وقالَ بعضُ الحكماء : معنى قولهِ : { مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ } أي كما أنَّ كلَّ إنسانٍ لا ينطقُ بلسانِ غيرِهِ ، كذلك لا يأكلُ إنسانٌ رزقَ غيرِهِ والذي قُدِّرَ له ، ولا يأكلُ إلاَّ رزقَ نفسهِ ، كما لا يتكلَّمُ إلاَّ بلسانِ نفسه.

قال الحسنُ : (بَلَغَنِي أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ : " قَاتَلَ اللهُ أقْوَاماً أقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ بنَفْسِهِ فَلَمْ يُصَدِّقُوهُ " ، وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : "

لَوْ أنَّ أحَدَكُمْ فَرَّ مِنْ رزْقِهِ لَتبعُهُ كَمَا يَتْبَعُهُ الْمَوْتُ " ، قال الشاعرُ : أسْعَى لأَطْلُبَهُ وَالرِّزْقُ يَطْلُبُنِي وَالرِّزْقُ أكْثَرُ لِي مِنِّي لَهُ طَلَبَا

(٠/٠)

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ } ؛ أي قد أتاكَ يا مُحَمَّدُ أضيافُ إبراهيم عليه السلام الذي أكرَمَهم بخِدمَتهِ وقيامهِ بين أيديهم ، قال ابنُ عبَّاس ومقاتل : (مَعْنَى الآيَةِ : قَدْ أَتَاكَ وَلَمْ يَكُنْ إِذْ ذاكَ آتَاكَ إِيَّاهُ) ، وقولهُ تعالى { الْمُكْرَمِينَ } يعني عندَ اللهِ.

وذكرَ ابنُ عبَّاس : (أنَّ أضْيَافَ إِبْرَاهِيمَ : إِسْرَافِيلُ وَجِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ). وقال مقاتلُ : (يَعْنِي بقَوْلِهِ { الْمُكْرَمِينَ } أيْ أكْرَمَهُمْ إِبْرَاهِيمُ فَأَحْسَنَ عَلَيْهِمُ الْقِيَام ، وَكَانَ لاَ يَقُومُ عَلَى رَأسِ ضَيْفٍ ، فَلَمَّا رَأى هَيْئَتَهُمْ حَسَنَةً قَامَ هُوَ وَامْرَأتُهُ سَارَةُ لِخِدْمَتِهِمْ). وقال الكلبيُّ : (أكْرَمَهُمْ بالْعِجْلِ). قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أوْ لِيَسْكُتْ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ } ؛ وهم جِبرَائِيلُ ومعه مِن الملائكةِ ، قال ابنُ عبَّاس ومقاتلُ : (كَانُوا اثْنَى عَشَرَ مَلَكاً) ، وقال محمَّدُ بن كعبٍ : (كَانُوا سَبْعَةً مَا خَلاَ جِبْرَائِيلَ) ، وقال عطاءُ : (كَانُوا ثَلاَثَةً : جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ } ؛ معناهُ : سَلَّمُوا عليه سَلاَماً. وَقِيْلَ : قالوا أسْلِمْ سَلاماً ؛ كأنَّهم آنَسوهُ من الوَجَلِ. فقال سلامٌ مِنكُم ؛ أي أمِنتُ بما جاءَني من السَّلام. قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَوْمٌ مُّنكَرُونَ } أي إنه لم يَعرِفْهم لأنه ظنَّ أنَّهم من الإنسِ.

(٠/٠)

فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ } ؛ أي عدَلَ ومالَ إلى سارة من حيث لم يَعلَمْ أضيافهُ لأيِّ شيءٍ عدَلَ ، { فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ } ؛ أي كَثِيرِ الشَّحمِ فَوَضَعَهُ بين أيديهم ، قال قتادةُ : (وَكَانَ عَامَّةَ مَالِ إِبْرَاهِيمَ الْبَقَرُ) { فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ } ؛ ليَأكلوهُ ، فلم يأكُلوا ، { قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ } ؛ من طعامِي ، { فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } ؛ أي فأَضمرَ في نفسهِ خيفةً منهم حيث لم يأكلُوا من طعامهِ ، ظنَّ أنَّهم يُريدون به سوءً ، فلمَّا عَلِموا خوفَهُ ، { قَالُواْ لاَ تَخَفْ } ؛ إنَّا رسُلُ ربكَ ، { وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلَيمٍ } ؛ حَليمٍ في صِغَرِهِ ، عليمٍ في كِبَرِهِ وهو إسحقُ عليه السلام.

(٠/٠)

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ } ؛ أي في ضجَّةٍ وصَيحَةٍ ؛ أي أخذتْ تُوَلْوِلُ ؛ أي تقولُ : يَا وَيْلَتَا. وَقِيْلَ : الصَّرَّةُ جماعةُ النساءِ ، مأخوذٌ من الصَّرَّةِ التي هي مجمَعُ الدراهمِ ، ومنه الشَّاةُ الْمُصْرَاةُ ، وقولهُ تعالى : { فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ } ؛ قال مقاتلُ والكلبي : (جَمَعَتْ أصَابعَهَا فَضَرَبَتْ جَنْبَيْهَا تَعَجُّباً).

ومعنى الصَّكِّ : الضربُ للشيءِ بالشيء العريض ، والصَّرَّةُ مأخوذٌ من الصَّرِّ وهو الصوتُ ، كأنَّها جاءت بشِدَّة الصياحِ فلطَمَتْ وجهَها وهي تقولُ : أألِدُ وأنا عجوزٌ عاقرةٌ ، وكانت يومَ البُشرى بنتَ ثَمان وتسعين سَنة ، وكان إبراهيمُ أكبرَ منها بسَنةٍ.

ومعنى قولهِ تعالى : { وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ } ؛ تقديرهُ : أتَلِدُ عجوزٌ عقيم ، وكانت سَارَةُ لَمْ تَلِدْ قبلَ ذلك ، وكان بين البشَارَةِ والولادةِ سنةٌ ، فولدَت سارةُ وهي بنتُ تسعٍ وتسعين سَنة ، وإبراهيمَ يومئذ ابنُ مائةِ سَنة.

(٠/٠)

قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ } ؛ أي كما قُلنا لكِ إنَّكِ ستَلِدِينَ غُلاماً عليماً ، { إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ

الْعَلِيمُ } ؛ الحكيمُ من العَقيمِ بالولد وغيرِ العقيم ، العليمُ بمصالحِ العباد. والعقيمُ في النِّساء هي التي لا تأتِي بالولدِ ، وفي الرِّياح هي التي لا تأتِي بالمطرِ ، ولا يكون فيها الخيرُ.

(٠/٠)

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ } ؛ أي قالَ إبراهيمُ : ما شَأنُكم وفيما أُرسِلتُم ، { قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ } ؛ كافرِين لنُهلِكَهم بكُفرِهم وعمَلِهم الخبيثِ ، أرادُوا بذلك قومَ لوطٍ.

(٠/٠)

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ } ؛ أرادَ به الحجارةَ المطبوخةَ كالآجُرِّ ، { مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ } ؛ والْمُسَوَّمَةِ الْمُعَلَّمَةِ. رُوي : أنَّها كانت مُخَطَّطَةً بسَوَادٍ في حُمرَةٍ ، وكان على كلِّ حجرٍ اسمُ مَن جُعِلَ إهلاكهُ. والْمُسْرِفُ هو الخارجُ من الحقِّ ، والشِّركُ أسْرَفُ الذنوب وأعظَمُها.

(٠/٠)

فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أرادَ به لُوطاً ومَن كان معه آمَن وهُما ابنتاهُ ، وهما زَعُورَا و ريثَا ، أمرَهم اللهُ تعالى بأنْ يخرجُوا بقِطَعٍ من الليلِ ، ومعنى قولهِ تعالى { مَن كَانَ فِيهَا } أي في قرية لوطٍ ، وذلك قولهُ{ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ }[هود : ٨١] أمرَ اللهُ لوطاً بأنْ يخرُجَ هو ومَن معه مِن المؤمنين لئَلاَّ يُصيبَهم العذابُ.

(٠/٠)

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ } ؛ أي غيرَ أهلِ بيتٍ مِن المسلمين ، يعني لُوطاً وبنتَيهِ ، وصَفَهم اللهُ بالإيمانِ والإسلام جميعاً ؛ لأنه مَا مِن مؤمنٍ إلاّ وهو مسلمٌ ، والمرادُ بالإسلامِ هَهُنا الإيمانُ.

(٠/٠)

وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَكْنَا فِيهَآ آيَةً } ؛ أي وتَركنا في مدينةِ قومِ لوطٍ عليه السلام علامةً ، { لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ } ؛ تدُلُّهم على أنَّ اللهَ أهلكَهم فيخَافُون مثلَ عذابهم ، فإن اقتلاعَ البُلدان لا يقدرُ عليه أحدٌ إلاَّ اللهُ.

(٠/٠)

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } ؛ أي وفِي خبرِ موسى عليه السلام وقضِيَّتِهِ مع فرعون آيَةٌ أيضاً ، وقولهُ تعالى { بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } أي بحُجَّةٍ ظاهرةٍ وهي العصَا واليد.

(٠/٠)

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ } ؛ أي أعرضَ فرعونُ عن الإيمان به بجَمعهِ وجُندهِ الذين يتَقَوَّى كالرُّكن الذي يتقوَّى به البنيان ، { وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } ؛ ونَسَبَ موسى إلى السِّحر والجنون مع ظُهور حُجَّتهِ عليه.

(٠/٠)

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } ؛ أي فعاقَبناهُ وجُموعَهُ فطَرَحناهُم في البحرِ وأغرقناهم ، { وَهُوَ مُلِيمٌ } ؛ أي وهو مُستَوَجِبٌ الْمَلاَمَةَ ؛ لأنه أتَى بما يُلامُ عليه حين أدَّعَى الرُّبوبيَّةَ وكذبَ الرُّسلَ.

(٠/٠)

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ } ؛ أي وفي خَبرِ قومِ هودٍ آيةٌ أيضاً ، حين أرسَلنا عليه الدُّبُورَ والعقيمَ التي لا خيرَ لَهم فيها ولا بركةَ ولا تلقَحُ شَجراً ولا تحمِلُ مَطراً ، إنما هي ريحُ الهلاكِ ، وكانت تلك الريحُ التي أُهلِكَتْ بها عادٌ ريحَ الدُّبُور ، قال صلى الله عليه وسلم : " نُصِرْتُ بالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدُّبُور ".

(٠/٠)

مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)

وقولهُ تعالى : { مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ } ؛ معناهُ : ما تتركُ من شيءٍ مرَّت عليه

مِن أنفُسِهم وأنعامِهم إلاَّ جعلتْهُ كالْحَطِيمِ البَالِي الْمُنْسَحِقِ. ويقالُ : الرَّمِيمُ : هو الورقُ اليَابسُ المتحَطِّم مثل الْهَشِيمِ الذي يَسِيرُ كالْهَبَاءِ بأَيسَرِ ما تجري عليه.
قال قتادة : (مَعْنَاهُ : إلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ الشَّجَرِ) ، وقال أبو العالية : (كَالتُّرَاب الْمُدَقَّقِ) ، وقال ابنُ عبَّاس : (كَالشَّيْءِ الْهَالِكِ) ، وفي الحديثِ : " أنَّ تِلْكَ الرِّيحَ كَانَتْ تَتْبَعُ مُسَافِرِيهِمْ وَمَا شُدَّ مِنْ مَتَاعِهِمْ فَتَحْمِلُهُ فَتُلْقِيَهُ فِي وَادِي صَنْعَاءَ ، وَلَمْ تَضُرَّ غَرِيباً لَيْسَ مِنْهُمْ ".

(٠/٠)

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّى حِينٍ } ؛ أي في خبرِ ثَمود وإهلاكِهم آيةٌ أيضاً ، إذ قِيْلَ لَهم تَمَتَّعُوا إنْ أطَعتُم اللهَ إلى آجالِكم ، { فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ } ؛ فأعرَضُوا عن قَبولِ أمرِ الله ، فأخذهم العذابُ الْمُحْرِقُ وهم ينظُرون إلى أنفُسِهم وإلى قومِهم يحترِقُون في العذاب. وَقِيْلَ : معناهُ : لما عَقَرُوا الناقةَ قالَ لهم صالِحُ : تَمتَّعُوا ثلاثةَ أيامٍ ، وهو قولهُ { حَتَّى حِينٍ } ، والتَّمَتُّعُ : التَّلَذُّذُ بأسباب اللَّذة من المناظرِ والروائح الطيِّبة وأشباهِ ذلك.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ } ؛ يعني بعدَ مُضِيِّ ثلاثةِ أيَّام. والصَّاعِقَةُ : كلُّ عذابٍ مُهلِكٍ ، وقرأ الكسائيُّ (الصَّعْقَةُ) وهي الصوتُ الشَّديد ، { وَهُمْ يَنظُرُونَ } ؛ ذلك عَيَاناً ، { فَمَا اسْتَطَاعُواْ مِن قِيَامٍ } ؛ ما قَدَروا على النُّهوض من مقامِهم حين غَشِيَهم العذابُ فيَرُدُّوهُ ، { وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ } ؛ أي مَا كانت لهم قوَّةٌ يَمتَنِعُونَ بها مِنَّا ، ولا كانوا طَالِبين نَاصراً لهم يمنعُهم من عذاب الله.

(٠/٠)

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ } ؛ فيه قراءَتان ، قرأ أبو عمرٍو وحمزةُ والكسائي وخلَف (وَقَوْمِ) بالخفضِ ؛ أي وفِي قومِ نوحٍ وهلاكهم بالطُّوفان آيةٌ أيضاً ، وقرأ الباقون بالنَّصب على معنى : وأهلَكنا قومَ نوحٍ من قبلِ عادٍ وثمود. وَقِيْلَ : نُصب على تقديرِ : وَاذكُرْ قومَ نوحٍ من قبلِ عادٍ وثمود وقومِ فرعون

، { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ } ؛ أي خارجين من طاعةِ الله. وَقِيْلَ : انتصبَ قولهُ { وَقَوْمَ نُوحٍ } على قراءةِ النصب عَطفاً على الهاءِ والميم في قوله{ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ }[الذاريات : ٤٠] كأنه قالَ وأغرَقنا فرعونَ وجنودَهُ ، وأغرَقنا قومَ نوحٍ من قبلُ.

(٠/٠)

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ } ؛ أي بقُدرَةٍ وقوَّة ، { وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } ؛ في السَّماء على الأرضِ في كلِّ جهاتٍ ، ونحن نقدرُ على أكثرَ من ذلك ، ولم يكن هذا جهدُ قوَّتنا ، وقال الحسنُ : (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ فَوْقَهَا وَمَنْ تَحْتَهَا).

(٠/٠)

وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا } ؛ أي بسَطنَاها على الماءِ ، { فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ } ؛ الفارشُون ، والْمَاهِدُ في اللغة : هو الْمُوَطِّبُ للشَّيءِ الْمُهَيِّءُ لِمَا يصلحُ الاستقرارُ عليه.

(٠/٠)

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ } ؛ أي ومِن كلِّ شيءٍ خَلقنا مِن الحيوان ذكراً أو أُنثى ، { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ؛ وَقِيْلَ : المرادُ بالزَّوجين صِنفَين ولَونَين من حلوٍ وحامض وأبيض لكي يعتَبروا ويتَّعظوا بذلك ، ويعلموا أنه ليس مع اللهِ تعالى إلهٌ غيره.

(٠/٠)

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١)

قولهُ تعالى : { فَفِرُّواْ إِلَى اللَّهِ } ؛ أي اهرُبوا من عقابِه إلى رَحمتهِ بالإخلاصِ في طاعته وتركِ ما يشغَلُكم عن أوامرِه. وَقِيْلَ : معناهُ : فَفِرُّوا إلى الله مِن ذُنوبكم واهرُبوا من الكفرِ إلى الإسلامِ ، ومِن العصيان إلى الطاعةِ ، { إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } ؛ أُنذرُكم العقابَ على الكفرِ والمعصيةِ وأُخَوِّفُكم عذابَ الله بلُغَةٍ تَعرِفُونَها متى تركتم الفرار إلى الله من الله ، { وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهاً آخَرَ } ؛ أي تَصِفُوهُ بالشَّريك والولدِ ، { إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } ؛ رسولٌ أُخَوِّفُكم لِتَمتنِعُوا أنْ تجعَلُوا مع اللهِ إلهاً آخرَ غيرهُ.

(٠/٠)

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : {كَذَلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } ؛ أي كمَا نَسَبَكَ قومُكَ إلى السِّحر مرَّةً والجنونِ أُخرى ، هكذا ما أتَى الذين من قبلِ قَومِكَ من رسولٍ دعَاهُم إلى اللهِ إلاَّ قالوا لذلك الرسُولِ : هو { سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ }.

(٠/٠)

أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)

يقولُ اللهُ تعالى : { أَتَوَاصَوْاْ بِهِ } ؛ معناهُ أتَواصَوا بهذا القولِ فتوافَقُوا عليهِ وأوصَى كلُّ قوم مَن بعدَهم أنْ يقولوا مثلَ هذا لرسُولهم ، هذا اللفظُ لفظُ الاستفهامِ ، ومعناهُ : التوبيخُ والإنكار. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } ؛ يعني أهلَ مكَّة قومٌ طاغُونَ.

(٠/٠)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ } ؛ أي أعرِضْ يا مُحَمَّدُ عن هؤلاءِ المشركين ، فما أنتَ عندنا بمَلُومٍ ، فأنَّكَ قد بلَّغتَ وأنذرتَ ، { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي وعِظْ أهلَ مكَّة بالقرآنِ ، فإن العِظَةَ بالقرآن تنفعُ المؤمنين وتَزيدُهم صَلاحاً ، يعني تنفعُ مَن عَلِمَ اللهُ أنْ يُؤمِنَ منهم.
وقال الكلبيُّ : (مَعْنَاهُ : عِظْ بالْقُرْآنِ مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِكَ ، فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ).

(٠/٠)

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } ؛ يعني : ما خَلقتُهم لجرِّ منفعةٍ ولا لدفعِ مضَرَّة ولا الاستكثار بهم من قلَّة ، وما خلَقتُهم إلاَّ لآمُرَهم بعبادَتِي وأنْهَاهُمْ عن مَعصِيَتي ، ولو أنَّهم خُلِقُوا لعبادةِ ربهم لَمَا عَصَوا ربَّهم طرفةَ عينٍ. وقال ابنُ عبَّاس : (هَذِهِ الآيَةُ خَاصَّةٌ لأَهْلِ طَاعَةِ اللهِ لأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ }[الاعراف : ١٧٩]).
وقرأ ابنُ عبَّاس : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) ، وقال عليُّ بن أبي طالبٍ : (مَعْنَى الآيَةِ : مَا خَلَقْتُهُمْ إِلاَّ لآمُرَهُمْ لِيَعْبُدُونِي وَأَدْعُوَهُمْ إِلَى عِبَادَتِي).

(٠/٠)

مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ } ؛ أي لم يكلِّفهُم أن يرزُقوا أنفُسَهم ، ولا أحَداً من خلقِي ، ولم أكلِّفهُم أن يَرزقُونِي ، ولا يُعِينُونِي على عطاءِ الرزقِ لعبادِي.

والمعنى : ما أريدُ منهم أن يَرزُقوا أحَداً من خلقِي ، ولا أنْ يرزُقوا أنفُسَهم ، وما أريدُ أن يُطعِمُوا أحداً من خَلقِي ، ولا أنْ يُطعِمُوا أنفسهم ، وإنما أسندَ الإطعامَ إلى نفسهِ ؛ لأن الخلقَ عيالُ اللهِ ، فمَن أطعمَ عيالَ أحدٍ فقد أطعمَهُ.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } ؛ معناهُ : إنَّ اللهَ هو الرزَّاقُ جميعَ خَلقهِ ، ذو القوَّة والاقتدار على جميعِ ما خلقَ ، { الْمَتِينُ } يعني القويُّ. قرأ العامَّة (الْمَتِينُ) بالرفعِ (ذُو) أو هو اللهُ سبحانه ، وقرأ الأعمشُ (الْمَتِينِ) بالخفضِ على نعتِ القوَّة ، وكان مِن حقِّه أن يقولَ : الْمَتِينَةِ ، وإنما ذكرَهُ لأنه ذهبَ به إلى الشيءِ الْمُبْرَمِ الْمُحْكَمِ.

(٠/٠)

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ } أخبرَ اللهُ تعالى بهذا أن لِمُشرِكي مكَّة من العذاب مثلَ ما لغيرِهم من الأُمم الكافرةِ. والمعنى : فإنَّ للذين كفَرُوا نَصيباً من العذاب مثلَ نصيب أصحابهم الذين هلَكُوا نحوُ قومِ نوحٍ وعاد وثمود.
وأصلُ الذنوب الدَّلْوُ المملوءَةُ بالماءِ ، قال ابنُ قتيبة : (كَانُوا يَسْقُونَ فَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ ذنُوبٌ) ، فجعل الذنوبَ مكان الحظِّ والنصيب ، قال الشاعرُ : لَنَا ذنُوبٌ وَلَكُمْ ذنُوبُ فَإنْ أبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُوقال آخرُ : لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا طَارِقَاتٌ لِكُلِّ بَنِي أبٍ مِنْهَا ذنُوبُوقولهُ تعالى : { فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ } أي لا يستَعجِلُونِي بالعذاب ، فإنِّي قد أخَّرتُهم إلى يومِ القيامة ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ } ؛ يعني يومَ القيامةِ.

(٠/٠)

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢)

{ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ } ؛ الطورُ هو الجبلُ الذي كلَّم اللهُ موسَى وهو بمَدْيَنَ بالأرضِ المقدَّسة ، واسمهُ زُبَيْرُ ، وكلُّ جبلٍ فهو طورٌ بالسِّريانية ، قال أبو عُبيدة : (الطُّورُ الْجَبَلُ بالْعَرَبِيَّةِ ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ }[النساء : ١٥٤]) والكتابُ المسطور : هو اللَّوحُ المحفوظُ المتضَمِّن كلَّ الأمُور.

(٠/٠)

فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣)

وقولهُ تعالى : { فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ } ؛ يعني اللَّوح أيضاً تنشرهُ الملائكةُ للدراسةِ وليعلَمُوا ما فيهِ. وَقِيْلَ : الكتابُ المسطورُ : صحائفُ أعمالِ بني آدمَ يومَ القيامةِ ، فيُعطى كلُّ واحدٍ كتابَهُ بيمينهِ أو بشِمالهِ ، ونظيرهُ{ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ }[التكوير : ١٠] وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً }[الاسراء : ١٣].

(٠/٠)

وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ } ؛ هو بيتٌ في السَّماء الرابعةِ بحِيَالِ الكعبةِ ، معمورٌ لِحُسْنِ الثناءِ وزيارةِ الملائكة ، حُرمَتهُ في السَّماء كحُرمَةِ الكعبةِ في الأرض ، ما بينَهُ وبين الكعبةِ إلى نجومِ الأرض السابعةِ حَرَمٌ يدخلهُ كلَّ يومٍ سَبعون ألفَ ملَك ، ثم لا يعُودون إليه أبَداً ، لو سقطَ منه حجرٌ لوقعَ على ظهرِ الكعبة. ويقال : البيتُ المعمور هو الكعبةُ ، مَعْمُورٌ بزيارةِ الناس إياهُ.

(٠/٠)

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ } ؛ يعني السَّماء ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً }[الأنبياء : ٣٢] سَمَّاها سَقْفاً ؛ لأنَّها للأرضِ كالسِّقفِ للبيتِ.

(٠/٠)

وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ } ؛ يعني الموقَدِ الْمَحْمِيِّ ، بمنْزِلة التَّنُّور المسجُور ، كأنه قالَ : والبحرِ المملوءِ بالنَّار الموقَدة ، كما رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قالَ : (هُوَ بَحْرٌ حَارٌّ يُفْتَحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَهَنَّمَ) ، وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " لاَ يَرْكَبُ الْبَحْرَ إلاَّ حَاجٌّ أوْ مُعْتَمِرٌ أوْ مُجَاهِدٌ فِي سَبيلِ اللهِ ، فَإنَّ تَحْتَ الْبُحُور نَارٌ ".
وقال قتادةُ : (الْمَسْجُورُ : الْمَمْلُوءُ) ، وفي الحديثِ : " أنَّ اللهَ تَعَالَى يَجْعَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْبحَارَ كُلَّهَا نَاراً ، فَيَسْجُرُهَا فِي جَهَنَّمَ " وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ : (الْمَسْجُورُ الْمَحْبُوسُ).
وعن عليٍّ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ : (الْبَحْرُ الْمَسْجُورُ بَحْرٌ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ ، عُمْقُهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ إلَى الأَرْضِ السَّابعَةِ وَهُوَ بَحْرٌ غَلِيظٌ ، سُمِّيَ الْحَيوَانُ يُحْيي بِهِ اللهُ الْخَلاَئِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْبَعْثِ تُمْطَرُ أرْبَعِينَ صَبَاحاً فَيَنْبتُونَ بِهِ فِي قُبُورِهِمْ).
أقسمَ اللهُ بهذه الأشياءِ لِمَا فيها من الدَّلالة الواضحةِ على وحدَانِيَّة اللهِ تعالى وعِظَم قُدرتِهِ على أنَّ تعذيبَ المشركين حقٌّ ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ } ؛ أي كائنٌ في الآخرةِ واقعٌ بأهلِهِ ، { مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ } ؛ يدفعهُ عنهم.
ثُم بيَّن متى يقعُ بهم ذلك العذابُ فقال : { يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً } أي تَدُورُ دَوَراناً وتضطربُ وتتحرَّكُ ، والْمَوْرُ في اللغة : الذهابُ والْمَجِيءُ والتردُّد والدورانُ. قِيْلَ : إنَّها تدورُ كما تدورُ الرَّحَى ، ويَمُوجُ بعضُها في بعضٍ.

(٠/٠)

وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً } ؛ أي تسيرُ الجبال على وجهِ الأرض كما يسيرُ السَّحابُ في الدُّنيا فيَستَوِي بالأرضِ. وَقِيْلَ : معناهُ : تزولُ الجبالُ عن أمَاكِنها وتصيرُ هَباءً مَنثوراً ، { فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ } ؛ أي فشِدَّةُ العذاب يومئذ للمُذنِبين ، { الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ } ؛ يخوضُون في حديثِ مُحَمَّدٍ بالتَّكذيب والاستهزاءِ ، يَلْهُونَ بذكرِهِ.

(٠/٠)

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا } ؛ أي يُدفَعون إلى نار جهنَّم دَفْعاً على وُجوهِهم يَخُفُّونَهُ ، قال مقاتلُ : (تُغَلُّ أيْدِيهِمْ إلَى أعْنَاقِهِمْ وَتُجْمَعُ نَوَاصِيهِمْ إلَى أقْدَامِهِمْ ، ثُمَّ يُدْفَعُونَ إلَى نَار جَهَنَّمَ دَفْعاً عَلَى وُجُوهِهِمْ ، حَتَّى إذا دَنَوا مِنْهَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : ذُوقُوا عَذابَ النَّار الَّتِي كُنْتُمْ بهَا تُكَذِّبُونَ فِي الدُّنْيَا).

وَالدَّعُّ : هو الدفعُ بشِدَّة وعُنفٍ ، تدفَعُهم الملائكةُ فيُلقُونَهم في النار على وجه الاستخفافِ ، ويقولون لَهم : { هَاذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ }. قرأ أبُو رجاء العطاردي : (يَوْمَ يُدْعَوْنَ إلَى نَار جَهَنَّمَ دَعَا) بالتخفيفِ من الدُّعاء.

وتقولُ لهم ملائكةُ العذاب : { أَفَسِحْرٌ هَاذَا } ؛ كما كُنتم تَزعُمون في الدُّنيا وتَنسُبون الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ إلى ذلك ، { أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ } ؛ أي قد غَطَّى على أبصاركم ، وهذا على وجهِ التَّوبيخِ ، والمعنى : أتُصَدِّقُونَ الآنَ أنَّ عذابَ الله واقعٌ ، ويقالُ لَهم : { اصْلَوْهَا } ؛ أي اصْلَوا النارَ ، الْزَمُوها وقَاسُوا شدَّتَها ، { فَاصْبِرُواْ } ؛ على العذاب ، { أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ } ؛ الصبرُ والجزَعُ ، { إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ مِن الكفرِ والتكذيب.

(٠/٠)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ } ؛ أي فَاكِهين ؛ أي ذوُوا فَاكِهَةٍ كثيرةٍ ، وفَكِهين متعَجِّبين نَاعِمين ، { وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } ؛ أي ضُرَّهُ عنهم ، يقالُ لَهم : { كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئَاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ أي كُلوا أكْلاً هنيئاً ، واشرَبُوا شُرباً هَنيئاً ، مأمونَ العافيةِ من التُّخمة والسَّقم.

وَقِيْلَ : انتصبَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَنِيئَاً } لأنه في صفةِ المصدر ؛ أي هَنِئتُمْ هَنِيئاً ، وهو أنْ يكون خَالصاً من جميعِ الآفاتِ وأسباب التَّنغيصِ.

قال زيدُ بن أرقمِ : " جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَاب إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا أبَا الْقَاسِمِ ؛ تَزْعُمُ أنَّ أهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ. فَقَالَ : " وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ ؛ إنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُؤْتَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْب وَالْجِمَاعَ " قَالَ الرَّجُلُ : فَإنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ يَكُونُ مِنْهُ الْغَائِطُ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " ذاكَ عَرَقٌ يَفِيضُ مِثْلَ ريحِ الْمِسْكِ ، فَإذا كَانَ ذلِكَ ضَمُرَ لَهُ بَطْنُهُ " ".

(٠/٠)

مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ } ؛ في ذِكْرِ حالهم معناهُ : جالِسين جلسةَ الْمُلُوكِ على سُرُرٍ قد صُفَّ بضعُها إلى بعضٍ ، وقوبلَ بعضُها ببعضٍ ، { وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ } ؛ الْحُورُ : الْبَيْضَاءُ نَقِيَّةُ البياضِ من الْحُسْنِ والكمالِ ، والْعِينِ : الواسعاتِ الأَعْيُنِ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ } ؛ يعني أولادَهم الصِّغار والكبار ؛ لأن الكبارَ يتبَعُون الآباءَ بإيمانِهم منهم ، والصغارَ يتبَعون الآباءَ بإيمانٍ من الآباءِ ، والولدُ يُحْكَمُ له بالإسلامِ تَبعاً للوالدِ ، { أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } ؛ يُرفَعون إليهم لتَقَرَّ بهم أعيُنهم وإنْ كانوا دُونَهم في العملِ تكرُمَةً لآبائهم.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الْمُؤمِنِينَ وَأوْلاَدُهُمْ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْمُشْرِكِينَ وَأوْلاَدُهُمْ فِي النَّار " ورُوي : " أنَّ خَدِيجَةَ بنْتَ خُوَيْلِدٍ سَأَلَتِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عَنْ وَلَدَيْنِ مَاتَا لَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " هُمَا فِي النَّار " ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ } ؛ أي لَمْ نُنْقِصْ الآباءَ من الثواب حين أَلْحَقْنَا بهم ذُرِّيَّتهم.

قرأ أبو عمرٍو (وَأَتْبَعْنَاهُمْ) بالألفِ والنُّون (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بالألف وكسرِ اليَائَين لقولهِ { أَلْحَقْنَا } و(مَا أَلَتْنَا) لئلا يكون الكلامُ على نسقٍ واحد. وقرأ الباقون (وَاتَّبَعَتْهُمْ) بالتاء من غيرِ ألف.

واختلَفُوا في قوله (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بالتاءِ فقرأ نافعُ الأولَ (ذُرِّيَّتُهُمْ) بالتاءِ وضمَّها بغيرِ ألفٍ ، وقرأ الثاني (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بالألف وكسرِ التاء. وقرأ ابنُ عامر (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بالألف فيهما وكسرِ التاء ، وقرأ الباقون بغير ألفٍ فيهما وفتحِ الثانية.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } ؛ أي كلُّ امرئٍ كافرٍ بما عَمِلَ من الشِّرك مُرتَهَنٌ في النار ، والمؤمنُ لا يكون مُرتَهناً لقولهِ : { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ }[المدثر : ٣٨-٣٩] واستثنى المؤمنين.

(٠/٠)

وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ } ؛ معناهُ : نَزِيدُهم في كلِّ وقتٍ مِن ألوانِ الفاكهة ، ومن كلِّ لَحمٍ مما يشتَهُون من الأنعامِ والطُّيور المطبوخِ والمشويِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً } ؛ أي يتعَاطَون ويتناوَلون فيها آنيةً مملوءة من الخمرِ ، هذا من يدِ ذاك ، وذاكَ مِن يدِ هذا ، ولا يكون الكأسُ في اللغة إلاَّ إذا كان مَمْلُوءاً ، فإذا كان فَارغاً فليس بكأسٍ.

(٠/٠)

يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ لَغْوٌ فِيهَا } ؛ أي لا يجري بينَهم كلامُ لغوٍ ولا باطلٍ ، ولا تخاصُمَ ، { وَلاَ تَأْثِيمٌ } ؛ أي لا يكون منهم في حالِ شُربها ما فيه إثْمٌ كما يكونُ في خمرِ الدُّنيا ، وقال ابنُ قتيبة : (مَعْنَاهُ : لاَ تَذْهَبُ بعُقُولِهِمْ فَيَلْهُوا وَيَرْفُثُوا كَمَا يَكُونُ مِنْ خَمْرِ الدُّنْيَا ، وَلاَ يَكُونُ مِنْهُمْ مَا يُؤْثِمُهُمْ) ، والمعنى : أنَّ تلكَ الكأسَ لا تجعلُهم آثِمينَ.

(٠/٠)

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ } ؛ أي يطوفُ عليهم الْخَدَمَةُ بالفواكهِ والأشربةِ وصَفاء { كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ } ؛ في الْحُسْنِ والبياضِ ، { مَّكْنُونٌ } ؛ مَصُونٌ لا تَمسُّهُ الأيدِي.
قال قتادةُ : (ذُكِرَ لَنَا : أنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا نَبيَّ اللهِ ، هَذا الْخَادِمُ فَكَيْفَ الْمَخْدُومُ ؟ فَقَالَ : " وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ ؛ إنَّ فَضْلَ الْمَخْدُومِ عَلَى الْخَادِمِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِب "). قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ أدْنَى أهْلِ الْجَنَّةِ مَنْ يُنَادِي الْخَادِمَ مِنْ خَدَمِهِ ، فَيُجِيبُهُ أَلْفٌ يَقُولُونَ كُلُّهُمْ : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ".

(٠/٠)

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ } ؛ أي أقبلَ بعضُهم على بعضٍ في الزِّيادة يتحدَّثون في الجنَّة ، ويتذاكَرُون ما كانوا فيهِ من التعب والخوفِ فِي الدُّنيا ، ويتساءَلون عن أحوالِهم التي كانت في الدُّنيا.

(٠/٠)

قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)

وقوله تعالى : { قَالُواْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ } ؛ معناهُ : إنَّهم يقولون إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ أنْ ندخُلَ الجنَّة خائفِين في الدُّنيا من القيامةِ وأهوَالِها ، ومِن النار وعذابها بمعصيةٍ وقَعَتْ منَّا أو تقصيرٍ في طاعتنا ، { فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا } بالمغفرةِ وَقَبُولِ الطاعةِ ، { وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ } ؛ أي دفعَ عنَّا عذابَ سَمُومِ جهنَّم ، { إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ } ؛ أي نُوَحِّدهُ ونعبدهُ في الدُّنيا ، { إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ } ؛ أي هو اللَّطيفُ بعبادهِ ، الرَّحيمُ بهم.
والسَّمُومُ : من أسماءِ جهنَّمَ في قولِ الحسن ، وقال الكلبيُّ : (عَذابُ النَّار) ، وقال الزجَّاجُ : (هُوَ لَفْحُ جَهَنَّمَ وَحَرُّهَا). ومن قرأ (إنَّهُ هَوَ) بكسر الهمزِ فإنه استأنفَ الكلامَ.

(٠/٠)

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩)

قَوْلُهُ تعَالَى : { فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ } أي فَعِظْ بالقرآن أهلَ مكَّة ، ولا تترُكْ وَعْظَهم لِنسبَتِهم إياكَ إلى الكهانةِ والجنُونِ ، فلستَ بحمدِ الله كما يقولون.
والكاهنُ هو الْمُبْتَدِعُ القولَ الذي يقولُ : معي تابعٌ من الجنِّ ، والمعنى فما أنتَ بنعمةِ ربكَ بإنعامهِ عليكَ بالنُبوَّة بكاهنٍ ، وهو الذي يُوهِمُ أنه يعلمُ الغيبَ ويُخبرُ بما في غدٍ من غيرِ وحيٍ ؛ أي لستَ تقولُ ما تقولهُ كهانةً ولا تنطقُ إلاَّ بالوحيِ.

(٠/٠)

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } ؛ أي بل يقولون هو شاعرٌ نَنتَظِرُ به نوائبَ الْمَنُونِ فنستريحُ منه ، ورَيْبُ الْمَنُونِ : حوادثُ الدَّهرِ وصُروفهُ ؛ أي ننتظرُ به حَدَثانَ الموتِ وحدَثَان الدَّهرِ ، فيهلَكُ كما هلكَ مَن قبلَهُ من الشُّعراء.

وفي اللغة : مَنَنْتُ الْجَبَلَ ؛ أي قَطَعْتهُ ومَنَتْتُ الشيءَ إذا أنقضتهُ ، والموتُ يقطعُ الأجلَ فسُمِّيَ الْمَنُونَ ، والدهرُ ينقضُ فسُمي المنونُ ، وقد يكون المنونُ بمعنى الْمَنِيَّةِ.

(٠/٠)

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ تَرَبَّصُواْ } ؛ أي انتَظِروا فِيَّ الموتَ ، { فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ } ؛ أي مِن المنتَظِرين عذابَكم ، فعُذِّبوا يومَ بدرٍ بالسَّيف. وَقِيْلَ : معناهُ : قل تَربَّصُوا بيَ الدوائرَ ، فإنِّي معكم مِن المتربصين بكُم.

فأهلكَ اللهُ القومَ الذين قالُوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم هذا القولَ قبل قَبضهِ عليه السَّلام وكان منهم أبُو جهلٍ ، وكانوا يعلَمُون أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ليس بشاعرٍ كما عَلِمُوا أنه صلى الله عليه وسلم ليس بمجنونٍ.

(٠/٠)

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهَـاذَآ } ؛ معناهُ : أم تأمُرهم عُقُولُهم بهذا ، وذلك أنَّ قريشاً كانوا يُعَدُّونَ في الجاهليَّة أهلَ الأحلامِ ويُوصَفون بالعقلِ ، فأَزْرَى اللهُ بحُلُومِهم حيث لم يُثْمِرْ لَهم معرفةُ الحقِّ من الباطلِ. وَقِيْلَ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : (مَا بَالُ قَوْمِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ بالْعُقُولِ ؟ فَـَقَالَ : تِلْكَ عُقُولٌ لَمْ يَصْحَبْهَا التَّوْفِيقُ).

وقولهُ تعالى : { أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } ؛ أي بَلْ هم قومٌ طَاغُونَ حَمَلَهم الطُّغيانُ على تَكذيبكَ يا مُحَمَّدُ ،

وكانوا يزعُمون أنَّ مُحَمَّداً كان لاَ يُوَازيهم في عقُولهم وأحلاَمِهم ، فقيل لَهم على وجهِ التعجُّب : أتَأْمُرهم أحلامُهم بهذا الذي يفعلونَهُ أم طُغيَانُهم وإفراطُهم في الكفرِ.

(٠/٠)

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ } ؛ معناهُ : يقولون إنَّ مُحَمَّداً اختَلَقَ القرآنَ من تَلقَاءِ نفسهِ ، والتَّقَوُّلُ : تكلُّفُ القولِ ، لا يستعمَلُ إلاَّ في الكَذِب ، بل ليس كما يقولون ، { بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ } ؛ استكباراً. ثم ألزَمَهم الحجَّة فقال تعالى : { فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ } ؛ أي مثلِ القرآن في نَظْمِهِ وحُسنِ بنائهِ ، { إِن كَانُواْ صَادِقِينَ } ؛ أن مُحَمَّداً تَقَوَّلَهُ في نفسهِ ، فإنَّ اللسانَ لسَانُهم وهم مُستَوُون في السِّربَةِ.

(٠/٠)

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } ؛ معناهُ : أخُلقوا من غيرِ رَبٍّ ، وتَكَوَّنُوا من ذاتِ أنفُسِهم ؟ أم همُ الخالِقُون فَلا يُسأَلون عن أعمالهم ؟ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : أخُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ أُمٍّ وَأبٍ فَهُمْ كَالْجَمَادِ لاَ يَعْقِلُونَ وَلاَ تَقُومُ للهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ ، أَلَيْسُواْ خُلِقُواْ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ). وقال ابنُ كَيسان : (مَعْنَاهُ : أخُلِقُواْ عَبَثاً فَيُتْرَكُونَ سُدًى ، لاَ يُؤْمَرُونَ وَلاَ يُنْهَوْنَ ، أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ لأَنْفُسِهِمْ ؟ فَلاَ يَجِبُ للهِ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ).

(٠/٠)

أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ خَلَقُواْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } ؛ فيكونوا همُ الخالقون ، بل ليس الأمرُ على هذا ، { بَل لاَّ يُوقِنُونَ } ؛ بالحقِّ وهو توحيدُ اللهِ وقدرتهُ على البعثِ.

(٠/٠)

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ } ؛ معناهُ : أبأَيدِيهم مفاتيحُ ربكَ بالرِّسالة ، فيضَعونَها حيث شاءُوا ؟ وَقِيْلَ : معناهُ : أبأَيدِهم مقدُوراتُ ربكَ. وقال الكلبيُّ : (مَعْنَاهُ : خَزَائِنَ الْمَطَرِ وَالرِّزْقِ).
قوله : { أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ } أي أمْ هُم المسَلَّطون على الناسِ ، فلا يكونوا بحيث أمرٍ ولا نَهيٍ يفعَلُون ما شاءُوا. ويقرأ (الْمُصَيْطِرُونَ) بالصادِ ، والأصلُ فيه السِّين ، إلاَّ أنَّ كلَّ سين بعدها (طاء) يجوزُ أن تُقلبَ صاداً. وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ على عجزِهم وتلبيسٌ لسوءِ طَرِيقتهم.

(٠/٠)

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ } ؛ أي لَهم مَصْعَدٌ ومَرْقَاةٌ يرتَقُون بها إلى السَّماء يستمعون فيه الوحيَ ويعلَمُون أنَّ ما هم عليه حقٌّ ، { فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم } ؛ إنْ كان لهم مُستَمِعٌ ، { بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } ؛ بحجَّة ظاهرةٍ.

(٠/٠)

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ } ؛ هذا إنكارٌ عليهم وتسفيهٌ لأحلامِهم ، ومبالغةٌ لتجهيلِهم حيث يَصِفون البناتِ إلى اللهِ بقولهم : بناتُ اللهِ ، ويُضِيفُونَ البنين إلى أنفُسِهم.

(٠/٠)

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠)

وقولهُ تعالى : { أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً } ؛ معناهُ : أتَسأَلُهم يا مُحَمَّدُ على ما جئتهم من الدِّين والشريعة أجْراً ؛ أي جُعْلاً ، { فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ } ؛ أي أثقَلَهم ذلك الغَرمُ الذي سألتَهم ، فمنَعَهم ذلك عن الإسلامِ. والمعنى : أسأَلتَهم أُجرة تُثقِلُهم وتُجدِهُم وتَمنعهم عن الاستماعِ إلى ذلك.

(٠/٠)

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُون } ؛ قال قتادةُ : (هَذا جَوَابٌ لِقَوْلِهِمْ : نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : أعِنْدَهُمُ الْغَيْبُ حَتَّى عَلِمُوا أنَّ مُحَمَّداً يَمُوتُ قَبْلَهُمْ فَهُمْ يَكْتُبُونَ). وَقِيْلَ : معناهُ : أعِندَهم علمُ الغيب حتى عَلِمُوا أنَّ ما يُخبرُهم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم من أمرِ القيامة والبعثِ والحساب والثواب والعقاب باطلٌ غيرُ كائنٍ.

(٠/٠)

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ الْمَكِيدُونَ } ؛ أي بل يُريدون بكَ كَيداً ومَكْراً ليَهلَكوا

بذلك المكرِ ، وهو كَيدُهم به في دار النَّدوةِ ، فالذين كفَرُوا هم الْمُجَازُونَ على كَيدِهم ، وَيحِيقُ ذلك الكيدُ والمكر بهم ، فقُتِلوا يومَ بدرٍ وأُسِرُوا.

(٠/٠)

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ لَهُمْ إِلَاهٌ غَيْرُ اللَّهِ } ؛ يَمنعُهم من مكرِ اللهِ وعذابهِ ويحفظُهم وينصرهم ، { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } ؛ به من آلهةٍ ، وسُبحانَهُ عن أن يكون له ولدٌ.
و(أمْ) في هذه السُّورة في خمسةَ عشر مَوضعاً ، عشرةٌ منها ليست إلاَّ على وجهِ الإنكار ، وفي الخمسةِ ما يحتملُ الإنكار ويحتملُ غيرَهُ.

(٠/٠)

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ } معناهُ : إنَّ هؤلاءِ لا يُؤمنون حتى لو رَأوا قِطَعاً من العذاب سَاقطاً عليهم لطُغيانِهم وعُتُوِّهم ، يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ، قد رُكِمَ بعضهُ على بعضٍ ، فيُلبسُوا على أنفُسِهم بغايةِ جَهلِهم ما يُشاهِدُون.

(٠/٠)

فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَذَرْهُمْ } ؛ أي اترُكْهُم ، { حَتَّى يُلَاقُواْ } ؛ يُعَاينُوا ، { يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ } ؛ أي يُهلَكون ، والصَّعْقُ : الهلاكُ بما يَصْدَعُ القلبَ ، وَقِيْلَ : المرادُ بالصَّعقِ ههنا اليومَ الذي فيه النفخةُ

الأُولى. قرأ الأعمشُ وعاصم وابنُ عامرٍ (يُصْعَقُونَ) بضمِّ الياء ؛ أي يُهلَكُون من أصعَقَهم الله إذا أهلَكَهم ، { يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ } ؛ وذلك اليومُ لا ينفعُهم كيدهم ولا يَمنَعُهم من العذاب مانعٌ.

(٠/٠)

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ } ؛ معناهُ : إنَّ لهؤلاء الكفَّار عذاباً دون عذاب الآخرة ، يعني القبرَ. وَقِيْلَ : معناهُ : إنَّ لكُفَّار مكَّة عذاباً في الدُّنيا قبلَ عذاب الآخرة ، يعني القتلَ ببدرٍ ، وقال مجاهد : (الْجُوعُ وَالْقَحْطُ) ، { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ ما هو نازلٌ بهم.

(٠/٠)

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ } ؛ أي اصبرْ لِحُكمِ ربكَ إلى أن يقعَ بهم العذابُ ، وَقِيْلَ : اصبرْ على تبليغِ الوَحِي والرسالةِ إلى أن يَقضِي لكَ ذلك ربُّكَ فيهم ، { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } ؛ أي فإنَّكَ بحيثُ نراكَ ونحفظُكَ ونرعاكَ ، وإنَّهم لا يَصِلُونَ إلى مكرُوهِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ } ؛ يعني تقومُ من النَّومِ ، كما رُوي : أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إذا انْتَبَهَ قَالَ : " الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ".

وعن الربيعِ بن أنس : (أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقِيَامُ فِي الصَّلاَةِ ، وَهُوَ مَا يُقَالُ عِنْدَ تَكْبِيرَةِ الافْتِتَاحِ " سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ ، وَتَعَالَى جَدُّكَ ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ ").

وَقِيْلَ : المرادُ بهذه الآية صلاةُ الفجرِ عند القيامِ من النَّوم ، ويقالُ المرادُ منه التسبيحُ عند القيامِ من كلِ مجلسٍ ، كما رُوي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " كَفَّارَةُ الْمَجَالِسِ كَلِمَاتٌ جَاءَنِي جِبْرِيلُ بِهِنَّ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. فَإِنْ كَانَ مَجْلِسَ ذِكْرٍ ، كَانَ كَالطَّابِعِ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنْ كَانَ مَجْلِسَ لَغْوٍ ، كَانَ كَفَّارَةً لِمَا كَانَ قَبْلَهُ ".

والأقربُ إلى الظاهرِ من هذه التَّأويلاتِ : أنه صلاةُ الفجرِ ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عَقَّبَهُ بقولهِ : { وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ } ؛ والمرادُ به صلاةُ المغرب والعشاء ، وأما ، { وَإِدْبَارَ النُّجُومِ } ؛ فركعَتان قبلَ فريضةِ الفجرِ ، كما رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ : (إِدْبَارُ السُّجُودِ الرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِب ، وَإِدْبَارُ النُّجُومِ الرَّكْعَتَانِ قَبْلَ الْفَجْرِ). وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ".

(٠/٠)

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)

{ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى } ؛ اختلَفُوا في القسَمِ الذي في أوَّلِ هذه السُّورة ، وقال بعضُهم – وهو الأظهر – : أنَّ النجمَ اسمُ جنسٍ أُريدَ به النُّجومَ كلَّها إذا هَوَتْ للأُفُولِ.

فائدةُ القسَمِ بها ما فيها من الدلالةِ على وحدانيَّة اللهِ تعالى ؛ لأنه لا يَملِكُ طُلوعَها وغروبَها إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فالقسَمُ قسَمٌ بربِها. وجوابُ القسَمِ : { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى } يعني النبيَّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي ما ضلَّ عن طريقِ الْهُدَى وعن الصَّواب فيما يُؤَدِّيهِ عنِ الله تعالى.

وعن مجاهد : (أَنَّهُ أَرَادَ بالنَّجْمِ الثُّرَيَّا إذا سَقَطَتْ وَغَابَتْ) ، والعربُ تُسمِّي الثُّريا نَجماً وإنْ كانت في العددِ نُجوماً ، قال أبو بكرٍ الدينوري : (هِيَ سَبْعَةُ أنْجُمٍ ، فَسِتَّةٌ ظَاهِرَةٌ ، وَوَاحِدٌ مِنْهَا خَفِيٌّ يَمْتَحِنُ النَّاسُ فِيْهِ أبْصَارَهُمْ).

وقال الضحَّاك : (مَعْنَاهُ : وَالْقُرْآنُ إذا نَزَلَ ثَلاَثَ آيَاتٍ أوْ أرْبَعَ آيَاتٍ وَسُورَةً ، كَانَ أوَّلُ الْقُرْآنِ وَآخِرَهُ ثَلاَثٌ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، أقْسَمَ اللهُ بالْقُرْآنِ إذْ نَزَلَ نُجُوماً مُتَفَرِّقَةً عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم).

وذلك : أنَّ كُفَّارَ مكَّة قالوا : إنَّ مُحَمَّداً يقولُ القرآنَ من تَلقاءِ نفسهِ ، فأقسمَ اللهُ بالقرآن ونزولهِ نَجْماً بعد نجمٍ ، أنَّ مُحَمَّداً لم ينطِقُ إلاَّ عن وحيٍ يُوحَى ، وإنه لم ينطِقْ به من هوَى نفسهِ.

(٠/٠)

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥)

وقولهُ تعالى : { عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى } ؛ يعني جبريلَ عليه السلام هو شديدُ البُنيَةِ والْخِلقَةِ ، ومن قوَّة جبريلَ : أنه أدخلَ جناحَهُ تحت قَريَاتِ قومِ لُوطٍ فقَلَعَها من الماءِ الأسوَدِ ورفعَها إلى السَّماء ، ثم قلَبَها فأقبلَتْ تَهوي من السَّماء إلى الإرضِ ، وكان من شدَّتهِ أيضاً أنه أبصرَ إبليس وهو يكلِّمُ عيسَى عليه السلام على بعضِ أعتاب الأرض المقدَّسةِ ، فنفخَهُ بجناحهِ نفخةً ألقاهُ إلى أقصَى جبَلٍ بالهندِ ، وكان من شدَّته أيضاً أنه أهلكَ بصَيحَتهِ ثمودَ فأصبَحُوا جاثِمين.

(٠/٠)

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى } ؛ أي جبريل عليه السلام ذو قوَّةٍ وشدَّةٍ في خَلقهِ. وَقِيْلَ : ذُو مَنظَرٍ حسَنٍ ، قال قطرب : (يَقُولُ الْعَرَبُ لِكُلِّ جَزِلِ الرَّأيِ حَصِيفِ الْعَقْلِ : ذُو مِرَّةٍ). قال الشاعرُ : قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذا مِرَّةٍ عِنْدِي لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَانُهُوكان من جَزَالَةِ رأيه وحصافة عقلهِ إنَّ اللهَ تعالى ائتمنَهُ على تبليغِ وَحيهِ إلى جميعِ رُسلهِ.

وقولهُ تعالى : { فَاسْتَوَى } يعني جبريلَ ، وَقِيْلَ : المعنى : { ذُو مِرَّةٍ } أي ذُو مُرورٍ في الجوِّ مُنحَدرٍ أو صاعدٍ على السُّرعة. وقولهُ تعالى : { فَاسْتَوَى } أي فانتصبَ وَاقعاً على صورةِ الملائكةِ التي خلقَهُ اللهُ عليها ، فرآهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مُنتَصباً في السَّماء بعدَ أن كان مُسرِعاً ، فاستوَى في أفُقِ المشرقِ في رَأيِ العين ، كما رُوي في الحديثِ : " أنَّهُ طَبَقَ الأُفُقَ كُلَّهُ بكَلْكَلِهِ ، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ فِيهَا أَلْوَانٌ زَاهِرَةٌ ، وَتَتَنَافَرُ مِنْهُ الدُّرَرُ " وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى } ؛ يعني جانبَ المشرقِ وهو فوق جانب المغرب.

(٠/٠)

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى } ؛ أي دنَا جبريلُ عليه السلام بعدَ استوائهِ بالأُفق الأَعلى ، { فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى } ؛ قال المفسِّرون : وذلك أنَّ جبريلَ كان يأتِي النبيَّ صلى الله عليه وسلم في صُورَةِ

الآدمِيِّين ، فسألَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يُرِيَهُ نفسَهُ على صورتِهِ التي خُلق عليها ، فأراهُ نفسَهُ مرَّتين ، مرَّةً في الأرضِ ومرةً في السَّماءِ.

فأمَّا في الأرضِ ففِي الأُفق الأعلى ، يعني أفُقَ المشرقِ ، وذلك أنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم كان بحِرَاء فطلَعَ له جبريلُ من المشرقِ فسَدَّ الأُفُقَ إلى المغرب ، فخَرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مَغْشِيّاً عليه ، فنَزلَ جبريلُ عليه السلام في صُورةِ الآدميِّين وضَمَّهُ إلى نفسهِ ، وهو قولهُ { ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى } أي قَرُبَ بعدَ بُعدهِ وعُلُوِّهِ في الأُفق الأعلى.

والمعنى : نَزَلُ جبريلُ عليه السلام بعدَ استوائهِ ، فدَنا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتَدَلَّى اليه بأنْ نَكَّسَ رأسَهُ فرآهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مُتَدَلِّياً كما رآهُ مُنتصباً حتى بينَهُ وبينَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قدرَ قاب قَوسَينِ مِن قِسِيِّ العرب أو أدنَى ، معناهُ : وأقربُ في رأي العينِ.

قال الزجَّاجُ : (كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِقْدَارَ قَوْسَيْنِ ، وَإِنَّمَا خُصَّ الْقَوْصُ فِي الآيَةِ ؛ لأنَّ مِقدَارَهَا فِي الأَغْلَب لاَ يَتَفَاوَتُ بزِيَادَةٍ وَلاَ نُقْصَانٍ). ويقالُ : إنَّ المرادَ بالقوسِ هنا الذراعُ ، وسُمي الذراعُ قَوْساً لأنه تُقَاسُ به الأشياءُ ، قال ابنُ مسعودٍ : (مَعْنَاهُ : فَكَانَ قَدْرَ ذِرَاعَيْنِ أوْ أدْنَى مِنْ ذِرَاعَيْنِ).

وأما دخول (أوْ) ههُنا في قولهِ : { أَوْ أَدْنَى } معناهُ : أو أدنَى فيما تقدِّرون أنتُم واللهُ تعالى عالِمٌ بمقاديرِ الأشياءِ ، ولكنَّهُ يُخاطِبُنا على ما جرَتْ به عادةُ المخاطَبة فيما بيننا.

ومعنى قولهِ تعالى : { قَابَ قَوْسَيْنِ } أي قَدْرَ قَوسَين ، يقالُ (قَابَ قَوْسَينِ) وَقِيبَ قَوسَين وقَيْدَ قَوسَين ، كلٌّ بمعنىً واحد. والتَّدَلِّي في اللغة : هو الامتدادُ إلى جهةِ الأسفَلِ ، ومنه تَدَلَّى القبرُ ، ومنه إدلاءُ الدَّلوِ وهو إرسالُها في البئرِ.

ومن الدليلِ على أنَّ المرادَ بشَدِيدِ الْقِوَى جبريل عليه السلام ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ }[التكوير : ١٩-٢٠]{ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ }[التكوير : ٢٣] وهو مَطلِعُ الشَّمسِ.

(٠/٠)

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَآ أَوْحَى } ؛ أي فأوحَى جبريلُ عليه السلام إلى عبدِالله مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ما أمرَهُ اللهُ أن يُوحِيَهُ إليه ، ويجوزُ أن يكون معناهُ : فأوحَى اللهُ إلى عبدهِ ما أوحَى ، قال سعيدُ بن جبير : (أوْحَي إلَيْهِ : { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَآلاً فَهَدَى... }[الضحى : ٦-٧]

إلى قولهِ{ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ }[الإنشراح : ٤]. وَقِيْلَ : أوحَى إليه (أنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأَنْبيَاءِ حَتَّى تَدْخُلَهَا ، وَعَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ).

(٠/٠)

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى } ؛ أي ما كَذبَ فؤادُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فيما رآهُ ببَصَرِهِ من صورةِ جبريل عليه السلام ، ومن عجائب السَّموات ؛ يَكُ قَبلَ القَلْب ذلك ، وأيقنَ أنَّ ما رآهُ حقٌّ ، كما هو لم يشُكَّ فيه ولا أنكرَهُ ولم يعتقِدْ عن تَخَيُّلٍ ولا أخبَرَ عن توهُّم. وقرأ الحسنُ وأبو جعفر وقتادة وابن عامر : (مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ) بالتشديد ؛ أي ما كذَّبَ قلبُ مُحَمَّدٍ ما رأى بعَينهِ تلك الليلةَ ، بل صدَّقَهُ وحقَّقه.

وَقِيْلَ : هذا إخبارٌ عن رؤيةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ليلةَ المعراجِ رَبَّهُ! قال ابنُ عبَّاس : (رَأى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ بفُؤَادِهِ وَلَمْ يَرَهُ بعَيْنِهِ ، وَيَكُونُ ذلِكَ عَلَى أنَّ اللهَ جَعَلَ بَصَرَهُ فِي فُؤَادِهِ أوْ خَلَقَ لِفُؤَادِهِ بَصَراً حَتَّى رَأى رَبَّهُ رُؤْيَةً غَيْرَ كَاذِبَةٍ كَمَا يُرَى بالْعَيْنِ). وقال عكرمةُ : (إنَّهُ رَأى رَبَّهُ بعَيْنِهِ!) وكان يحلفُ باللهِ لقد رأى مُحَمَّد ربَّهُ.

ومذهبُ ابنِ مسعود وعائشة في هذه الآية : (أنَّهُ رَأى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا). وَالْفُؤَادُ دعاء القلب ، فما ارتيابُ الفؤادِ فيما رأى الأصلُ وهو القلبُ.

(٠/٠)

أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } ؛ من آياتِ الله ، قرأ عليٌّ وابنُ مسعود وابن عبَّاس وعائشة ومسروق والنخعيّ وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب : (أَفَتَمْرُونَهُ) بفتح التاءِ من غير ألفٍ على معنى أفَتَجْحَدُونَهُ ، تقولُ العربُ : مَرَيْتَ الرَّجُلَ حَقَّهُ إذا جَحَدْتَهُ.

وقرأ سعيدُ بن جبير وطلحة وابن مصرف (أفَتُمْرُونَهُ) بضمِّ التاءِ من غير ألفٍ ؛ أي تُشَكِّكُونَهُ. وقرأ الباقون (أفَتُمَارُونَهُ) أي أفَتُجَادِلُونَهُ. وفي الحديثِ : " لاَ تُمَارُوا في الْقُرْآنِ ، فَإنَّ الْمِرَاءَ فِيْهِ كُفْرٌ ".

وعن الشعبيِّ عن عبدِالله بن الحارث قال : (اجْتَمَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَكَعْبٌ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أمَّا نَحْنُ بَنُو هَاشِمٍ فَنَقُولُ : إنَّ مُحَمَّداً رَأى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَرَّتَيْنِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أتَعْجَبُونَ أنْ تَكُونَ الْخُلَّةُ لإبْرَاهِيمَ وَالْكَلاَمُ لِمُوسَى وَالرُّؤْيَةُ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم).

وقال الشعبيُّ : (فَأَخْبَرَنِي مَسْرُوقٌ أنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ : يا أُمَّاهُ ؛ هَلْ رَأى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَطْ ؟ قَالَتْ : إنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلاً لَيَقِفُ مِنْهُ شَعْرِي ، قَالَ : قُلْتُ : رُوَيْداً فَقَرَأ عَلَيْهَا{ وَالنَّجْمِ إذَا هَوَى... }[النجم : ١] إلَى قَوْلِهِ{ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى }[النجم : ٩]. فَقَالَتْ : أيْنَ يَذْهَبُ بكَ! إنَّمَا رَأى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ ، مَنْ حَدَّثَكَ أنَّ مُحَمَّداً رَأى رَبَّهُ فَقَدْ كَذبَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ }[الأنعام : ١٠٣].

وفي الرؤية قالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : (مَنْ زَعَمَ أنَّ مُحَمَّداً رَأى رَبَّهُ فَقَدْ أعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَنْ حَدَّثَكَ أنَّهُ يَعْلَمُ الْخَمْسَ مِنَ الْغَيْبِ فَقَدْ كَذبَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { إنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ }[لقمان : ٣٤] ، وَمَنْ حَدَّثَكَ أنَّ مُحَمَّداً كَتَمَ شَيْئاً مِنَ الْوَحْيِ فَقَدْ كَذبَ) ، قال عبدُالرزاق : (فَذكَرْتُ هَذا الْحَدِيثَ لِمَعْمَرٍ فَقَالَ : مَا عَائِشَةُ عِنْدَنَا بأَعْلَمَ مِن ابْنِ عَبَّاسٍ).

(٠/٠)

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى } ؛ أي رأى مُحَمَّدٌ جبريل مرَّة أُخرى ، فسمَّاها { نَزْلَةً أُخْرَى } على الاستعارةِ ، وذلك أنَّ جبريلَ رآهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على صُورتِهِ التي خُلق عليها مرَّتين ، مرَّةً في الأرضِ بالأُفق الأعلى ، ومرَّةً في السماءِ عند سِدرَةِ المنتهى ، ولأنه قال { نَزْلَةً أُخْرَى } تقديرهُ : ولقد رَآهُ نَازلاً نزلةً أُخرى.

والسِّدرَةُ : هي شَجَرَةُ النَّبَقِ ، وههنا شجرةٌ في السَّماء السابعةِ ، قِيْلَ : إنَّها شجرَةُ طُوبَى ، وقال الكلبيُّ : (هِيَ شَجَرَةٌ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ ، نَبْقُهَا مِثْلُ قِلاَلِ هَجَرٍ وَوَرَقُهَا مِثْلُ آذانِ الْفِيَلَةِ ، يَخْرُجُ مِنْ بَاطِنِهَا نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ.

أمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ ، وَهُمَا التَّسْنِيمُ وَالسَّلْسَبِيلُ – وَقِيْلَ : التَّسْنِيمُ وَالْكَوْثَرُ. وَأمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ ، وَهِيَ تَحْمِلُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ الْحُلِيَّ وَالْحُلَلَ وَجَمِيعَ الثِّمَار ، وَسُمِّيَتِ الْمُنْتَهَى ؛ لأَنَّهُ يَنْتَهِي إلَيْهَا كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، لاَ يَعْلَمُ مَا وَرَاءَهَا إلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ).

وقال ابنُ مسعودٍ : (سُمِّيَتِ الْمُنْتَهَى ؛ لأَنَّهُ يَنْتَهِي إلَيْهَا مَا يُصْعَدُ بِهِ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَضُ فِيهَا ، وَإلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا ، فَيُقْبَضُ فِيهَا). وَالْمُنْتَهَى : مَوْضِعُ الانْتِهَاءِ.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال : " لَمَّا أُسْرِيَ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَانْتَهَى بِهِ إِلَى السِّدْرَةِ ، فَإِذا هِيَ شَجَرَةٌ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ : نَهْرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، ونَهْرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَنَهْرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَنَهْرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى. وَهِيَ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَاماً لاَ يَقْطَعُهَا ، وَالْوَرَقَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا تُغَطِّي الأُمَّةَ كُلَّهَا ".

وعن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ ؛ قالت : " سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَذْكُرُ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى قَالَ : " يَسيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ " وقال مقاتلٍ : (هِيَ شَجَرَةٌ لَوْ أَنَّ وَرَقَةً مِنْهَا وُضِعَتْ فِي الأَرْضِ أَضَاءَتْ لأَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمْ ، تَحْمِلُ الْحُلِيَّ وَالْحُلَلَ وَالثِّمَارَ وَجَمِيعَ الأَلْوَانِ ، وَهِيَ طُوبَى الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ).

(٠/٠)

عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى } ؛ معناه : عندَ سدرةِ المنتهى جنةُ المأوَى ، وهي جنةٌ يأوي إليها جبريلُ والملائكة ، وقال مقاتلُ والكلبي : (جَنَّةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ).

(٠/٠)

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى } ؛ أي يغشَى السِّدرةَ من النور والبَهاء والْحُسنِ والصَّفاء ما ليس لوصفهِ مُنتهَى. " وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى مَا يَغْشَى السِّدْرَةَ فَقَالَ : " يَغْشَاهَا جَرَادٌ مِنْ ذهَبٍ " ورُوي " فَرَاشٌ مِنْ ذهَبٍ " وعن ابنِ عبَّاس : (أَنَّهُ يَغْشَاهَا مَلاَئِكَةٌ أَمْثَالُ الْغِرْبَانِ حَتَّى يَقَعْنَ عَلَى الشَّجَرَةِ). قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " رَأَيْتُ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِهَا مَلَكاً قَائِماً يُسَبِّحُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ " وَقِيْلَ : يغشَى من جهةِ الله عَزَّ وَجَلَّ فاستنَارَتْ.

(٠/٠)

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى } ؛ أي ما مالَ بصرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يَميناً ولا شِمالاً ولا طغَى ولا تجاوزَ ما رأى ، وهذا وصفُ أدَبِهِ في ذلك المقامِ إذ لم يلتفِتْ جَانباً ، ولم يُمِلْ بصرَهُ ولم يَمُدَّهُ أمامَهُ إلى حيث ينتهِي.

(٠/٠)

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى } ؛ لقد رأى تلكَ الليلةِ من عجائب ربه عجيبةً عظماءَ ، وهي جبريلُ على صورتهِ ، وقال ابنُ مسعود : (رَأى رَفْرَفاً مِنَ الْجَنَّةِ أخْضَرَ قَدْ سَدَّ الأُفُقَ). وَقِيْلَ : هي الآياتُ العظمى التي رآهَا تلكَ الليلةِ.

(٠/٠)

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى } قرأ مجاهدُ وأبو صالح (اللاَّتَّ) بتشديد التاء ، وقالوا : كان رجُلاً يَلُتُّ السَّوِيقَ للحاجِّ ، فلما ماتَ عكَفُوا على قبرِهِ يعبدونَهُ. وروَى السديُّ عن أبي صالح : (أنَّهُ كَانَ رَجُلاً بالطَّائِفِ يَقُومُ عَلَى آلِهَتِهِمْ وَيَلِتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ بالزَّيْتِ ، فَلَمَّا مَاتَ عَبَدُوهُ). وقال الكلبيُّ : (هُوَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ يُقَالُ لَهُ صِرْمَةُ بْنُ عُمَرَ ، كَانَ يَسْلِي السَّمْنَ فَيَضَعُهُ عَلَى صَخْرَةٍ ، فَتَأْتِي الْعَرَبُ فَتَلُتُّ بِهِ أسْوِقَتَهُمْ).

" وأما العُزَّى فقال مجاهدُ : (شَجَرَةٌ لِغَطَفَانَ يَعْبُدُونَهَا) وَهِيَ الَّتِي بَعَثَ إلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَقَطَعَهَا ، وَجَعَلَ خَالِدُ يَضْرِبُهَا بالْفَأْسِ وَيَقُولُ : يَا عُزَّى كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحَانَكِ ، إنِّي رَأَيْتُ اللهَ قَدْ أهَانَكِ. فَخَرَجَتْ مِنْ تَحْتِهَا شَيْطَانَةٌ عَرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا ، دَاعِيَةٌ بوَيْلِهَا ، وَاضِعَةٌ يَدَهَا عَلَى رَأسِهَا ، فَقَتَلَهَا خَالِدٌ ثُمَّ رَجَعَ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأخْبَرَهُ بذلِكَ ، فَقَالَ : " تِلْكَ الْعُزَّى ،

وَلَنْ تُعْبَدَ أبَداً " ".

وأما مَنَاة فهو صنمٌ لخزاعة ، وقال الضحَّاك : (مَعْنَاهُ : صَنَمٌ لِهُذيْلَ) ، وقال : (إنَّ مَنَاةَ صَنَمٌ كَانَتْ لِهُذيْلَ وَخُزَاعَةَ يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله). وقال بعضُهم : اللاَّتُ والعُزَّى ، ومناةُ أصنامٌ من حجارةٍ كانت في جوفِ الكعبةِ.

والمعنى : أخبرُونا عن الآلهةِ التي تَعبُدونَها من دونِ الله ، هل لها قدرةٌ تُوصَفُ بها كما يوصَفُ اللهُ بالقدرةِ والعَظَمةِ ، وهي أسماءُ أصنامٍ يَعبدونَها ، وانتقَوا لها اسماً من أسماءِ الله تعالى ، فقالوا : مِن الله اللاَّت ، ومن العزيزِ العزَّى ، ومن المنَّانِ مناةُ بالهاءِ.

وقال الزجَّاجُ : (الْوَقْفُ عَلَيْهَا بالتَّاءِ لاتِّبَاعِ الْمُصْحَفِ) ، وكان ابنُ كثيرٍ يقولُ : (وَمَنَأَةَ) بالمدِّ والهمزةِ ، والصحيحُ : قراءةُ العامَّة بالقصرِ ، و(الثَّالِثَةَ) نعتٌ لِمَنَاة ، يعني الثالثةَ للصَّنمين في الذِّكرِ ، والأُخرى نعتٌ لها أيضاً.

(٠/٠)

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى } ؛ هذا إنكارٌ عليهم في أنَّهم كانوا يزعُمون أنَّ هذه الأصنامَ بناتُ الله ، فقيل لَهم : كيف جعَلتُم هذه الأشياءَ المؤنَّثة أولادَ اللهِ وأنتم لا تَرضَون لأنفُسِكم الإناثَ وتكرَهونَها ؟ وقوله تعالى : { تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى } ؛ أي قِسمَةٌ جَائِرَةٌ غيرُ عادلةٍ ، يقالُ : ضَازَهُ يَضِيزُهُ إذا نقصَهُ حقَّهُ.

(٠/٠)

إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم } ؛ معناهُ : وما هذهِ اللاَّتُ والعُزَّى ومَناة إلاّ أسماءٌ سَمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم الذين مَضَوا قبلَكُم ، { مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ } ؛ وبرهانٍ ؛ أي لم يُنْزِلْ كِتَاباً لكم حجَّة بما تقولون أنَّها آلهةٌ ، والمعنى : ما أنزَلَ اللهُ بعبادَتِها من سُلطان ، { إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ

الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ } ؛ في قولِهم : إنَّها آلهةٌ ، وقولِهم : هذه بناتُ الله.
وقوله تعالى : { وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى } ؛ معناهُ : ولقد جاءَهم من ربهم الكتابُ والرسولُ والبيانُ أنَّها ليست بآلهةٍ ، وأنَّ العبادةَ لا تصلحُ لَها ، وإنما تصلحُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ. والمعنى : أنَّهم يَعقِلُون ذلك بعدَ أنْ جاءَهم الهدَى ، وذلك أبلَغُ في الذمِّ.

(٠/٠)

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى } ؛ أي ما اشتَهى ، والمرادُ بالإنسانِ الكافرُ ، وكان الكفَّارُ يعبُدون الأصنامَ ، ويزعُمون أنَّها تشفعُ لَهم عند اللهِ ، ويتمَنَّون على اللهِ الجنَّة. والمعنى : أيَظُنُّونَ أنَّ لهم ما يتمنَّون من شَفاعةِ الأصنامِ ، وليس كما يظُنُّون ويتمنون ، بل { فَلِلَّهِ الآخِرَةُ والأُولَى } ؛ لاَ يُعطِي أحداً شَيئاً بالتمنِّي ، وإنما يعطِي بالحكمةِ وعلى سبيلِ الاستحقاق ، فيزيدُ مِن فَضلهِ مَن يشاءُ. وَقِيْلَ : معناهُ { فَلِلَّهِ الآخِرَةُ والأُولَى } أنْ لا يملِكَ فيهما أحدٌ شيئاً إلاَّ بإذنهِ ، يُعطي مَن يشاءُ ويَحرِمُ مَن يشاءُ.

(٠/٠)

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَى } ؛ جمعَ الكنايةَ لأن المرادَ بقوله { وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ } الكثرةُ ، والمعنى : لا تُغني شفاعتُهم أحداً إلاَّ مِن بعدِ أنْ يأذنَ اللهُ لهم في الشَّفاعةِ ، ويرضَى بشفَاعتِهم. ويقالُ : ويرضَى المشفوعُ له ، وهذا كقولهِ{ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى }[الأنبياء : ٢٨].

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى } يعني أنَّهم قالوا : إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُواً كَبيراً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ } ؛ أي ما لَهم بتلك التَّسميةِ مِن علمٍ وما يستبقون أنَّهم إناثٌ ، { إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً } ؛ أي لا يقومُ الظنُّ مقامَ الحقِّ ، وهذا يدلُّ على أن الظَّانَّ غيرُ عالِم ، وأنَّ العبادةَ بالظنِّ لا تدفعُ من عذاب الله شيئاً.

(٠/٠)

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا } ؛ أي أعرِضْ يا مُحَمَّدُ عمَّن أعرضَ عن القرآنِ ، { وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } ؛ أي ولَمْ يُرِدْ بعلمِهِ إلاَّ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها ، وهذا مما نَسَخَتْهُ آيةُ القتالِ ، وقولهُ تعالى : { ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ } ؛ أي لم يبلِغُوا من العلمِ إلاَّ ظنَّهم أنَّ الملائكةَ بناتُ الله ، وأنَّها تشفعُ لَهم ، فاعتمَدُوا ذلك وأعرَضُوا عن القرآنِ.
وَقِيْلَ : معناهُ : أنَّ غايةَ عِلمِهم أنْ آثَرُوا الدُّنيا على الآخرةِ ، وهذا غايةُ الجهلِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ } ؛ إي إنه عالِمٌ بهم ، فهو يُجازيهم ، { وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى } ؛ أي إنه عالِمٌ بالفَرِيقين.

(٠/٠)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ إخبارٌ عن قُدرتهِ وسِعَةِ مُلكهِ ، ليَجزِيَ في الآخرةِ المحسنَ والمسيءَ ، معناهُ : { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ } ؛ أي أشرَكُوا ، { بِمَا عَمِلُواْ } ؛ من الشِّركِ ، { وَيِجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ } ؛ أي وحَّدُوا ربَّهم ، { بِالْحُسْنَى } ؛ أي بالجنَّة.

ثم نعتَهم فقال : { الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ } ؛ فكبائرُ الإثمِ وهو كلُّ ذنبٍ خُتِمَ بالنار ، والفواحشُ ، كلُّ ذنبٍ فيه حَدٌّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ اللَّمَمَ } ؛ هذا استثناءٌ منقطعٌ ليس الكبائرَ والفواحشَ.

وقال ابنُ عبَّاس : (أَشْبَهُ شَيْءٍ باللَّمَمِ مَا قَالَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَنَّهُ قَالَ : " إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى ، وَهُوَ اللهُ يُدْرِكُ ذلِكَ لاَ مَحَالَةَ ، فَزِنَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطْقُ ، وَزِنَى الشَّفَتَيْنِ التَّقْبِيلُ ، وَزِنَى الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ ، وَزِنَى الرِّجْلَيْنِ الْمَشْيُ ، وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّى وَتَشْتَهِي ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلِكَ كُلَّهُ أَوْ يُكَذِّبُهُ ، فَإِنْ تَقَدَّمَ بِفَرْجِهِ كَانَ زَانِياً وَإِلاَّ فَهُوَ اللَّمَمُ ").

وفي هذا دليلٌ أن الأشياءَ إذا وُجدت على التعمُّدِ لم تكن مِن اللَّمَمِ ، واللَّمَمُ ما يكون من الفلتات النادرةِ التي لا يملِكُها ابنُ آدمَ من نفسهِ ؛ لأنَّ الأُمَّة اجتمعَتْ على أنَّ مُتَعَمِّدَ النظرِ إلى ما لا يحلُّ فاسقٌ.

واللَّمَمُ في اللغة : هو مُقَارَبَةُ الشَّيءِ من غيرِ دُخولٍ فيه ، يقالُ : أَلَمَّ بالشَّيءِ يَلِمُّ إِلْمَاماً إذا قاربَهُ. وعن هذا يقالُ : صغائرُ الذُّنوب كالنَّظرة والقُبلَةِ والغمزَةِ ، وما كان دُون الزِّنى ، وقال ابنُ عبَّاسَ : " اللَّمَمُ : النَّظْرَةُ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ وَهُوَ مَغْفُورٌ ، فَإِنْ أَعَادَ النَّظَرَ فَلَيْسَ بِلَمَمٍ وَهُوَ الذنْبُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ } ؛ أي إنَّ رحمةَ ربكَ تسَعُ جميعَ الذُّنوب ، { هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ } معناهُ : هو أعلمُ بكم مِن أنفُسِكم إذ خلق أبَاكُم آدمُ من الترابِ. والجنينُ : ما كنتم صِغَاراً في أرحامِ أُمَّهاتِكم عَلِمَ عند ذلك ما يستَحصِلُ منكم ، والأَجِنَّةُ : جمعُ جَنِينٍ ، والمعنى : عَلِمَ اللهُ مِن كلِّ نفسٍ ما هي صَانِعَةٌ ، وإلى ما هي صائرةٌ ، { فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ } ؛ بما ليسَ فيها ولا تُبَرِّؤُونَها من العيُوب التي فيها.

وَقِيْلَ : معناهُ : لا تُزَكُّوا أنفُسَكم بما عَمِلتم ، لا يقولَنَّ رجلٌ : عملتُ كذا ، وتصدَّقتُ بكذا ؛ ليكون أبلغَ بالخضُوعِ وأبعدَ من الرِّياء. وَقِيْلَ : معناهُ : لا تُبَرِّؤُا أنفُسَكم من الآثامِ وتَمدَحُونَها بحُسنِ عملِها ، { هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } ؛ الشِّركَ وآمَنَ وأطاعَ وأخلصَ العملَ.

(٠/٠)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى } ؛ يعني الوليدَ بنَ المغيرةِ ، أعرضَ عن التصديقِ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم وأعطَى قليلاً من الحقِّ بلسانهِ ثم قطعَ ، وكان الوليدُ قد اتَّبعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم على دينهِ ، فغيَّرهُ بعضُ المشركين فتركَ دينَهُ ، فقالَ : إنِّي خشيتُ من عذاب اللهِ ، فضمنَ الذي عاينَهُ إنْ هو أعطاهُ شيئاً من مالهِ ورجعَ إلى شِركهِ ، أن يتحمَّلَ عنه العذابَ ، ففعلَ. يعني رجعَ إلى الشِّرك وأعطاهُ ذلك الرجلُ بعضَ ما كان ذكَرَ له من المالِ ومنعَهُ تَمامَهُ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ : { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً } أي أدبرَ عن إيمانهِ وأعطَى صاحبَهُ قَليلاً من المالِ الذي وعدَهُ به { وَأَكْدَى } أي بَخِلَ بالباقِي.

قال المفسِّرون : (أكْدَى) أي قطعَهُ ولم يُتِمَّ عليهِ ، وأصله من الكِدْيَةِ ، وهو حجَرٌ يظهرُ في البئرِ ويمنَعُ من الحفرِ ويُؤسَ من الماءِ ، قال الكلبيُّ : (يُقَالُ : أكْدَى الْحَافِرُ وَأجْبَلَ ؛ إذا بَلَغَ فِي الْحَفْرِ الْكِدْيَةَ وَالْجَبَلَ).

(٠/٠)

أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى } ؛ أي يعلَمُ أن صاحبَهُ يتحمَّلُ عنه عذابَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } ؛ معناهُ : ألَمْ يُخبَرْ بما كان مَكتوباً في صُحف موسَى ؛ يعني التوراةَ ، وما فِي صُحف إبراهيم { الَّذِي وَفَّى } أي تَمَّمَ وأكملَ ما أُمِرَ بِهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : وإبراهيمَ الذي بلَّغَ قومَهُ وأدَّى إليهم ما أُمِرَ به.

وَقِيْلَ : أكملَ ما يجبُ للهِ عليه من الطاعةِ في كلِّ ما أُمر به وامتُحِنَ به كما في قولهِ تعالى : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ }[البقرة : ١٢٤]. وَقِيْلَ : معنى ذلك : أنَّهُ كان عَاهدَ أنْ لا يسألَ مَخلوقاً قطُّ خَوْفاً بذلك ، حتى قالَ له جبريلُ في الوقتِ الذي أرادَ قومهُ أنْ يُلقوه في النار : هَلْ لَكَ حَاجَةٌ ؟ أجَابَهُ : أمَّا إلَيْكَ فَلاَ. وَقِيْلَ : معناهُ : وفي رُؤياه وقَدِمَ بذبحِ ابنه. وَقِيْلَ : أدَّى الأمانةَ ووفَّى شأنَ المناسكِ.

(٠/٠)

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } ؛ هذا بيانٌ لِمَا في صُحف موسَى وإبراهيمَ الذي وفَّى ، ومعناهُ : لا تَحمِلُ حَامِلَةٌ حملَ أُخرى ؛ أي لا تُعذبُ نفسٌ بذنب غيرها ، هذا إبطالٌ لقولِ مَن ضَمِنَ الوليد أنْ يحملَ عنه الإثمَ ، وهذا عامٌّ في كلِّ شريعةٍ.

وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه أنه قالَ : (كَانُوا قَبْلَ إبْرَاهِيمَ يَأْخُذُونَ الرَّجُلَ بذنْب غَيْرِهِ ، وَيَأْخُذُونَ الوَلِيَّ فِي الْقَتْلِ بابْنِهِ وَأخِيهِ وَأبيهِ وَعَمِّهِ وَخَالِهِ ، وَالزَّوْجَ يُقْتَلُ بامْرَأتِهِ ، وَالسَّيِّدُ بعَبْدِهِ ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم نَهَاهُمْ عَنْ ذلِكَ وَبَلَّغَهُمْ أنْ لاَ تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى).

يقال : وَزَرْتُ الشَّيْء آزُرُهُ إذا حَمَلْتَهُ ، والأَوْزَارُ : الأحمالُ ، ويسمَّى الإثمُ وزْراً ؛ لأن الإثمَ يُثقِلُ صاحبَهُ ، كما قال تعالى : { وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ }[الانشراح : ٢-٣]. ويسمَّى الوزيرُ وزيراً ليَحمِلَ ثقلَ الملكِ في قيامهِ بالتدبُّر.

(٠/٠)

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى } ؛ أي ليس له إلاَّ جزاءُ ما عَمِلَ من خيرٍ وشَرٍّ ، وهذا عطفٌ على قولهِ تعالى { أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ } وهو أيضًا مما في صُحف موسَى وإبراهيمَ.

(٠/٠)

وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)

وقولهُ تعالى : { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } ؛ معناهُ : وإنَّ عملَهُ سوف يُرى في الأُخرى في ديوانهِ وميزانه ، { ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الأَوْفَى } ؛ لا يُنقَصُ من ثواب عَمَلهِ شيءٌ.

(٠/٠)

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى } ؛ أي مُنتهى العبادِ ومَصِيرُهم ، وهو مجازيهم بأعمالهم. وَقِيْلَ : منه ابتداءُ الْمِنَّةِ وإليه انتهاءُ الآمالِ.

ون أُبَي بن كعبٍ " عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم في قولهِ تعالى { وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى } قال : " لاَ فِكْرَ فِي الرَّب " والشاهدُ في هذا الحديثِ قولهُ صلى الله عليه وسلم : " إذا ذُكِرَ اللهُ فَانْتَهُوا ".

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ : " خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أصْحَابهِ وَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ، فَقَالَ : " فِيمَ أنْتُمْ تَتَفَكَّرُونَ ؟ " قَالُواْ : نَتَفَكَّرُ الْخَالِقَ ، فَقَالَ : " تَفَكَّرُواْ فِي الْخَلْقِ وَلاَ تَتَفَكَّرُواْ فِي الْخَالِقِ ، فَإِنَّهُ لاَ يُحِيطُ بِهِ الْفِكْرُ ، تَفَكَّرُواْ فِي أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَات سَبْعاً وَالأَرْضَ سَبْعاً ثِخَانَةً ؛ كُلُّ أرْضٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ أرْضَينِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَثِخَانَةُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَائَيْنِ خَمْسُمِائَةٍ ، وَفِي السَّمَاءِ السَّابعَةِ بَحْرٌ عُمْقُهُ مِثْلُ ذلِكَ كُلِّهِ ، فِيْهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لَمْ يُجَاوز الْمَاءُ كَفَّيْهِ " ".

(٠/٠)

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣)

قَوله : { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى } ؛ أي أضحَكَ مَن شاءَ من خَلقهِ ، وأبكَى مَن شاءَ منهم ، وقال الكلبيُّ : (أضْحَكَ أهْلَ الْجَنَّةِ فِيْهَا ، وَأبْكَى أهْلَ النَّار فِيْهَا). وقال عطاءُ : (مَعْنَاهُ : وَإنَّهُ هُوَ أفْرَحَ وَأحْزَنَ). وقال الضحَّاكُ : (أضْحَكَ الأَرْضَ بالنَّبَاتِ ، وَأبْكَى السَّمَاءَ بالْمَطَرِ). وقِيل : أضْحَكَ الأَشْجَارَ بالأَثْمَار ، وَأبْكَى السَّحَابَ بالأَمْطَار).

وقال ذُو النُّون : (أضْحَكَ قُلُوبَ الْعَارفِينَ بشَمْسِ مَعْرِفَتِهِ ، وَأبْكَى قُلُوبَ الْعَاصِينَ بظُلْمَةِ نُكْرَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ). وقال سهلٌ : (أضْحَكَ الْمُطِيعَ بالرَّحْمَةِ ، وَأبْكَى الْعَاصِي بالسُّخْطِ). وسُئِلَ ظاهرُ المقدسيُّ : أتَضْحَكُ الْمَلاَئِكَةُ ؛ فَقَالَ : (مَا ضَحِكَتْ مِنْ دُونِ الْعَرْشِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ جَهَنَّمَ).

وَقِيْلَ لِعُمَرَ رضي الله عنه : هَلْ كَانَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ يَضْحَكُونَ ؟ قَالَ : (نَعَمْ ، وَالإِيْمَانُ وَاللهِ أثْبَتُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي). وقال محمَّد بن علي الترمذي : (مَعْنَى الآيَةِ : هُوَ أضْحَكَ الْمُؤْمِنَ فِي الآخِرَةِ وَأبْكَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَأضْحَكَ الْكَافِرَ فِي الدُّنْيَا وَأبْكَاهُ فِي الآخِرَةِ).

(٠/٠)

وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا } ؛ أي أماتَ في الدُّنيا وأحيَا في البعث للجزَاءِ. وَقِيْلَ : أماتَ الآباءَ وأحيَا الأبناءَ. وَقِيْلَ : أماتَ الكافرَ بالنكدةِ والقطيعةِ ، وأحيَا المؤمنَ بالمغفرةِ ، والوَصلَةِ ، قال اللهُ{ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ }[الأنعام : ١٢٢].

(٠/٠)

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى } ؛ أي خلَقَ الصِّنفين الذكر والأُنثى من كلِّ حيوانٍ من نُطفَةٍ إذا تقذفُ في الرَّحِمِ لتقديرِ الولد ، والمعنى : ما يقدَّرُ منه الولدُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى } ؛ يعني بالنَّشأَةِ الأُخرى الخلقَ الثانِي للبعثِ يومَ القيامةِ يُعِيدُهم أحياءً.

(٠/٠)

وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى } ؛ قال الضحَّاكُ : (مَعْنَاهُ : أغْنَى بالذهَب وَالْفِضَّةِ وَصُنُوفِ الأَمْوَالِ كَالإِبلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ). وقال الحسنُ وقتادة : (أغْنَى وَأخدَمَ).
وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (أغْنَى وَأرْضَى بمَا أعْطَى). وَقِيْلَ : معناهُ : أغنَى وأفقرَ ، وَقِيْلَ : أغنَى ؛ أي أكثرَ ، وأقنَى أي أقَلَّ ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ }[الروم : ٣٧].
وقال الأخفشُ : (أقْنَى : أفْقَرَ وَأجْوَعَ) ، وَقِيْلَ : أقْنَى بأرباحِ الأموالِ وفُروعِها ، وأقنَى بأُصُولِها ، فالأُولى

: مثلُ الذهب والفضَّة ، يتصرف بهما ويربحُ عليهما ، والثانيةُ : مثلُ الضِّياعِ والأنعامِ ، يستبقِي الإنسانُ أُصولَها وينتفعُ بما يحصلُ له منها.

(٠/٠)

وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩)

قوله : { وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى } ؛ وهو كوكبٌ خلفَ الجوزاءِ ، كان يعبدهُ أناسٌ من خُزَاعَةَ ، قال اللهُ : أنا ربُّ الشِّعرَى فاعبُدوني ، يقالُ للشِّعرى : مِرْزَم الجوزاء. وهما شِعرَتَانِ ؛ أحدُهما : العَبُورُ ؛ والأخرى : الغُمَيصَاءُ ، وأراد ههنا الشِّعرَى العَبُورُ ، أعلمَ اللهُ تعالى أنه ربُّ الشِّعرَى وخالِقُها ، وأنه هو المعبودُ لا معبودَ سواهُ.

(٠/٠)

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى * وَثَمُودَ فَمَآ أَبْقَى } ؛ معناهُ : وأنه أهلكَ قومَ هودٍ بريحٍ صَرْصَرٍ ، وهم أوَّلُ عادٍ كانوا ، وأوَّل عادٍ الأُخرى فاقتَتَلوا فيما بينهم فَتَفَانَوا بالقتلِ ، كانت عادٌ الأُخرى من نسلِ عادٍ الأُولى.

وقرأ نافعُ وأبو عمرٍو ويعقوبُ : (عَاداً الأُولَى) مُدغَماً ، وهمزَ الواوَ نافعُ ، وقرئَ بإسكانِ اللام وإثباتِ الهمز وهي الأصلُ في الكلامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَثَمُودَ فَمَآ أَبْقَى } وأهلكَ قومَ صالح بالصَّيحة فما أبقَى منهم أحداً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ } ؛ أي وأهلَكنا قومَ نوحٍ من قبلِ عادٍ وثمودَ ، { إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى } ؛ من غيرِهم ، لأنَّ نوحاً عليه السلام لَبثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عَاماً فما آمَنَ منهم إلاَّ أنفسٌ يَسِيرَةٌ.

(٠/٠)

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى } ؛ معناهُ : وقُرِىَ قومِ لوطٍ الأربعُ رفَعَها جبريلُ إلى السَّماء الدنيا فأَسقَطَها إلى الأرضِ. والمعنى : أهوَاهَا جبريلُ إلى الأرضِ بعدَ ما رفعَها ، وأتبَعَهم اللهُ الحجارةَ ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى } ؛ يعني الحجارةَ والجزاءَ والنِّكَالَ. وسُميت الْمُؤْتَفِكَةُ من قولِهم : أفَكْتُهُ ؛ أي قَلَبْتُهُ ، والمؤتفكةُ هي الْمُنْقَلِبَةُ.

(٠/٠)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى } ؛ أي فبأيِّ نِعَمِ ربكَ أيُّها الإنسان تَتَشَكَّكُ وتَرتَابُ ، قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيدُ : فَبِأَيِّ نِعَمِ رَبكَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تُشَكِّكُ وَتُكَذِّبُ يَا وَلِيدُ) يعني الوليدَ بن المغيرةِ. وذلك أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عدَّدَ ما فعلَهُ مما يدلُّ على و حدانيَّتِهِ قال { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى }. فإنْ قيلَ : ما معنى ذِكْرِ النِّعَمِ ههنا وقد تقدَّمَ ذِكرُ الإهلاكِ ؟ قُلْنَا : إنَّ النِّعَمَ التي عُدَّتْ قبلَ هذه نِعَمٌ علينا لِمَا نَالَنَا فيها من المزاجِرِ ، كيلاَ يَسْلِكَ منا أحدٌ مَسالِكَها.

(٠/٠)

هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُوْلَى } ؛ يعني مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم من النُّذُر الأُولَى من الرُّسُلِ قبلَهُ ، والمعنى : هذا الرسولُ نَذِيرٌ لكم مَجْرَاهُ في الإنكار مَجْرَى من تَقدَّمَهُ من الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ.

(٠/٠)

أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨)

وقولهُ تعالى : { أَزِفَتِ الآزِفَةُ } ؛ أي دَنَتِ القيامةُ واقتربَتْ : قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ } ؛ أي ليس للقيامةِ إذا غَشِيَتِ الخلقَ شدَائِدُها أحدٌ يكشِفُ عنهم ، وهذا قولُ عطاءٍ والضحَّاك وقتادةُ وثابت ، (كَاشِفَةٌ) على تقديرِ : ليس لها نفسٌ كاشفةٌ ، ويجوزُ قوله { كَاشِفَةٌ } مصدراً كالجاثيةِ والعاقبةِ ؛ أي { لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ } أي لا يكشِفُ عنها غيرهُ ، ولا يعلَمُ متى هو إلاَّ هو ، وهذا كقولهِ{ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ }[الأعراف : ١٨٧].

(٠/٠)

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمِنْ هَاذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ } الخطابُ لِمُشرِكي قريشٍ ، والمعنى : أفَمِنْ هذا القرآنِ الذي يُتلَى عليكم تَعجَبُونَ من إنزالهِ على مُحَمَّدٍ تَكذيباً ، وتضحَكُون استهزاءً ولا تَبْكُونَ مما فيه من الوعيدِ والزَّواجرِ والتخويفِ.

(٠/٠)

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١)

قَوْلُه تَعَالَى : { وَأَنتُمْ سَامِدُونَ } ؛ أي لاَهُونَ غافلون عنه ، يقال : دَعْ عنك سُمُودَكَ ؛ أي لَهْوَكَ ، قال أُميَّةُ : ألاَ أيُّهَا الإنْسَانُ إنَّكَ سَامِدُ لاَ تَفْنَى وَلاَ أنْتَ هَالِكُوالسُّمُودُ : هو الغفلَةُ والسَّهوُ عن الشيءِ ، وقال الكلبيُّ : (السَّامِدُ : الجِدُّ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ ، وَبِلِسَانِ الْيَمَنِ : اللاَّهِي) ، قال الضحَّاكُ : (سَامِدُونَ : أيْ أشِرُونَ بَطِرُونَ) ، وقال مجاهدُ : (سَامِدُونَ ؛ أيْ مُبَرْطِمُونَ) ، والبَرْطَمَةُ : أن يُدلِي الإنسانُ شَفَتَهُ من الغضب ، وفي لُغة اليمنِ : أسْمِدْ لنَا ؛ أي أعِنْ لَنَا.

وعن أبي هريرة قالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ { أَفَمِنْ هَاذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ } بكَى أهْلُ الصُّفَّةِ حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ ، فَلَمَّا سَمِعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حَنِينَهُمْ

بَكَى مَعَهُمْ فَبَكَيْنَا ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لاَ يَلِجُ النَّارَ مَنْ بَكَى مَعَهُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُواْ لَجَاءَ اللهُ بقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ ".

(٠/٠)

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)

(٠/٠)

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢)

{ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ } ؛ معناهُ : دنَتِ القيامةُ وحدَثَ عَلَمٌ من أعلامِها ، وهو انشقاقُ القمرِ ، { وَإِن يَرَوْاْ آيَةً } ؛ يعني أهلَ مكَّة علامةً تدلُّهم على وحدانيَّة اللهِ ونُبوَّةِ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم ، { يُعْرِضُواْ } ؛ أي يَجحَدُوا ، { وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ } ؛ أي شديدٌ قويٌّ من الْمِرَّةِ وهي القوَّةُ.

(٠/٠)

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣)

وقولهُ تعالى : { وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُمْ } ؛ أي كذبُوا الرُّسُلَ وثَبَتوا على التكذيب وعَمِلُوا بهَوَى أنفُسِهم في عبادةِ الأصنام ، { وَكُلُّ أَمْرٍ } ؛ بما أخبرَ اللهُ به من الأمُور الماضيةِ والمنتظَرَةِ ، { مُّسْتَقِرٌّ } ؛ أي ثابتٌ لا تلحقهُ الزيادةُ والنقصان والتغيير والتبديلُ.
وسببُ نزولِ هذه الآياتِ ، هو ما رُوي : " أنَّ أهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم آيَةً وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حِينَ قَالَ أبُو جَهْلٍ : وَاللاَتِ وَالْعُزَّى! لَئِنْ أتَيْتَ آيَةً كَمَا أتَتْ بِهِ الرُّسُلُ قَبْلَكَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " وَمَاذا عَلَيْكَ لَوْ حَلَفْتَ باللهِ الْعَظِيمِ ؟ " فَقَالَ : وَرَب هَذِهِ الْكَعْبَةِ لَئِنْ أتَيْتَ بآيَةٍ كَمَا أتَتْ بِهِ الرُّسُلُ قَبْلَكَ لآمَنَّا بكَ ".

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : " اجْتَمَعَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُواْ : إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فَشُقَّ لَنَا الْقَمَرَ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إِنْ فَعَلْتُ تُؤْمِنُونَ ؟ " قَالُواْ : نَعَمْ ، فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَبَّهُ أَنْ يُعْطِيَهُ مَا قَالُواْ ، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ فِرْقَتَيْنِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " يَا فُلاَنُ ؛ وَيَا فُلاَنُ ؛ وَيَا فُلاَنٌ : إِشْهَدُوا " ".

وعن ابن مسعودٍ قالَ : " أَشَارَ إِلَى الْقَمَرِ فَانْفَلَقَ فِلْقَتَيْنِ ، فَكَانَتْ إِحْدَاهُمَا فَوْقَ الْجَبَلِ ، وَالأُخْرَى أَسْفَلَ مِنَ الْجَبَلِ حَتَّى رَأى الْجَبَلَ بَيْنَ فِلْقَتَي الْقَمَرِ ، وَقَالَ : " اشْهَدُوا " فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : إِنَّ مُحَمَّداً سَحَرَ الْقَمَرَ! ثُمَّ قَالَ أَبُو جَهْلٍ لأَصْحَابِهِ : ابْعَثُوا بالرُّسُلِ إِلَى الْبلاَدِ فَإِنْ عَايَنُواْ مِنْ ذلِكَ مَا عَايَنَّا فَهُوَ آيَةٌ ، وَإِلاَّ فَهُوَ سِحْرٌ. فَبَعَثُواْ الرُّسُلَ إِلَى جَمِيعِ الْبلاَدِ ، فَإِذا النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بانْشِقَاقِ الْقَمَرِ ، فَلَمَّا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرُوهُمْ بِهِ قَالُوا : إِنَّ هَذا سَاحِرٌ دَاهِي "

(٠/٠)

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ } ؛ يعني أهلَ مكَّة جاءَهم من أخبار الأُمم المكذِّبة في القرآنِ ما فيه مُنتهَى لهم عمَّا هم فيه من الكُفرِ والفُسوقِ.

(٠/٠)

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ } ؛ بدلَ من (مَا) والمعنى : جاءَهم حِكمَةٌ في نِهايَةِ الْحُكْمِ والصَّواب. وَقِيْلَ : المرادُ بالحكمةِ البالغةِ القرآنُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ } ؛ ما تُغنِي الرُّسُل صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ عن قومٍ لا يتَدبَّرون ولا يتَفكَّرون في الآية والنُّذر.

(٠/٠)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ } ؛ أي أعرِضْ عنهم فليسَ عليكَ إجبارُهم على الدِّين ، وإنَّما عليكَ إقامةُ الْحُجَّة وقد بالَغْتَ فيها ، وهذه الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ القتالِ. وهذا وقفٌ تامٌّ ، وقوله تعالى { يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ } ابتداءُ الكلامِ كلام.

قال مقاتلُ : (أرَادَ بالدَّاعِي إسْرَافِيلَ يَنْفُخُ قَائِماً عَلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ) { إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ } ؛ أي إلى أمرٍ فَظِيعٍ لَمْ يرَوا مِثلَهُ فينكرونَهُ استِعظَاماً ، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ }. وقوله تعالى : { يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ } منصوبٌ على معنى واذْكُرْ.

(٠/٠)

خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ } ؛ نُصِبَ على الحالِ مِن يخرجُون ، وذلك دليلٌ على تقدُّم الحالِ على الفعلِ المتصَرِّف ، وكذلك يقالُ : رَاكباً جاءَ زيدٌ كما يقالُ جاء زيد راكباً ، وتقديرهُ : ويُخرَجُون من الأجداثِ خُشَّعاً أبصارُهم.

قرأ أبو عمرٍو ويعقوب وحمزةُ والكسائي وخلف : (خَاشِعاً) بالألفِ ، وقرأ الباقون : (خُشَّعاً) على الجمعِ. قال الفرَّاءُ : (يَجُوزُ فِي أسْمَاءِ الْفَاعِلِينَ إذا تَقَدَّمَتْ عَلَى الْجَمَاعَةِ التَّوْحِيدُ وَالْجَمْعُ وَالتَّأْنِيثُ ، يُقَالُ : مَرَرْتُ بشَبَابٍ حَسَنٍ أوْجُهُهُمْ ، وَحِسَانٍ أوْجُهُهُمْ ، وحَسَنَةٍ أوْجُهُهُمْ). وفي قراءةِ عبدِالله : (خَاشِعَةً أبْصَارُهُمْ) أي ذليلةً خاضعةً عند رُؤية العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ } ؛ أي يَخرُجون عندَ النَّفخةِ من القُبور فَزِعِينَ لا يَهتَدُون إلى شيءٍ ، يحولُ بعضُهم إلى بعضٍ مثلَ الجرادِ المنتشرِ. والمعنى : أنَّهم يخرُجون فَزِعين لا جهةَ لأحدٍ منهم فيقصِدُها ، والجرادُ لا جهةَ له تكون أبداً مختلفةً بعضها فوقَ بعضٍ.

(٠/٠)

مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ } ؛ أي مُنقَلِبينَ إلى صَوتِ إسرافيلَ نَاظِرين مُتحيِّرين مُسرِعين إليه ، { يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَاذَا يَوْمٌ عَسِرٌ } ؛ أي صَعْبٌ شديدٌ ، قال ابنُ عبَّاس : (عَسِرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَسَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ). والإهْطَاعُ : الإسْرَاعُ.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا } ؛ أي كذبت قبلَ قومِكَ قومُ نوحٍ كما كذبَكَ قومُك ، ونَسَبُوا نوحاً إلى الجنُونِ ، كما نسبَكَ قومُكَ إلى الجنون ، { وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ } ؛ أي فكذبُوا عَبدَنا نُوحاً وقالوا : مجنونٌ وَزَجَرُوهُ عن دُعَائِهم إياهُم إلى الإيمانِ بالشَّتمِ والوعيدِ ، فـ{ قَالُواْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ }[الشعراء : ١١٦].

(٠/٠)

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ } ؛ معناهُ : فدَعَا نوحُ ربَّهُ أنِّي مغلوبٌ بينَهم ومقهورٌ ، فانتَقِمْ لِي مِمَّن كذبَني ، ومعنى قولهِ تعالى { فَانتَصِرْ } أي فَانتَقِمْ منهُم لدِينِكَ ، وإنما دعَا عليهم بالهلاكِ بعد ما أُذِنَ له في الدُّعاء.
فأجابَ اللهُ دعاءَهُ فقالَ : اللهُ تعالى : { فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ } أي بماءٍ سَيلٍ مُنْصَبٍّ انْصِبَاباً شَديداً لا ينقطعُ ، متدفِّقٌ مع كثرةٍ شديدة ، قال الكلبيُّ : (إنْصَبَّ أرْبَعِينَ يَوْماً). وقُرئ (فَفَتَّحْنَا) بالتشديدِ على تكثيرِ الفعل ، وذكرُ الأبواب في الآية على معنى أنَّ إجراءَ الماءِ كان بمنْزِلة جَرَيانهِ كأنَّهُ فُتِحَ عنه باباً كان مانِعاً له.

(٠/٠)

وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً } ؛ أي شقَّقنا الأرضَ عُيوناً ، { فَالْتَقَى المَآءُ } ؛ ماءُ السَّماء وماءُ الأرضِ ؛ { عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } ؛ في اللَّوح المحفوظِ وهو هلاكُ القوم ، وقرأ الحجدري : (فَالْتَقَى الْمَاءَانِ).

(٠/٠)

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ } ؛ معناهُ : وحَملنا نُوحاً ومَن آمَنَ معه على سفينةٍ ذاتِ ألواحٍ وهي خشَبَاتُها ، { وَدُسُرٍ } يعني المساميرَ يُشَدُّ بها الألواحُ واحدها دِسَارٌ ، والمعنى على سفينةٍ ذات ألواحٍ ومَسامِيرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } ؛ أي تجري بحِفظِنا ، ووَحينا وأمرِنا حتى لا يقعَ فيها شيءٌ من الماءِ وتتكسَّرُ ولا تغرَقُ ، وقوله تعالى : { جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ } ؛ أي فعَلنا ذلك مِن إنجائهِ وإغراقِهم ثَواباً لِمَن كُفِرَ به وجُحِدَ أمرهُ ، وهو نوحُ عليه السلام كفرَهُ قومهُ وجَحَدُوا به ، وقرأ مجاهدُ (جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ) بفتحِ الكافِ والفاء ، يعني كان الغرقُ جَزاءً لِمَن كفرَ باللهِ وكذبَ رسولَهُ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥)

قولهُ تعالى : { وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا آيَةً } ؛ يعني تركنا هذه الفعلةَ ، ويقالُ : السفينةُ التي يصنَعُها الناسُ على مثالِ سفينة نُوحٍ عليه السلام علامةٌ للناسِ ليَعتَبروا ويستَدِلُّوا بها على توحيدِ الله ، { فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ } ؛ فهل من مُتَّعظٍ مُعتَبرٍ متدَبرٍ متفَكِّرٍ يعلمُ أنَّ ذلك حقٌّ فيعتبرُ.

(٠/٠)

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } ؛ معناهُ : فَانظُرْ يا مُحَمَّدُ كيف كان عُقوبَتي فيمَن أنذرَهم الرسلُ فلم يُؤمنوا ، وهذا استفهامٌ ومعناهُ : التعظيمُ لذلكَ العذاب ، وهذا تخويفٌ لِمُشرِكي مكَّة.

(٠/٠)

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ } ؛ أي سهَّلنَاهُ للحِفْظِ والقراءةِ والكتابة ، وقال سعيدُ بن جُبير : (لَيْسَ كِتَابٌ مِنْ كُتُب اللهِ يُقْرَأُ كُلُّهُ ظَاهِراً إلاَّ الْقُرْآنُ) ، وقولهُ تعالى : { فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ } ؛ أي فهَلْ ذاكِرٌ يذكرهُ وقَارئٌ يقرؤهُ ، ومعناه : الحثُّ على قراءةِ القرآن ودَرسهِ وتعلُّمهِ ، ولولا تسهيلُ اللهِ علينا ذلك لم يستطِعْ أحدٌ أن يَلْفِظَ بهِ.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً } ؛ أي باردةٍ شَديدَةِ البردِ وشديدةِ الْهُبُوب ، { فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ } ؛ أي يومٍ مَشْؤُومٍ عليهم ، دائمِ الشُّؤم ، رُوي : أنه كان يومَ الأربعاءِ الذي في آخرِ الشَّهر لا يدورُ. ويقال : معنى قولهِ { مُّسْتَمِرٍّ } استمرَّ بهم العذابُ إلى نار جهنَّم.

(٠/٠)

تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ } ؛ أي تَقلَعُ الناسَ من الأرضِ من تحتِ أقدامِهم ، ثم تَرمِي بهم على رُؤوسِهم فتدقُّ رقابَهم وتقطعُ أعناقَهم ، فتُبقِي أجسادَهم كأنَّها أعجازُ نخلٍ مُقَطَّعٍ.
ويقالُ في معنى { تَنزِعُ النَّاسَ } لأنَّهم ضُرِبُوا بأرجُلِهم في الأرضِ فغَيَّبوها إلى قريبٍ مِن رُكوبهم وقالوا : قُل للرِّيحِ حتى يرفَعنا ، فجُعلت الريحُ تدخلُ تحتَ أقدامِهم وترفعُ كلَّ اثنين وتضرِبُ بأحَدِهما إلى الآخرِ في الهواء ، ثم تُلقِيهما في الوادِي ، والباقون ينظُرون إليهم حتى رفَعتهم كُلَّهم وصيَّرتْهم في الأرضِ { كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ } أي سَاقِطٍ ، ثم رَمَت بالتُّراب عليهم ، فكان يُسمَعُ أنِينُهم من تحتِ التُّراب.
يقالُ : قَعَرَ النَّخلةَ إذا قلَعتَها من أصلِها حتى تسقُطَ ، شبَّهَهم في طُولِهم حين صرَعتهم الريحُ وكَبَّتْهُم على وُجوهِهم بالنَّخلة الساقطةِ على الأرضِ التي ليس لها رُؤوس ، وذلك أنَّ الريح قَلعَتْ رُؤوسَهم أوَّلاً ثم كبَّتهم على وُجوهِهم.

(٠/٠)

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ } ؛ إنما كرَّرَهُ لأنه ذكر في كلِّ فَصلٍ نَوعاً من الإنذار والتَّعذيب ، انعقدَ التذكيرُ شيء شيء منه على التفصيلِ.
قال ابنُ الأنبَاريِّ : (وَسُئِلَ الْمُبَرِّدُ عَنْ أَلْفِ مَسْأَلَةٍ هَذِهِ مِنْ جُمْلَتِهَا : وَهُوَ أَنَّ السَّائِلَ قَالَ لَهُ : مَا الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ{ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ }[يونس : ٢٢] وَقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً }[الأنبياء : ٨١] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : { كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ }[القمر : ٢٠] و{ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ }[الحاقة : ٧] ، فَقَالَ : كُلُّ مَا وَرَدَ عَلَيْكَ مِنْ هَذا الْبَاب فَلَكَ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَى اللَّفْظِ تَذْكِيراً ، وَلَكَ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَى الْمَعْنَى تَأْنِيثاً).

(٠/٠)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ } ؛ أي بالإنذار الذي جاءَهم به صالِحُ عليه السلام ، { فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ } ؛ أي هو آدَمِيٌّ مِثلُنا وهو واحدٌ فلا نكون له تَبعاً ، { إِنَّآ إِذاً } ؛ إنْ فعَلنا ذلك ، { لَّفِي ضَلاَلٍ } ؛ وذهابٍ عن الحقِّ ، { وَسُعُرٍ } ؛ أي وشقاءٍ وشدَّةِ عذابٍ مما يُلزِمُنا من طاعتهِ ، وقال عطاءُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ { وَسُعُرٍ } أيْ وَجُنُونٍ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : نَاقَةٌ مَسْعُورَةٌ ؛ إذا كَانَ بهَا جُنُونٌ مِنَ النَّشَاطِ ، وَهُوَ مِنْ سُعُرِ النَّار إذا الْتَهَبَتْ).

(٠/٠)

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا } ؛ أنْكَروا أنْ يكون الوحيُ يأْتِيهِ ، فقالوا : كيف خُصَّ مِن بيننا بالنُّبوَّة والوحي ، { بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ } ؛ فيما يقولُ ، { أَشِرٌ } أي بَطِرٌ متَكبِّرٌ يريدُ أن يتكبَّرَ علينا بالنبوَّةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { سَيَعْلَمُونَ غَداً } ؛ حين ينْزِلُ بهم العذابُ ، يعني يومَ القيامةِ ، { مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ } ؛ أهُمْ أمْ صَالِحُ؟.

(٠/٠)

إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا مُرْسِلُواْ النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ } ؛ أي إنَّا مُخرِجو الناقةِ من الصَّخرة تَشديداً عليهم في التكليفِ ، وذلك أنَّهم تَعَنَّتُوا صَالحاً فسأَلُوا أن يُخرِجَ لَهم من صخرةٍ حمراءَ عشراءَ ، وقوله : { فَارْتَقِبْهُمْ } ؛ أي فانتظِرْهم ما هم صَانِعون ، { وَاصْطَبِرْ } ؛ على أذاهُم ولا تَعْجَلْ حتى يَأْتِيَهُمْ أمرِي.

(٠/٠)

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨)

قوله : { وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ } أي أخبرهُم أنَّ الماءَ مقسومٌ بين الناقةِ وولَدِها وبينهم وبين مَواشِيهم ، يومٌ لَهُما ويومٌ لَهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ } ؛ أي كلٌّ منهم يحضرُ نَوبَتَهُ ، فتحضرُ الناقةُ وولدُها يومَ نَوبَتِهما ، ويحضرُ القومُ يومَ نَوبَتهم. والشِّرْبُ : نصيبٌ من الماءِ ، والشُّرْبُ – بضم الشِّين – : فعلُ الشَّارب.

(٠/٠)

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ } ؛ أي نادَوا قُدَارَ بنَ سَالِفٍ عَاقِرَ الناقةِ ، { فَتَعَاطَى فَعَقَرَ } وذلكَ أنَّهم لَمَّا مكَثُوا قسمةَ الماء زَماناً ، ثم ضاقَ عليهم الأمرُ على مواشِيهم بسبب الناقة ، غلبَ عليهم الشَّقاءُ ، وتوَطَّأَ طائفةٌ منهم على قَتلِها ، فنادَوا صاحبَهم الذي كَمَنَ لهما.

وذلك أنه رمَاها رجُلٌ منهم يقالُ له : مصدع بن دَهْرٍ بسَهمٍ فضَرَبَها على سَاقِها ، فنادَوا قُدَارَ بن سالف ، وقالوا له : دونَكَ الناقةُ قد مرَّتْ بكَ فاضرِبْها ، فتعاطَى قُدارُ عقرَ الناقةِ ، فعقَرَها بأنْ ضربَ ساقَها الأُخرى فسَقطَتْ على جَنبها ، وقطَّعُوا لَحمَها وقسَموهُ ، فعاقبَهم اللهُ بصيحةٍ فأَهلَكَهم وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ } ؛ قال عطاءُ : (يُرِيدُ صَيْحَةَ جِبْرِيلَ عليه السلام أَسْمَعَهُمُ الله إِيَّاهَا فَهَلَكُواْ ، وَصَارُواْ كَالْوَرَقِ الْمُتَهَشِّمِ الَّذِي يَجْمَعُهُ صَاحِبُ الْحَضِيرَةِ إذا يَبِسَ غَايَةَ الْيُبْسِ ، وَتَحَطَّمَ غَايَةَ الانْحِطَامِ).

قال ابنُ عبَّاس : (هُوَ رَجُلٌ يَجْعَلُ الْغَنَمَةَ حَظِيرَةً بالشَّجَرِ وَالشَّوْكِ لِيَحْرُسَهَا مِنَ السِّبَاعِ ، فَمَا سَقَطَ مِنْ وَرَقِ ذلِكَ الشَّجَرِ وَيَبِسَ ، وَدَاسَتْهُ الْغَنَمُ وَتَحَطَّمَ وهَوَ الْهَشِيمُ). وقال ابنُ زيدٍ : (الْهَشِيمُ هُوَ الشَّجْرُ الْبَالِي الَّذِي تَهَشَّمَ حَتَّى ذرَّتْهُ الرِّيحُ ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ شَيْءٍ كَانَ رَطِباً فَيَبِسَ فَهُوَ هَشِيمٌ) { وَلَقَد يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ }.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً } ؛ أي ريحاً تَرمِيهم بالْحَصْبَاءِ ، والحصباءُ : هي الحجارةُ التي هي دُونَ مِلْءِ الكَفِّ ، قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيدُ مَا صُبُّوا بِهِ مِنَ السَّمَاءِ مِنَ الْحِجَارَةِ) ، وقولهُ تعالى : { إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ } ؛ يعنِي بنْتَيْهِ وزَوجتَهُ المؤمنةُ ، نَجَّاهم اللهُ من العذاب ، { نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا } ؛ بأَنْ أمَرَهم بالخروجِ في وقت السَّحَر ، وكانت نَجَاتُهم نعمةً من اللهِ عليهم ، { كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ } ؛ وكذلك يَجزِي اللهُ كُلَّ مَن عرفَ إنعَامَهُ وقابلَهُ بالشُّكرِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦)

قَوْلُهُ تعَالَى : { وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا } ؛ أي خوَّفَهم لوطُ عذابَنا ، { فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ } ؛ فشَكُّوا في الإنذار ؛ أي فتَدافَعوا بالْحِجَاجِ البَاطِلِ ، ويقالُ : جادلوهُ في أمرِ الرِّسالةِ ولم يُصدِّقوهُ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ } ؛ أي طلَبُوا أن يُسَلِّمَ إليهم أضيافَهُ وهم الملائكةُ قَصْداً منهم إلى عمَلِهم الخبيث ، فأمرَ اللهُ جبريلَ أن يَصْفِقَ بجناحهِ فأعمَاهُم فبَقوا حَيارَى ، ومعنى : { فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ } ؛ أي أعمَينَاهُمْ وصيَّرناهم كسائرِ الوجهِ لا يُرَى له شَقٌّ ، فكانوا عُمياناً متحيِّرين لا يهتدون إلى الباب ، فقيل لَهم : { فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ } ؛ يقال : فلانٌ مَطمُوسُ البصَرِ إذا كان موضعُ عَينَيه أملسَ ، لا أثرَ به للعَينِ من الْجَفْنِ والْحَدَقَةِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً } ؛ أي أتاهم العذابُ صَباحاً ، يعني أخَذهم عند الصُّبحِ ، { عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ } ؛ عذابٌ دَائِمٌ متَّصِلٌ بعذاب الآخرةِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ } ؛ قد مضَى تفسيرهُ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ } ؛ قِيْلَ : إنَّ المرادَ بالنُّذُر : موسَى عليه السلام وهارون ، وأسماءُ الجمعِ يطلَقُ على الاثنين. وَقِيْلَ : أرادَ به الآياتِ التي فيها الإنذارُ ، وَقِيْلَ : المواعظُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ } ؛ أي فأخذنَاهم بالعذاب ، { أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ } ؛ غالبٍ في انتقامه ، متقدرٍ قادرٍ على إهلاكِهم ، والعزيزُ القويُّ الذي لا يلحقهُ ضَعْفٌ ولا عجزٌ ، ولا يعتَريهِ منعٌ ولا دفعٌ.

(٠/٠)

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ } ؛ معناهُ : أكُفَّارُكم يا أهلَ مكَّة أشدُّ وأقوَى من أُولَئِكُمْ الذين قصَصنا ذِكرَهم ، وهذا استفهامٌ ومعناهُ الإنكارُ ؛ أي لَيسُوا أقوَى من قوم نوح وعادٍ وثَمود. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ } ؛ معناهُ : ألَكُمْ براءةٌ من العذاب في الكُتب لن يُصيبَكم ما أصابَ الأُمم الخاليةَ.

(٠/٠)

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ } ؛ معناهُ : أم يقولون نحنُ جميعٌ واحد ومتَّفِقُون على الانتصار من أعدائنا ، ووُحِّدَ المنتصرُ للفظِ الجميع وهو واحدٌ في اللفظِ.

(٠/٠)

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)

قَالَ اللهُ تَعَالَى : { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } ؛ أي سيُهزَمُ الجمعُ كفَّارُ مكة يومَ بدرٍ ، ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ مُنهَزِمين. ومعنى الآية : أنَّ كفار مكَّة يقولون : { نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ } أي جماعةٌ لا تُضَامُ ولا تُرَامَ ، ولا يصُدُّنا أحدٌ بسوءٍ ولاء ، ولا أحدٌ يفَرِّقُ جَمعَنا ، وكان من حقِّه أن يقولَ : نحنُ جميع منتصرون ؛ إلاَّ أنه تَبِعَ رؤوسَ الآيِ. وقوله تعالى : { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ } قراءةُ الكافَّة بالياءِ على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلهُ. وقرأ يعقوبُ بالنون وكسرِ الزاي (الْجَمْعَ) بالنصب.
وإنما وحَّدَ الدُّبر لأجلِ رُؤوسِ الآي ، قال مقاتلُ : (ضَرَبَ أبُو جَهْلٍ فَرَسَهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَتَقَدَّمَ الصَّفَّ ، وَقَالَ : نَحْنُ نَنْتَصِرُ الْيَوْمَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأصْحَابِهِ ، فَهَزَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى).

(٠/٠)

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } ؛ فيه بيانُ ما نزَلَ بهم من القتلِ والأسرِ ببدرٍ لم يكن كَافياً في عُقوبَتهم ، بلِ القيامةُ موعِدُهم ، والقيامةُ أعظَمُ في الدَّهاءِ وأشَدُّ مَرارةً من القتلِ والأسرِ في الدُّنيا ، وكلُّ دَاهِيَةٍ فمعناها الأمرُ الشَّديدُ.

(٠/٠)

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ } ؛ أرادَ بالضَّلال الذهابَ عن الصَّواب في الدُّنيا ، وبالسُّعُرِ عذابَ النار في العُقبَى.

(٠/٠)

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)

وقولهُ تعالى : { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ } ؛ يوم تَجُرُّهم الملائكةُ في النار على وُجوهِهم فيقولُ لهم : { ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ } ؛ وسَقَرُ اسمٌ من أسماءِ دَرَكَاتِ جهنَّم.
قال أبو أُمَامَةَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْقَدَرِيَّةِ : { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ } ".
وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الْقَدَرِيَّةُ ، وَهُمُ الْمُجْرِمُونَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ } ".
وعن هشامِ بن حسَّان قالَ : سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ : (وَاللهِ لَوْ أنَّ قدرياً صَامَ حَتَّى يَصِيرَ كالْجَبَلِ ، ثُمَّ صَلَّى حَتَّى يَصِيرَ كَالْوَتَرِ ، ثُمَّ أُخِذ ظُلْماً وَزُوراً حَتَّى ذُبحَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ، لَكَبَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى وَجْهِهِ فِي سَقَرٍ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ : ذُقْ مَسَّ سَقَرْ).

(٠/٠)

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } ؛ معناهُ : كلُّ ما خلَقْنا فمَقدورٌ ومكتوبٌ في اللوحِ المحفوظِ

قبل وُقوعهِ.
عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدَّرَ الْمَقَادِيرَ وَتَدَبَّرَ التَّقْدِيرَ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ آدَمَ عليه السلام بأَلْفَي عَامٍ " وَقَالَ عليه السلام : " الإيْمَانُ بالْقَدَر يُذْهِبُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ "
وانتصبَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلَّ شَيْءٍ } بفِعلٍ مُضمَرٍ ؛ كأنه قالَ : إنَّا خلَقنَا كلَّ شيءٍ بقَدَرٍ.
وعن عمر رضي الله عنه قالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إذا جَمَعَ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نَادَى مُنَادٍ يَسْمَعُهُ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ : أيْنَ خُصَمَاءُ اللهِ ؟ فَتَقُومُ الْقَدَرِيَّةُ فَيُقَالُ لَهُمْ : ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرٍ ".

(٠/٠)

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } ؛ معناهُ : وما أمرُنا بقيامِ السَّاعة أو غيرِ ذلك إلاَّ كلمةً واحدةً لا تُثنَّى كطَرفِ البصرِ ، بل هو أسرَعُ ، ومعنى اللَّمْحِ : النَّظرُ بالعجَلةِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ } ؛ معناهُ : ولقد أهلَكنا أشبَاهَكُم ونُظرَاءَكم في الكُفرِ من الأُممِ الماضية ، { فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ } ، هل من مُتَّعِظٍ يتَّعِظُ بهم.

(٠/٠)

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ } ؛ ومعناهُ : كلُّ شيءٍ فعَلوهُ وقالوا مِن خيرٍ أو شرٍّ ؛ يعني الأشياعَ ؛ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ أنْ يفعلوهُ ، { وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ } ؛ من الذُّنوب والخلقِ

والأعمال ، { مُّسْتَطَرٌ } ؛ مكتوبٌ على فَاعلِهِ قبلَ أنْ يفعلوهُ ، تكتبهُ الملائكةُ في ديوانٍ ليَجزِيَهم اللهُ على أفعالِهم.

(٠/٠)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } ؛ معناهُ : إنَّ الذين يتَّقُونَ الشِّركَ والكبائرَ والفواحشَ في بساتين وأنْهَار جاريةٍ من الماءِ والخمرِ واللَّبن والعسلِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ } ؛ أي مجلسٍ حَسَنٍ وموضعِ قرارٍ وأمنٍ من وُقوعِ الحوادثِ ، { عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ } ؛ أي عند مَلِيكٍ قادرٍ على الثَّواب والعقاب ، قادرٍ لا يعجزهُ شيءٌ وهو الله عَزَّ وَجَلَّ ، ومَقْعَدُ الصِّدقِ هو الجنَّةُ ، مدحَ اللهُ المكان بالصِّدقِ ، ولا يقعدُ فيه إلاَّ أهلُ الصِّدقِ.
وإنما قال (وَنَهَرٍ) مُوَحِّداً لأجلِ رُؤوسِ الآيِ كقوله تعالى : { وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ }[القمر : ٤٥] ، وقال الضحَّاكُ : (مَعْنَاهُ : فِي فَضَاءٍ وَسِعَةٍ وَنُورٍ وَمِنْهُ النَّهَارُ ، وَمِنْ ذلِكَ نَهَرْتُ الْفِضَّةَ إذا وَسَّعْتَهَا) ، وقرأ الأعرجُ وطلحة (وَنُهُرٍ) بضمَّتين كأنه جمعُ نَهَارٍ لا ليلٍ.

(٠/٠)

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)

{ الرَّحْمَانُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ } ؛ هذا جوابٌ لقول كفَّار قُريش حين قالوا : إنَّ مُحَمَّداً يقولُ ما يقول من تِلقاء نفسهِ ، ولم يُوحَ إليه شيءٌ ، ومنهم مَن كان يقولُ : إنما يعلِّمهُ بشَرٌ ، فردَّ اللهُ عليهم مقالتَهم وبيَّن أنه هو الذي عَلَّمَ مُحَمَّداً القرآنَ على لسانِ جبريلَ عليه السلام.

(٠/٠)

خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ } ؛ قِيْلَ : المرادُ منه آدمُ عليه السلام علَّمَهُ اللهُ جميعَ اللُّغات وأسماءَ كلِّ شيءٍ ، وكان آدمُ عليه السلام يتكلَّمُ سبعَمائة ألف لُغة أفضَلُها العربيةُ.

ويجوز أنْ يكون الإنسانُ اسمُ جنسٍ بمعنى جميعَ الناسِ ، { عَلَّمَهُ البَيَانَ } وهو المنطِقُ والكتابةُ والحِفْظُ والفهمُ والإفهام حتى عرَفَ الإنسانُ ما يقول وما يُقال له.

وَقِيْلَ : معنى البيانِ : بيانَ الحلالِ والحرامِ ، وبيان الخيرِ والشرِّ ، وما يأتِي وما يذرُ. وقال أبو العاليةِ : (يَعْنِي الكَلاَمَ). الْحَسَنُ (النُّطْقَ وَالتَّمْيِيزَ) ، وَقِيْلَ : الكتابةُ بالقلمِ ، وقال السديُّ : (عَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ لِسَانَهُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ بِهِ).

(٠/٠)

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } ؛ معناهُ : والنجمُ في السَّماء ، والشجرُ في الأرضِ يسجدُان لله تعالى. وَقِيْلَ : معناهُ : النباتُ والشجرُ يسجُدان ، فإنَّ النَّجْمَ ما نبتَ على غيرِ ساقٍ ، والشجرَ ما نبتَ على ساقٍ في اللغة ، كما يقالُ في كلِّ ما طلعَ : إنه نجمٌ ، ومن ذلك نَجْمُ القرآنِ.

ومعنى سُجودِهما ؛ أي يُسَبحوهُ ظِلاَلُهما كقولهِ{ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلَّهِ }[النحل : ٤٨]. وَقِيْلَ : يسجُدان للهِ على الحقيقةِ ، إلاّ أنَّنا لا نَفْقَهُ على سُجودِهما كقولهِ تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ }[الحج : ١٨].

(٠/٠)

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ } ؛ معناهُ : رفعَ السماءَ فوقَ الأرضِ لِيُستَدَلَّ على وحدانيَّة اللهِ تعالى وكمالِ قُدرتهِ ، وقولهُ تعالى { وَوَضَعَ الْمِيزَانَ } قال مجاهدُ : (مَعْنَاهُ : وَأَمَرَ بالْعَدْلِ) ، وقال الضحَّاكُ وقتادةُ : يَعْنِي الْمِيزَانَ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ لِيُتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى الإِنْصَافِ وَالانْتِصَافِ ، وَلَوْلاَ الْمِيزَانُ

لَتَعَذرَ الْوُصُولُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحُقُوقِ).
وقال بعضُهم : أنزلَ اللهُ الميزانَ على هَيئَتِهِ في زمنِ نُوحٍ عليه السلام ولم يكن قبلَ ذلك. وقال بعضُهم : عرَّفَ اللهُ الناسَ ذلك على لسانِ بعضِ الأنبياء ، وَقِيْلَ : إلهامٌ الْهَمَهُمْ كيف يتَّخِذُون الميزانَ ويزِنُون.

(٠/٠)

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الْمِيزَانِ } ؛ معناهُ : لئلاَّ تَميلُوا وتَضِلُّوا وتُجاوزُوا الحدَّ في الميزان. وَقِيْلَ : معناهُ : لئلا تظلِمُوا وتأخُذوا الأكثرَ وتُعطوا الأقلَّ. وقوله تعالى : { وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ } ؛ أي سَوُّوا الميزانَ بالعدلِ والإنصافِ ، { وَلاَ تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ } ؛ وَقِيْلَ : معناهُ : أقِيمُوا ساقَ الميزانِ بالقسطِ ولا تَخونُوا من وَزْنَتِهِمْ له ، ولا تبخَسُوا الوزنَ ، وكلُّ شيءٍ نقَصتَهُ فقد أخسَرتَهُ.

(٠/٠)

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ } ؛ معناهُ : والأرضَ بسَطَها على الماءِ لجميعِ الخلق مِن الجنِّ والإنسان ، مكَّنَها للأحياءِ ، ويُدفَنُ فيها الموتَى ، تدلُّ على وحدانيَّة اللهِ ، وقال الشعبيُّ : (الأَنَامُ : كُلُّ ذِي رُوحٍ).

(٠/٠)

فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهَا فَاكِهَةٌ } ؛ أي في الأرضِ ألوانُ الفاكهةِ ، وقولهُ تعالى : { وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ } ؛ أي ذاتُ الأغطيَةِ ، وهي أوعيةُ التمرِ ، وأكمامُ النَّخلَةِ فإغطاءِ ثَمَرِها يكون في غُلفٍ ما لم يُشَقُّ. ومِن

ذلك يقالُ للقُلْنْسُوَةِ : الأَكَمَةُ ؛ لأنَّها تُغَطِّي الرأسَ ، وقال الحسنُ : (أكْمَامُهَا لِيفُهَا) ، وقال ابنُ زيدٍ : (أكْمَامُهَا : طَلْعُهَا قَبْلَ أنْ يَنْفَتِقَ) ، والحاصلُ أنَّ كلَّ ما يسترُ شيئاً فهو كُمٌّ وَكُمَّةٌ ، ومنه كُمُّ القميصِ.

(٠/٠)

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ } ؛ يريدُ جميعَ الحبوب مما في الأرضِ من الحنطة والشعيرِ وغيرهما ، وقولهُ تعالى { ذُو الْعَصْفِ } أي ذُو الورَقِ الأخضرِ الذي يصيرُ تِبْناً وتُقْتَاتُ به البهائمُ ، ويسمَّى ورقُ الزرعِ عَصْفاً لِخِفَّتِهِ ، وعصُوفُ الريحِ به مع ثُبوتِ الحب في مكانهِ. وَقِيْلَ : سُمي عَصْفاً لأنَّ الريحَ تذهبُ به في وقتِ حَاجَتِهِم إلى تَمْييزِهِمْ الحبَّ من التِّبنِ.

وقوله تعالى : { وَالرَّيْحَانُ } يعني الورقَ في قولِ الأكثرين ، وقال الحسنُ : (هُوَ رَيْحَانُكُمُ الَّذِي يُشَمُّ) ، وقال مقاتلُ : (الرَّيْحَانُ هُوَ الْوَرَقُ بلُغَةِ حِمْيَرَ) ، كأنه قالَ : والحبُ ذو العَصْفِ والورَقِ ، وقال سعيدُ بن جبير : (الرَّيْحَانُ : الزَّرْعُ وَيَكُونُ فِي سُنْبَلٍ).

وأما الْحَبُّ المذكورُ في الآيةِ ، فهو ما يُلقَى في الأرضِ من البَذْر ، والرَّيحانُ هو ما يُخلَقُ من الحب في سُنبُلٍ رزْقاً للعبادِ ، وقد يُذكَرُ الرَّيحانُ بمعنى الورَقِ كما يقولُ العربُ : خرَجنا نطلبُ ريحانَ اللهِ ؛ أي رزقَهُ. والعَصْفُ : هو التِّبْنُ ، والرِّيحانُ هو ثَمَرَتُهُ. وعن ابنِ عبَّاس : (الرَّيْحَانُ هُوَ خُضْرَةُ الزَّرْعِ).

قرأ العامةُ : (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) كلٌّ بالرفعِ عطفاً على الفاكهةِ ، والمعنى فيها الحبُّ وفيها الرَّيحانُ ، ونصَبَها كلَّها ابنُ عامرٍ على معنى خلقَ الإنسانَ وخلقَ هذه الأشياءَ.

وقرأ أهلُ الكوفة إلاَّ عاصِماً : (وَالرَّيْحَانِ) بالكسرِ عطفاً على (الْعَصْفِ) كأنه قال : والحبُّ ذو العصفِ وذو الرَّيحانِ ، وهو الرزقُ الذي يخلَقُ في السُّنبل ، فالريحانُ رزْقُ الناسِ ، والعصفُ رزق الدواب ، فذكرَ قوتَ الناسِ والأنعامِ.

ثم خاطبَ الجنَّ والإنسَ فقال : { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } ؛ وإنَّما قالَ الخطابُ للجنِّ والإنس ؛ لأن تلك الأيامَ فيما مضَى تشتملُ على الجنِّ والإنس ، والمعنى : فبأَيِّ نعمةٍ من نِعَمِ ربكُما تُكذِّبان من هذه الأشياءِ المذكورة ، فإنَّها كلَّها مما أنعمَ اللهُ بها عليكم ، من دلالتهِ إيَّاكم على توحيدهِ ، ومن رزقهِ إيَّاكم ما به قِوَامُكم.

وإنما خاطبَ الجنَّ والإنسَ لأنَّهما مُشتَرِيكان في الوعدِ والوعيدِ. وإنما كُرِّرَتْ هذه الآيةُ في هذه السُّورة تقديراً للنِّعمةِ وتأكيداً للتذكيرِ بها على عادةِ العرب في الإبلاغ والاتِّباع.

وقال الحسينُ بن الفضلِ : (التِّكْرَارُ لِطَرْدِ الْغَفْلَةِ وَتَأْكِيدِ الْحُجَّةِ). وَقِيْلَ : لَمَّا عدَّدَ اللهُ نعمةً بعد نعمةٍ ،

كرَّرَ هذا القولَ ترغيباً في الشُّكر ، وتحذيراً من الكُفرِ والتكذيب بنِعَمِ اللهِ.
وهذه على وجهِ الحقيقة ليس بتكرارٍ ؛ لأنه ذكَرَ كلَّ واحدٍ منها عُقيبَ نعمةٍ لم يتقدَّمْ ذِكرُها. وعن جابرِ بن عبدِالله قالَ : " قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سُورَةَ الرَّحْمَنِ حَتَّى خَتَمَهَا ، ثُمَّ قَالَ : " مَا لِي أَرَاكُمْ سُكُوتاً ؟ لَلْجِنُّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدّاً ، مَا قَرَأتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الآيَةَ مِنْ مَرَّةٍ { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } إلاَّ قَالُوا : لاَ بشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ " ".

(٠/٠)

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ } ؛ أي خلَقَ أصلَ الإنسانِ وهو آدمُ من طينٍ يابسٍ إذا نُقِرَ صَلَّ ؛ أي صَوَّتَ كالفخَّار وهو الْخَزَفُ الذي طُبِخَ بالنار ، يُسمَعُ منه الصوتُ إذا نُقِرَ وإذا اصْطَكَّ بعضهُ ببعضٍ. والمعنى : مِن طينٍ يابسةٍ كالْخَزَفِ.

(٠/٠)

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ } ؛ معناهُ : وخلقَ أصلَ الجنِّ وهو الْجَانُّ أبو الجنِّ من مارجٍ من نارٍ ، وهو الصَّافِي من لَهَب النار ، لا دُخَّانَ فيه. وَقِيْلَ : من لَهَب من نارٍ مختلطٍ بسوَادِ النار. وَقِيْلَ : إنه لسانُ النار الذي يكون في طرَفِها إذا التَهَبت.
وقال مجاهدُ : (هُوَ مَا اخْتَلَطَ بَعْضُهُ ببَعْضٍ مِنَ اللَّهَب الأَحْمَرِ وَالأَصْفَرِ وَالأَسْوَدِ الَّذِي يَعْلُو النَّارَ إذا أُوْقِدَتْ ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَرَجَ إذا اخْتَلَطَ). وَقِيْلَ : إنه نارٌ لا دخانَ لها تكون بين السَّماء الدُّنيا وبين حجاب دونَهما فأديمُ السَّماء يُرَى من ذلكَ الحجاب ، ومن تلك النار تكون الصواعقُ. { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } ؛ أي مَشرِقُ الشَّمسِ في الشِّتاء ، ومشرِقُها في الصَّيفِ ، ومغرِبُها في الشِّتاء ومغربُها في الصَّيف ، ويعني هو ربُّ المشرِقَين وربُّ المغربَين. وَقِيْلَ : معناهُ : هو ربُّ مشرقِ الشمس والقمرِ ومغرِبُهما. { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ } ؛ أي أرسلَ البَحرَين العذبَ والمالِحَ بالإجراءِ في الأرضِ.
ومَرَجْتَ الدابَّةَ إذا أرسَلتَها ترعَى ، ويجوزُ أن يكون معنى مَرَجَ : خَلَطَ ، ومنه الْمَرْجُ لاختلاطِ أشجارِهِ ، وقولهُ تعالى { يَلْتَقِيَانِ } أي يُلاقِي أحدُهما صاحبَهُ ، { بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ } ؛ أي بينهم حاجزٌ من قُدرَةِ اللهِ لا يبغِي العذبُ على المالحِ فيكونان عَذْباً ، ولا يبغِي المالِحُ عليه فيكونان مالحاً.
والمعنى : أنَّ اللهَ ذكرَ عظيمَ قُدرتِهِ حيث خَلاَ البحرَ من العذب والمالح يلتقيان ، وجعلَ بينَهما حاجزاً من قُدرتِهِ وحِكمَتِهِ ، لا يبغِي أحدُهما على صاحبِهِ ، فلا الملحَ يبغِي على العذب فيُفسِدهُ ولا العذبُ على الملحِ فيخلَطُ بهِ. وقيل معنى قولهِ { لاَّ يَبْغِيَانِ } أي لا يَطغِيَانِ على الناسِ بالغرَقِ. { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ } ؛ فيه بيانُ نِعَمِ البحرِ ، واللُّؤلؤ معروفٌ وهو الكبارُ من جنسِ اللُّؤلؤ ، والْمَرْجَانُ : صِغَارُهُ ، وإنما يخرُجان من الملحِ دونَ العذب ، كاللُّقاحِ للملحِ ، إلاّ أنه قالَ { يَخْرُجُ مِنْهُمَا } لأن ذلك لا يوجَدُ إلاَّ بحيث يكون العذبُ والملحُ جميعاً. وَقِيْلَ : المرجَانُ : ضربٌ من الجوهرِ كالقُضْبَانِ يخرجُ من البحرِ.

وقال ابنُ عبَّاس : (يَخْلِقُ اللهُ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ مِنْ قَطْرِ الْمَطَرِ ، وذلك أنَّ السماءَ إذ أمطَرَتْ فتحتِ الأصدافُ أفوَاهها على وجهِ الماء في البحرِ الملح ، فما وقعَ من المطرِ في أفواهِها نزلَ إلى صدرها فانعقدَ لُؤلؤاً).

وقال السديُّ : (الْمَرْجَانُ الْخَرَزُ الأَحْمَرُ). وعن ابنِ مسعودٍ : (أنَّ الْمَرْجَانَ حَجَرٌ). وذكرَ إنْ كانت في جوفهِ صدفةٌ ، فأصابت قطرةٌ بعضَ النواةِ ولم تُصِبْ بعضَها ، فكان حيث أصابَ القطرةَ من النواةِ لؤلؤةٌ وَسَائِرُهُ نَواةٌ.

وسائرُ القرَّاء على أنَّ (يُخْرِجُ) بضمِّ الياء وفتحِ الراء ، وهو اختيارُ أبي عُبيدة وأبي حاتم ؛ لأنه يُخرَجُ ولا يخرَجُ بنفسهِ. وقرأ (يَخْرُجُ) بفتحِ الياء وضمِّ الراء ؛ لأنه إذا أُخرِجَ خرجَ.

فإن قِيْلَ : كيف قال (يَخْرُجُ مِنْهُمَا) وإنما يخرجُ من أحدِهما وهو الملحُ ؟ قِيْلَ : هذا جائزٌ في كلامِ العرب أن يذكر شَيئان ثم يخصُّ أحدَهما وهو يفعلُ دون الآخرِ كقوله تعالى{ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ }[الأنعام : ١٣٠] والرُّسل من الإنسِ دون الجنِّ. قال الكلبيُّ : (وَكَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً }[نوح : ١٦] وَإِنَّمَا هُوَ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا). وَقِيلَ : يخرجُ من ماءِ السَّماء ماءٌ وماء البحر. و { فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ } ؛ فيه بيانُ نِعَمِ الله تعالى بالسُّفن العظَامِ التي ينتفعُ بها للتِّجاراتِ وغيرها ، الْمُنْشَآتُ : المرفوعاتُ الشِّراع ، وما لم يُرفَعْ منها شِرَاعها فلا تكون مُنشَأَةً. وَقِيْلَ : المنشآتُ هي اللَّواتي ابتدأ بهِنَّ في الجريِ ، والأعلامُ الجبالُ العظام ، شبَّهَ السُّفن في البحرِ بالجبال في البرِّ.

وقرأ حمزةُ (الْمُنْشِآتُ) بكسر الشِّين ، يعني المبتدئاتُ في السَّير اللاتي انسابَ جريُهن وسيرُهنَّ { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ } ؛ أي كلُّ مَن على الأرضِ يَفنَى ، وهذه كنايةٌ عن غيرِ مذكورٍ ، ومعنى الآية : كلُّ مَن دبَّ ودرجَ على الأرضِ من حيوانٍ فهو هالكٌ ، وفي هذا منعٌ من الرُّكون إلى الدُّنيا والاغترار بها. قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ : هَلَكَ أَهْلُ الأَرْضِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ }[القصص : ٨٨] فَأَيْقَنَتِ الْمَلاَئِكَةُ بالْهَلاَكِ).

(٠/٠)

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ } ؛ معناهُ : ويبقَى ربُّكَ ، والوجهُ يُذكَرُ على وجهَين : أحدُهما : بعضُ الشَّي كوجهِ الإنسانِ ، والآخر : يقتضِي الشيءَ العظيمَ في الذِّكر كما يقالُ : هذا وجهُ الرَّأي ووجهُ التَّدبيرِ ، ولَمَّا ثبتَ أنَّ الله تعالى ليسَ بجسمٍ ، كان المعنى : ويبقَى اللهُ الظاهرُ بأدلَّته كظُهور الإنسانِ بوجهِهِ.

وقولهُ تعالى : { ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ } أي ذُو العَظَمةِ والكبرياءِ واستحقاقِ المدحِ بإحسانهِ وإنعامهِ.

والإكرامُ : إكرامهُ أنبياءَهُ وأولياءَهُ ، فهو مُكرِمُهم بلُطفِه مع جلالهِ وعظَمتهِ.

وعن معاذ بنِ جبل قال : " مَرَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم برَجُلٍ يُصَلِّي وَهُوَ يَقُولُ : يَا ذا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : " قَدِ اسْتُجِيبَ لَكَ " وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ : قَالَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " الِظُّوا بيَا ذا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ " { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي لا يستغنِي عنهُ أهلُ السَّماء ولا أهلُ الأرضِ ، قال أبو صالح : (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ الرَّحْمَةَ ، وَيَسْأَلُهُ مَنْ فِي الأَرْضِ الْمَغْفِرَةَ وَالرِّزْقَ ، وَالْكُلُّ يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ حَوَائِجَهُمْ).

وقوله تعالى : { كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } ؛ قال المفسِّرون : مِن شأنهِ أنه يُحيي ويُميتُ ، ويرزُقَ ، ويُعِزَّ

ويُذِلَّ ، ويُشفي مريضاً ، ويجيبُ داعياً ، ويعطِي سائلاً ، ويغفِرُ ذنباً ، ويكشِفُ كَرْباً إلى ما لا يُحصَى من أفعالهِ وإحداثهِ في خلقهِ ما شاءَ. وعن أبي الدَّرداءَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنَّهُ قالَ فِي قَوْلِهِ { كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } قَالَ : " مِنْ شَأْنِهِ أنْ يَغْفِرَ ذنْباً وَيُفَرِّجَ كَرْباً وَيَرْفَعَ قَوْماً وَيَضَعَ آخَرِينَ ".

وقال مجاهدُ : (هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أنَّهُ يُجِيبُ دُعَاءَنَا ، وَيُعْطِي سَائِلَنَا ، وَيُشْفِي سَقِيمَنَا ، وَيَغْفِرُ ذُنُوبَنَا وَيَتُوبُ عَلَى قَوْمٍ ، وَيُشْقِي آخَرِينَ). وَقِيْلَ : شأنهُ يخرِجُ كلَّ يوم وليلة ثلاثة عساكرَ : عسكراً من أصلاب الآباءِ إلى الأرحامِ ، وعسكراً من الأرحامِ إلى الدُّنيا ، وعسكراً من الدنيا إلى القبور ، ثم يرحَلون جميعاً إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وحُكي : أنَّ بعضَ الملوكِ سألَ وزيرَهُ عن معنى هذه الآيةِ ، فاستمهلَهُ إلى الغدِ ، ورجعَ الوزيرُ إلى دارهِ كَئيباً لم يعرِفْ ما يقولُ : فقالَ له غلامٌ أسودُ من غِلمَانِهِ : يا مولايَ ما أصابَكَ ؟ فزجرَهُ ، فقالَ : يا مولاي أخبرْني فلعلَّ اللهَ يُسهِّلُ لك الفرجَ على يديَّ ، فأخبرَهُ بذلك ، فقالَ : عُدْ إلى الملكِ فقل له : إنَّ لي غُلاماً أسودَ إنْ أذِنْتَ له فسَّرَ لكَ هذه الآيةَ ، ففعلَ ذلكَ. فدعَا الملكُ الغلامَ فسألَهُ عن ذلك ، فقالَ : أيُّها الملِكُ ؛ شأنُ اللهِ تعالى أنه يولِجُ الليلَ في النهار ويولِجُ النهارَ في الليلِ ، ويُخرِجُ الحيَّ من الميِّت ، ويخرجُ الميتَ من الحيِّ ، ويُشفِي مَريضاً ويُسقِمُ سَليماً ، ويَبتَلِي معافًى ، ويُعافِي مُبتَلِياً ، ويذِلُّ عزيزاً ويُعِزُّ ذليلاً. فقال له الملكُ : أحسنتَ يا غلامُ فرَّجتَ عني. ثم أمرَ الوزيرَ فخلعَ ثيابَ الوزراء فكسَاها الغلامَ ، فقال : يا مولاي هذا شأنُ اللهِ تعالى : { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاَنِ } ؛ هذا وعيدٌ من اللهِ تعالى للخلقِ بالمحاسبة ، كقولِ القائلِ : لأَتَفَرَّغَنَّ لكَ وما به شغلٌ ، وهذا قولُ ابنِ عباس والضحَّاك ، وقال الزجاجُ : (مَعْنَاهُ : سَنَقْصُدُ لِحِسَابكُمْ بَعْدَ التَّرْكِ وَالإمْهَالِ ، وَنَأْخُذُ فِي أمْرِكُمْ وَنَجْزِيَكُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ بَعْدَ طُولِ الإمْهَالِ). وهذا على وجهِ التهديدِ على ما جرَتْ به العاداتُ في استعمالِ هذا اللفظِ ، كما يقولُ الرجُل : سأَفرُغُ لغُلامِي ، يريد سأجعلُ قَصدِي له ، ولا يريدُ بذلك الفراغَ من شُغلٍ هو فيه.

قرأ أُبَي (سَنَفْرُغُ إلَيْكُمْ). وقرأ الأعمشُ (سَيُفْرَغُ لَكُمْ) بياءٍ مضمومة وفتحِ الرَّاء. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف بياءٍ مفتوحة وبضمِّ الراء ، وقرأ الباقون بنونٍ مفتوحة وضمِّ الراء.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيُّهَ الثَّقَلاَنِ } الثَّقَلان الجنُّ والإنسُ ، يدلُّ على ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى بعد ذلك ، سُمِّيا ثقلين

لأنَّهما ثقَلٌ على الأرضِ أحياءً وأمواتاً ، قال الله تعالى{ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا }[الزلزلة : ٢]. وقال جعفرُ الصَّادق : (سُمِّيَ الْجِنُّ وَالإِنْسُ ثَقَلَيْنِ ؛ لأَنَّهُمَا مُثْقَلاَنِ بالذُّنُوب). { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُواْ } ؛ في هذا بيانُ ضَعفِ الخلائقِ عن دفعِ ما ينْزِلُ بهم من قضاءِ الله وعذابهِ ، يقولُ : إنْ قَدَرْتُم على الخروجِ من نواحِي السَّموات والأرضِ فَاخرُجوا هَرباً مما ينْزِلُ بكم في الدُّنيا ، لا تقدِرُون أن تخرجُوا إلاّ بسُلطان يعطيكم الله من قوَّةٍ وحُجةٍ ، فحيث ما كُنتم شاهَدتُم بسُلطان اللهِ تعالى ، وذلك يدلُّكم على وحدانيَّة اللهِ. وَقِيْلَ : معناهُ إن استطعتُم أن تَهربُوا من الموتِ بالخروجِ من أقطار السموات والأرض فاهربُوا واخرجوا. والمعنى : أنَّكم حيث ما كنتم أدرَكَكم الموتُ ، ولن تستطِيعُوا أن تَهربوا منه.
وُقوله تعالى : { لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ } ؛ أي لا تنفُذون إلاَّ بمُلكي ، أي حيث ما كنتم وحيث ما توجَّهتم فثَمَّ مُلكِي وقُدرتِي. وأقطارُ السموات والأرضِ : أطرَافُهما ونواحيهما. وَقِيْلَ في معنى هذه الآيةِ : يأمرُ الله تعالى الملائكةَ يومَ القيامةِ أن تَحُفَّ بأقطار السموات والأرضِ ، ثم يقالُ للجنِّ والإنس : إنِ استطعتُم أن تَنفذُوا من أقطار السَّموات والأرضِ هَرباً من الحساب والعقاب فاهرُبوا. { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ } ؛ أي يرسِلُ على مَن استحقَّ منكما بمعاصيهِ لهبٌ من النار ، والشُّوَاظُ : اللهبُ الذي لا دخانَ فيه. وقرأ ابنُ اكثير (شِوَاظٌ) بكسر الشين وهي لغةُ أهلِ مكة ، قال حسانُ يهجو أُميَّة بن أبي الصَّلت : هَجَوْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ لَهَا بذُلٍّ بقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كَالشُّوَاظِقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُحَاسٌ } ؛ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو : (وَنُحَاسٍ) بالخفض عَطفاً على النار ،

وقرأ الباقون بالرفعِ عطفاً على الشُّواظ. واختلَفوا في معنى النُّحاسِ ، قال ابنُ عبَّاس : (هُوَ الدُّخانُ) وأكثرُ القراءةِ فيه بالرفعِ عَطفاً على (شُواظٌ) ، والمعنى : يرسلُ عليكما شِوَاظٌ ، ويرسل نحاسٌ ؛ أي يرسِلُ هذا مرَّة وهذا مرَّةً ، ويجوز أن يُرسَلا معاً من غيرِ أن يمتزجَ أحدُهما بالآخرِ. وَقِيْلَ : النحاسُ هو الصُّفْرُ المذابُ يُصَبُّ على رُؤوسِهم ، وقال مقاتلُ : (هِيَ خَمْسَةُ أنْهَارٍ مِنْ صُفْرٍ مُذابٍ تَجْرِي عَلَى رُؤُوسِ أهْلِ النَّار) ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَنتَصِرَانِ } ؛ أي فلا تَمتَنِعَانِ عن ما يرادُ بكما.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } ؛ وجهُ إنعامِ الله تعالى علَينا في إنزالِ آيات الوعيدِ : أنه تعالى لَمَّا حذرَنا من العذاب بأبلَغِ أسباب التحذيرِ حتى نتَّقِي المعاصِي خوفاً من عذابِهِ ، ونرغَبُ في الطاعاتِ طَعماً في ثوابِهِ ، كان ذلك نعمةً منه علينا فلذلك قالَ تعالى { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ } ؛ معناهُ : إذا انشقَّت وذابَتْ حتى صارَتْ حمراءَ كلَونِ الوردةِ الحمراء أو كالدُّهنِ الأحمر من نار جهنَّم مع عِظَمِ السَّماء وكبرها ، فكيف بأبدانِكم الضَّعيفة في ذلك اليوم ، وهذا كما رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه : أنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْحَدَّادِينَ فَقَالَ : (أمَّا أنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْحَدَّادِينَ أحَقُّ النَّاسِ بالاتِّعَاظِ وَالاعْتِبَار ، أمَا تَرَوْنَ تَأْثِيرَ هَذِهِ النَّار الضَّعِيفَةِ فِي هَذا الْحَدِيدِ الشَّدِيدِ ؟ فَكَيْفَ تَأْثِيرُ تِلْكَ النَّار الْعَظِيمَةِ فِي هَذِهِ الأَبْدَانِ الضَّعِيفَةِ).

ويقالُ في تشبيهِ السَّماء بالوردةِ : أنَّها تتكوَّنُ في ذلك اليوم ، قال الحسنُ : (إنَّ السَّمَاءَ أوَّلَ مَا تَنْشَقُّ تَحْمَرُّ ثُمَّ تَصْفَرُّ ثُمَّ تَخْضَرُّ كَالْفَرَس الْوَرْدِ ، تَكُونُ فِي الرَّبِيعِ وَرْدَةً إلَى الصُّفْرَةِ ، فَإذا اشْتَدَّتْ كَانَ الشِّتَاءُ كَانَتْ وَرْدَةً حَمْرَاء ، فَإذا كَانَ الْخَرِيفُ كَانَتْ وَرْدَةً أغْبَرَ).

وشبُّهَها بالدهانِ المختلفة التي تُصَبُّ بعضُها على بعضٍ ، والدُّهْنُ والدِّهَانُ واحدٌ ، قال قتادةُ : (إنَّ السَّمَاءَ الْيَوْمَ خَضْرَاءُ وَسَتَكُونُ يَومَ الْقِيَامَةِ حَمْرَاءَ كَالدِّهَانِ). وَقِيْلَ : إنَّ الدهانَ جمعُ الدُّهن ، قال عطاءُ : (يَعْنِي عَصِيرَ الذائِب) ، وقال ابن جُريج : (مَعْنَاهُ : أنَّ السَّمَاءَ تَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الدُّهْنُ الذائِبُ وَذلِكَ حِينَ يُصِيبُهَا حَرُّ نَار جَهَنَّمَ). { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ } ؛ يُسأَلُ سُؤَالَ استفهامٍ ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُظهِرُ على كلِّ مُجرِمٍ علامةً تدلُّ على معصيتهِ ، وعلى كلِّ مُطيعٍ علامةً على إطاعتهِ ، لأنَّ اللهَ تعالى قال بعدَ هذه الآية : { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ } ؛ أي بعَلامَتِهم من سَوادِ الوُجوهِ وزُرقَةِ الأعيُنِ ، { فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ } ؛ فيُجعَلُ أقدامُهم مغلولةً إلى نواصِيهم مِن خَلْفٍ ويلقَونَ في النار كذلك ، والناصيةُ : شَعرُ مقدمِ الرَّأسِ ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

ويقال للمجرمين عندما يُقذفون في النار : { هَاذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ } ؛ يعني المشركين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ } ؛ معناهُ : يطُوفون بين أطباقِ النِّيران وبين ماءٍ حارٍّ قد انتهَى حرُّهُ ، إذا استغَاثُوا من الحميمِ من النار ، جُعِلَ غِيَاثُهم الحميمُ الآخر ، وإذا استغَاثُوا من الحميمِ جُعِلَ غِياثُهم النارُ ، فيُطاف بهم مرَّة إلى الحميمِ ومرَّةً إلى النار.

يقال : آنَى يَأْنِي أناً فهو آنٍ ، إذا انتهَى في النُّضجِ والحرارةِ ، قال قتادةُ : (طُبِخَ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ). حدَّثنا المردوية الصانع قال : صلَّى بنا الإمامُ صلاةَ الصُّبح ، فقرأ فيها سُورةَ الرَّحمن ومَعَنَا عليُّ بنُ الفُضَيلِ ، فلما قرأ { يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ } خَرَّ مَغشِيّاً عليه حتى فَزِعنَا من الصَّلاة ، فقُلنا له بعدَ ذلك : يا عليُّ أمَا سَمِعتَ الإمامَ يقولُ : { حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ }[الرحمن : ٧٢] قالَ : شغَلَنِي عنها { يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ }. { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } ؛ معناهُ : ولِمَن خافَ وُقوفَهُ في عرَضَاتِ القيامةِ بين يَدَي اللهِ تعالى ، فتَركَ المعصيةَ رهبةً من اللهِ تعالى له جنَّتان بُستَانَانِ من الياقوتِ الأحمرِ والزمُرُّد الأخضرِ ، تُرَابُهما الكافورُ والعنبَرُ ، وحصَاهُما المسكُ الأَذْفَرُ ، كلُّ بستانٍ منهما مسيرةُ مائةِ سنة ، في وسطِ كلِّ

بستانٍ دارٌ من نورٍ ، وقال محمَّد بن علي الترمذي : (جَنَّةٌ دَاخِلَ قَصْرِهِ لِخَوْفِهِ وَجَنَّةٌ خَارِجَ قَصْرِهِ لِتَرْكِهِ) ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

وفي الحديث : " أنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَنْ دَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى الْمَعْصِيَةِ ، فَإِذا تَمَكَّنَ مِنْهَا وَقَدَرَ عَلَيْهَا وتَذَكَّرَ مَا فِي ارْتِكَابِهَا مِنَ الْعِقَاب ، وَمَا فِي تَرْكِهَا مِنَ الثَّوَاب ، فَتَرَكَهَا فَلَهُ جَنَّتَانِ " هذه صِفتُهما : { ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ } ؛ أي ذواتا أغصانٍ ، واحدُها فَنَنٌ وهو الغصنُ المستقيم طُولاً. وقال الزجَّاجُ : (الأَفْنَانُ : الأَلْوَانُ وَالأَغْصَانُ) أي ذواتَي الألوانِ وأصنافٍ من الفاكهةِ لا يُعدَمُ فيه لونٌ من ألوانِها ، واحدُها فَنٌّ ، وجمعَ عطاءُ بين القولَين فقالَ : (يُرِيدُ فِي كُلِّ غُصْنٍ فُنُونٌ مِنَ الْفَاكِهَةِ) ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

وفي ذكرِ الأغصان بيانُ كَثرَةِ الأشجار ، وبكثرةِ الأشجار تمامُ حالِ البُستان ، فإنَّ البستانَ لا يكملُ إلاَّ بكثرةِ الأشجار ، والأشجارُ لا تحسُن إلاَّ بكثرةِ الأغصانِ ، { فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ } ؛ أي في البساتينِ عَينان تجريان ، إحداهما : السَّلْسَبيلُ ، والأُخرى : التَّسْنِيمُ ، تجريان في غيرِ شِقٍّ ولا أُخدُودٍ. { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ } ؛ أي نَوعَان وصِنفَان ، حلوٌ وحامضٌ ، وأحمرٌ وأصفرٌ ، ورَطبٌ ويابسٌ. ويقال : صِنفَان : صنفٌ عَهِدُوهُ في الدُّنيا ، وصنفٌ لم يَعهَدوهُ ولا خطرَ في قلوبهم ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ } ؛ أي جالسِين جلسةَ الملوكِ مُكرَمِين على فُرُشٍ بَطَائِنُها من استبرقَ ، البطَانَةُ : الصَّفحَةُ مما يلِي الأَرضَ في البطانةِ ، والاستبرقُ : الدِّيبَاجُ المنسوجُ بالذهب.

وإنما ذُكرت البطائنُ من استبرقَ لتعرف أنَّ البطائنَ إذا كانت هكذا ، فالظاهرُ لا شكَّ أنَّها أشرفُ منها

على ما عليهِ العادةُ ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : (هَذِهِ الْبَطَائِنُ ؛ فَمَا ظَنُّكُمْ بالظَّوَاهِرِ). وقيل لسعيدِ بن جُبير : الْبَطَائِنُ مِنْ اسْتَبْرَقَ فَمَا الظَّوَاهِرُ ؟ قَالَ : (هَذا مِمَّا قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ }[السجدة : ١٧]). وقال ابنُ عبَّاس : (وَصَفَ الْبَطَائِنَ وَتَرَكَ الظَّواهِرَ ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي الأَرْضِ أحَدٌ يَعْرِفُ مَا الظَّوَاهِرُ؟).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ } ؛ أي ثَمَرُهما قريبٌ مُتَنَاوَلُهُ ، يناوَلهُ القائمُ والقاعد والمضطجعُ ، يأخذهُ كيف ما أرادَ ، ويدنُو إلى أفواهِهم حتى يناولونَهُ بالأفواهِ ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ } ؛ أي في هاتَين الجنَّتين وما حولهما من الجنانِ حورٌ غاضَّاتُ الأعيُن ، قد قَصَرْنَ أطرَافَهُنَّ على أزواجِهن لا ينظُرنَ إلى غيرِهم ولا يَبغِينَ بهم بدَلاً.

والطَّرْفُ : جَفْنُ العينِ ، ويجوز أن يكون معنى { فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ } أي في الفُرُشِ التي بَطائِنُها من استبرقَ ، وقال زيدٌ : (إنَّ الْمَرْأةَ مِنَ الْحُور الْعِينِ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ تَقُولُ لِزَوْجِهَا : وَعِزَّ رَبي مَا أرَى فِي الْجَنَّةِ شَيْئاً أحْسَنَ مِنْكَ ، فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنِي زَوْجَكَ وَجَعَلَكَ زَوْجِي).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ } ؛ أي لم يَفْضُضْهُنَّ ، والطَّمْثُ : هو النكاحُ بالتدميةِ ، وامرأةٌ طَامِثَةٌ ؛ أي حائضٌ ، وطَمَثْتَ الجاريةَ إذا افْتَرَعتَها ، والمعنى : لم يَغْشَهُنَّ ولا يُجامِعهُنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ ؛ لأنَّهن خَلقَهُنَّ في الجنَّة ، وَقِيْلَ : الطمثُ هو الْمَسُّ ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ } ؛ أي كأنَّهن في صَفاءِ الياقوتِ وبياضِ المرجان ، والمرجانُ : هو صغارُ اللُّؤلؤ وهو أشدُّ بيَاضاً من كبارِهِ. وعن عبدِالله بن مسعود عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " أنَّ الْمَرْأةَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ يُرَى بَيَاضُ مُخِّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً مِنْ حَرِيرٍ " ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ } ؛ أي ما جزاءُ مَن أحسنَ في الدُّنيا إلاّ أن يُحسَنَ إليه في الآخرةِ ، قال ابنُ عباس : (هَلْ جَزَاءُ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَعَمِلَ بمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم إِلاَّ الْجَنَّةُ). وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ بمَعْرِفَتِي وَتَوْحِيدِي إِلاَّ أَنْ أُسْكِنَهُ جَنَّتِي وَحَضِيرَةَ قُدْسِي برَحْمَتِي " { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ } ؛ معناهُ وله جنَّتان سِوَى الجنَّتين الأَوليَين ، وهما دون الأُوليين. قال بعضُهم : أرادَ بالجنَّتين الأُولَين جنَّتين في العُلُوِّ ، وأراد بهذين جنَّتين في السُّفلِ ، قال صلى الله عليه وسلم : " هُمَا جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا مِنْ فِضَّةٍ " وَقِيْلَ : معناهُ : { وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ } أي أقربُ إلى قصرهِ ومَجَالسهِ من الجنَّتين الأُوليين ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُدْهَآمَّتَانِ } ؛ أي خَضرَاوَانِ تضربُ خُضرَتُهما من الرَّائي إلى السَّواد ، وذلك أحسنُ ما يكون في الْخُضرَةِ أولاهم الأسودُ ، يقال : ادْهَامَّ الزرعُ إذا علاهُ السَّواد رَياً. { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ } ؛ أي فوَّارَتان بالماءِ من الامتلاءِ ، تنضخُ على أولياءِ الله بالمِسْكِ والعنبرِ والكافور والخير والبركة ، بخلافِ العَينين للأُوليين ، والنضخُ أكثر من النضح ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ } ؛ أي فيهما ألوانُ الفاكهةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرُمَّانٌ } يستدلُّ لأبي حنيفة أنَّ النخلَ الرُّمان ليسَا من الفاكهةِ ؛ لأن الشيءَ لا يعطفُ على نفسهِ ، وعند أبي يوسفَ ومحمَّد هما من الفاكهةِ ، وإنَّ عَطفَهما على الفاكهةِ لزيادةِ معنى فيهما لا يوجدُ في سائرِ الفواكهِ ، كما في قوله تعالى : { مَن كَانَ عَدُوّاً للَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ }[البقرة : ٩٨]. ورُوي : أنَّ نخيلَ الجنةِ ، عُروقُها من فضَّة ، وجذوعُها ذهبٍ ، وسقفها حُلَلٌ ، وثمرُها أحلَى من العسلِ وأليَنُ من الزُّبد ، ليس له عجمٌ ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ } ؛ قرأ أبو رجَاء (خَيِّرَاتٌ) بالتشديدِ ، وما لُغتان مثل هَين وهَيِّنٍ ولِين ولَيِّنٍ ، وعن أُمِّ سلمَةَ قالت : " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِهِ { خَيْرَاتٌ حِسَانٌ } قَالَ : " خَيِّرَاتُ الأخْلاَقِ حِسَانُ الْوُجُوهِ " وَقِيْلَ : خيِّراتٌ فاضلات مختاراتٌ ليس بذربَاتٍ ولا

دَفواتٍ ولا بَحِراتٍ ولا مُتسَلِّطاتٍ ولا طمَّاحَاتٍ ولا طوَّافات في الطُّرق ، { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } ؛ .

(٠/٠)

حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ } ؛ الحورُ البيضُ الحسانُ البياضِ ، والمقصوراتُ هن المحجوباتُ المحبوسات والْمَصُونَاتُ. والخِيَامُ : جمعُ خيمةٍ ، وهي خيمةٌ من دُرَّةٍ مجوَّفةٍ فيها أربعةُ آلافِ مِصرَاعٍ من ذهبٍ ، طولُ الخيمةِ في السَّماء ستُّون ميلاً ، في كلِّ زاويةٍ أهلٌ لا يرَاهم الآخَرُون. { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ } ؛ يعني أنَّ صِفَتَهُنَّ كصفةِ القاصرات الطَّرفِ. { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧)

وقولهُ تعالى : { مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ } ؛ قال أبو عُبيدة : (الرَّفْرَفُ : الْبُسُطُ) قاله الضحَّاكُ ومقاتلُ والحسن. وقال الزجَّاجُ : (الرَّفْرَفُ هَهُنَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ). وَقِيْلَ : الرَّفرَفُ الوسائدُ. وأما العبقريُّ : فهو البُسُطُ من الزَّرَابيِّ وغيرِها ، وكلُّ ما بُولِغَ في وَصفهِ فهو عبقريٌّ ، وأصلهُ أنَّ عَبْقَرِيَّ اسمُ

بلدٍ كان يُوَشَّى فيها البُسُطُ ، وكانت العربُ تعتقدُ أنَّ أفضلَ البُسُطِ ما نُسِجَ بعَبْقَرَ ، فأضافَهُ اللهُ تعالى على عادَتِهم. { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }.

(٠/٠)

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ } ؛ أي عَظُمَتِ البركةُ في اسمِ ربكَ ، فاطلبُوا البركةَ في كلِّ شيءٍ يُذكَرُ فيه اسمهُ ، قرأ ابنُ عامر (ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ).

(٠/٠)

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١)

{ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : إذا قَامَتِ الْقِيَامَةُ) ، والواقعةُ اسمُ القيامةِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : إذا نزَلتِ الصَّيحَةُ وتلك النفخةُ الآخرة.

(٠/٠)

لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ } ؛ أي لِمَجِيئها وظُهورها كاذبةٌ ولا ردٌّ ولا خلاف ، وقوله { رَّافِعَةٌ } أي تخفِضُ ناساً وترفعُ آخَرين ، قال عطاءٌ : (تَخْفِضُ أَقْوَاماً كَانُواْ فِي الدُّنْيَا مُرَفَّعِينَ ، وَتَرْفَعُ أَقْوَاماً كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُتَّضِعِينَ). وَقِيْلَ : تخفضُ قوماً إلى النار ، وترفعُ آخَرين إلى الجنَّة.

(٠/٠)

إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً } ؛ أي زُلزِلَتِ الأرضُ ورُجِّعَتْ وتحرَّكت حركةً شديدة حتى ينهدمَ كلُّ بناءٍ على وجهِ الأرض. قولهُ : { وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً } ؛ أي فُتَّتْ فَتّاً فصارت كالدَّقيق الْمَبْسُوسِ وهي المبلولُ ، والبَسِيسَةُ عند العرب الدقيقُ والسَّوِيقُ يُلَتُّ ويُتَّخذ زَاداً. قِيْلَ : إنَّ الجبالَ تصيرُ يومئذٍ كالدَّقيق أو السَّويق.

(٠/٠)

فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦)

وقوله تعالى : { فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً } ؛ أي صَارَتْ غُباراً متفَرِّقاً كالذي يسفعُ من حوافرِ الدَّواب ، ويحولُ في شُعاعِ الشَّمسِ إذا دخلَ من الكُوَّةِ وهو الهباءُ ، فيَقبضُ القابضُ فلا يحصِّلُ بيدهِ ، وقرأ النخعيُّ (مُنْبَتّاً) بالتاء أي مُنقَطِعاً.

(٠/٠)

وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً } ؛ معناهُ : وكنتم يومئذٍ أصْنَافاً ثلاثةً ، ثم فسَّرَهم فقالَ اللهُ : { فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ } ؛ يعني الذين يُعطَون كُتُبَهم بأَيمانِهم. وَقِيْلَ : همُ الذين يُسلَكُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّة.

(٠/٠)

وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ } ؛ هم أصحابُ الشُّؤْمِ والتكذيب ، وَقِيْلَ : هم الذين يُعطَون كُتبَهم بشِمَالهم ، ويُسلَكُ بهم طريقَ الشِّمال إلى النار ، ويقالُ لليد اليُسرى الشَّوْمَاءَ ، قال الشاعرُ : الشَّتْمُ وَالشَّرُّ فِي شَوْمَاءِ يَدَيْكَ لَهُمْ وَفِي يَمِينِكَ مَاءُ الْمُزْنِ وَالضَّرْبومنه الشَّامُ واليمنُ ؛ لأن اليمنَ على يمينِ الكعبةِ ، والشامُ على شِمَالِها إذا دخلتَ الحِجْرَ تحت الميزاب. وَقِيْلَ : هم الذين كانوا على شِمَالِ آدمَ عندما أخرجَ الذُّريةَ ، وقال اللهُ لَهم : " هَؤُلاَءِ فِي النَّارِ وَلاَ أُبَالِي ".
وقولهُ تعالى : { مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ } و { مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ } تعجيبٌ لشأنِ أصحاب الْمَيمَنَةِ في الخيرِ ، والترغيبُ في طريقتِهم كما يقالُ : فقيهٌ أيُّ فقيهٍ ، وتعظيمٌ لشَرِّ أصحاب المشأَمة والتحذيرُ عن طريقتِهم.

(٠/٠)

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } ؛ بيانٌ للصنِّفِ الثالثِ ، والمعنى : والسَّابقون في الدُّنيا إلى الطاعاتِ ، هم السَّابقون في العُقبَى إلى الدرجاتِ ، وَقِيْلَ : همُ الذين سَبَقوا إلى توحيدِ الله والإيمانِ برسوله.
وقال ابنُ سِيرين : (هُمُ الَّذِينَ صَلَّواْ إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ ، وَشَهِدُواْ بَدْراً) ، دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ }[التوبة : ١٠٠] ، وقال ابنُ عبَّاس : (هُمُ السَّابقُونَ إِلَى الْهِجْرَةِ) ، وقال عليٌّ رضي الله عنه : (هُمُ السَّابقُونَ إِلَى الصَّلوَاتِ الْخَمْسِ) ، وقال ابنُ جبير : (الْمُسَارعُونَ إِلَى التَّوْبَةِ وَإِلَى أعْمَالِ الْبرِّ) ، ونظيرهُ{ سَابِقُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ }[الحديد : ٢١] ، وقال{ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }[المؤمنون : ٦١].

(٠/٠)

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } ؛ أي همُ المقرَّبُون إلى كرامةِ الله تعالى وجزيلِ

ثَوابِهِ في أعلَى الدرجاتِ ، ثم أخبرَ أين محِلُّهم فقالَ { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ }. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ } ؛ أي جماعةٌ من أوائلِ الأُمم مِمَّن صدَّق بالنبيِّين من ولدِ آدم إلى زمانِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، { وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ } ؛ أي مِن هذه الأُمَّة ، وذلك أنَّ الذين عَايَنُوا جميعَ النبيِّين وصدَّقُوا بهم أكثرُ ممن عايَنَ نبيَّنا صلى الله عليه وسلم ، ألاَ ترَى إلى قولهِ تعالى : { وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ }[الصافات : ١٤٧] هؤلاءِ سِوَى مَن آمنَ بجميعِ الأنبياء وصدَّقَهم ، والثُّلَّةُ في اللغة : هي الْقِطْعَةُ ، الكثرةُ من النَّاسِ ، والجماعةُ الذين لا يُحصَى عدَدُهم.

(٠/٠)

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ } ؛ أي على سُرُرٍ منسُوجَةٍ بقُضبَانِ الذهب والفضة والجواهرِ ، قد أُدخِلَ بعضُها في البعضِ مضاعفةً. قال الأعشَى : وَمِنْ نَسْجِ دَاوُودَ مَوْضُونَةً تُسَاقُ مَعَ الْحَيِّ عِيراً فَعِيرَاوإنما قالَ { عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ } لأنَّها إذا كانت على هذهِ الصِّفة ، كانت أنعمَ وألينَ من السُّرُر التي تُعمَلُ من الخشب ، قال الكلبيُّ : (طُولُ كُلِّ سَرِيرٍ ثَلاَثُمِائَةِ ذِرَاعٍ ، فَإذا أرَادَ الْعَبْدُ أنْ يَجْلِسَ عَلَيْهَا تَوَاضَعَتْ ، فَإذا جَلَسَ عَلَيْهَا ارْتَفَعَتْ). وقال الضَّحاكُ : (مَوْضُونَةٌ : أيْ مَصْفُوفَةٌ) ، يقالُ : آجُرٌّ مَوْضُونٌ إذا صُفَّ بعضهُ على بعضٍ.

(٠/٠)

مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ } ؛ أي جَالِسين عليها جلسةَ الملوكِ للرَّاحةِ مُتقَابلِينَ ، يقال بعضُهم بعضاً في الزِّيادة : إذا اشتهَى أحدُهم حديثَ صاحبِهِ ، ألقَى اللهُ في نفسِ الآخرِ مثلَ ذلك ، وأمَرَ كلُّ واحدٍ منهم بسَرِيرِه فأُخرِجَ على باب مَنْزلِهِ ، ثم جلَسَا على سَرِيرَيهِما يتحدَّثان ، يسمعُ كلُّ واحدٍ منهما حديثَ صاحبِهِ وإن بَعُدَ عنهُ ، وإذا شاؤوا سارَتْ سريرُهم إلى حيث يشَاؤونَ.

(٠/٠)

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ } ؛ أي يطوفُ عليهم للخِدمَةِ غِلمَانٌ لا يهرَمُون ولا يتغيَّرون ولا يموتون ، خُلِقُوا للخُلودِ وهم دَائِمُون ، ويقالُ : معنى { مُّخَلَّدُونَ } مقرَّطُون مُسَوَّرونَ من الْخِلْدَةِ وهي الْحُلِيُّ ، يقالُ : خَلَّدَ جَارِيَتَهُ إذا أحْلاَها بالْخُلْدِ وهو القُرْطُ.

(٠/٠)

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ } ؛ الأكوابُ جمعُ كُوبٍ ، وهي الكيزانُ العِظَامُ المدوَّرَةِ الرؤوس التي لا آذانَ لها ولا خرطومَ ولا عُرًى ، والأباريقُ والأوانِي التي لها عُرًى وخراطيمُ ، واحدها إبريقٌ ، وهو الذي يَبرِقُ من صفائِهِ وحُسنهِ وبريقِ لَونهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ } ؛ الكأسُ : الإناءُ الذي فيه الشَّرابُ ، والْمَعِينُ : الخمرُ الذي يجرِي من العُيون الظَّاهرةِ لا في الأُخدُودِ ، والمعنى : وكأسٍ من خمرٍ جارية. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ } ؛ أي لا يُصِيبُهم من شربها صداعٌ كما يكون في شُرب خمرِ الدُّنيا ، ولا تَنْزِفُ عقُولُهم ، يقال للرَّجُلِ إذا سَكِرَ : نَزَفَ عقلهُ ، والنَّزِيفُ هو السُّكرَانُ.

(٠/٠)

وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ } ؛ معناه : ويُؤتَونَ بفاكهةٍ مما يتخيَّرون ليس لها فناءً ولا نَوَى ، ظاهرُها مثلُ باطِنها ، وباطِنُها مثلُ ظاهِرها.

(٠/٠)

وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ } ؛ يُؤتَون بلحمِ طيرٍ مما يتمَنَّون ، كما رُوي في الحديثِ : " أنَّهُمْ إذا اشْتَهَوا لَحْمَ الطَّيْرِ وَقَعَ بَيْنَهُمْ مَشْوِيّاً ، فَيَتَنَاوَلُونَ مِنْهُ قَدْرَ الْحَاجَةِ ، ثُمَّ يَطِيرُ كَمَا كَانَ " وهذا لأنَّ الذبحَ لا يكون إلاَّ بإراقةِ الدمِ ، وذلك لا يكون في الجنَّة.

وعن أبي سعيدٍ الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ فِي الْجَنَّةِ طَيْراً فِيْهِ تِسْعُونَ أَلْفَ ريشَةٍ ، يَجِيءُ فَيَقَعُ عَلَى صَحْفَةِ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ يَنْتَفِضُ فَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ ريشَةٍ لَوْنُهُ أَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ وَأعْذبُ مِنَ الشَّهْدِ ، لَيْسَ فِيْهِ لَوْنٌ يُشْبهُ الآخَرَ ، ثُمَّ يَطِيرُ فَيَذْهَبُ ".

(٠/٠)

وَحُورٌ عِينٌ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحُورٌ عِينٌ } ؛ قرأ أبو جعفرٍ وحمزةُ والكسائي (وَحُورٍ) بالخفضِ على معنى ويُنَعَّمُونَ بحُورٍ عينٍ ، ويجوزُ أن يكون خَفْضاً على الْمُجَاوَرَةِ ؛ لأنه معطوفٌ على قولهِ { وَفَاكِهَةٍ... وَلَحْمِ طَيْرٍ }.

والْحُورُ : الْبيضُ الْحِسَانُ ، والعِينُ : الواسعةُ الأَعيُنِ حِسَانُها ، وقرأ النخعيُّ وأشبهَ العقلي (وَحُوراً عِيناً) بالنصب على معنى ويُزَوَّجُونَ حُوراً عِيناً ، وبالرفع على معنى : ولهم حورٌ عين.

(٠/٠)

كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ } ؛ معناهُ : أنَّ صفاءَ هذه كصَفاءِ الدُّرِّ حين يخرجُ من صَدَفِهِ قبلَ أن تُصِيبَهُ أو هواءٌ أو شمس أو غبارٌ.

وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " خُلِقَ الْحُورُ الْعِينُ مِنْ زَعْفَرَانٍ "

وعن أبي أُمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلاَّ وَهُوَ مُزَوَّجٌ

ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً ، لَيْسَ مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ إلاَّ وَلَهَا قُبُلٌ شَهِيٌّ ، وَلَهُ ذَكَرٌ لاَ يَنْثَنِي ".
وعن ابنِ مسعودَ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " سَطَعَ نُورٌ فِي الْجَنَّةِ ، فَقَالُواْ : مَا هَذا ؟ قَالُواْ : ضَوْءُ ثَغْرِ حُورٍ تَبَسَّمَتْ فِي وَجْهِ زَوْجِهَا ".
ويُروى : أن الحورَ إذا مشَتْ سُمِعَ تقديسُ الْخَلاَخِلِ وتمجيدُ الأَسَاور في سَاعِدَيها ، إن عِقْدَ الياقوت في نَحرِها ، في رجلَيها نَعلاَنِ من ذهبٍ شِراكُهما من اللُّؤلؤ يَصِيرَّانِ بالتسبيحِ والتحميدِ.

(٠/٠)

جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ فيه بيانُ أنَّ هذه الأشياءَ جزاءٌ لهم على أعمالِهم الصالحةِ التي كانوا يعملونَها في الدُّنيا.

(٠/٠)

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧)

وقوله تعالى : { لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً } ؛ أي لا يسمَعون في الجنَّة إلاَّ قولاً يَسلَمُون فيه من اللَّغوِ والتأثيمِ ، واللَّغوُ : الكلامُ الذي لا فائدةَ فيه ، التَّأثِيمُ : أن يُؤثِمَ بعضُهم بعضاً ولا يتكلَّمون بما فيه إثْمٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً } ؛ أي ولكن يقُولون قِيْلاً ويَسمَعون قِيْلاً سَلاَماً يَسلَمُون فيه من اللَّغوِ والإثمِ. قال عطاء : يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضاً بالسَّلاَمِ عَلَى أحْسَنِ الآدَاب وَكَرِيمِ الأَخْلاَقِ مَعَ كَمَالِ النَّعِيمِ ، وَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ : سَلَّمَكُمُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْمَكَارِهِ).
هذا كله نعتُ السَّابقين ، ثم ذكرَ الصنفَ الثاني :
فقال تعالى : { وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ } ؛ وهم عامَّةُ المؤمنين دون النَّبيِّين والصدِّيقين والشُّهداء والصالحين ، ما تَدري ما لَهم يا مُحَمَّدُ في الجنَّة من النعيمِ والسُّرور.

(٠/٠)

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ } ؛ السِّدرُ شجرٌ مُثمِرٌ مرتفعُ المنظرِ ، طيِّبُ الرائحةِ. والمعنى : في ظِلاَلِ سِدْرٍ قد نُزِعَ شوكهُ وكَثُرَ حَملهُ ، والْخَضْدُ عطفُ العُودِ اللِّيِّنِ ، ولذلك قِيْلَ : لا شوكَةَ فيهِ ، قد خَضَّدَ شوكَهُ ؛ أي قطعَ ، ومنه الحديثُ : " لاَ يُخْضَدُ شَوْكُهَا وَلاَ يَعْضَدُ شَجَرُهَا ".
وقال مجاهدُ والضحاك ومقاتل : (مَعْنَى قَوْلِهِ { مَّخْضُودٍ } أيْ مُوقَرُ حِمْلاً) ، ويقالُ : إنَّ السِّدْرَ شجرُ النَّبَقِ إلاَّ أنَّ ثَمَرَةَ تلك الشجرةِ لا تكونُ مثل شجرِ النَّبَقِ في الدُّنيا ولا رائحتُها تشبهُ رائحتَها.

(٠/٠)

وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ } ؛ الطَّلْحُ شجر الْمَوْز ، وقوله { مَّنضُودٍ } أي بتَرَاكُب الموز على أغصَانِها من أوَّلها إلى آخرِها ، فليس لها شَوكٌ بارزٌ ، وقال الحسنُ : (الطَّلْحُ شَجَرٌ لَهُ ظِلٌّ بَارِدٌ طَيِّبٌ) ، وقرأ علي رضي الله عنه (مَعْضُودٍ) بالعينِ أي تحل بتَراكُب الرُّطب على أغصانِها كما في قوله{ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ }[ق : ١٠].

(٠/٠)

وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ } ؛ أي لا تنسخهُ الشمسُ ، قال الربيع : (يَعْنِي ظِلَّ الْعَرْشِ) ، قال عمرُو بن ميمون : (مَسِيرَةَ سَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ). وعن أبي هريرة قالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا ، شَجَرُ الْخُلْدِ ، إقْرَأوْاْ إنْ شِئْتُمْ { وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ } ".

(٠/٠)

وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ } ؛ أي ماءٍ مَصبُوبٍ عليهم من ساقِ العرشِ في أوعِيَتِهم يشرَبوهُ على ما يرَونَ من حُسنهِ وصفائهِ وطيب رائحتهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : وماءٍ مَصبُوبٍ يجرِي دائماً في غيرِ أُخدُودٍ لا ينقطعُ.

(٠/٠)

وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ } ؛ أي وأنواعِ فاكهةٍ كثيرةٍ ، لا ينقطعُ عنهم في وقتٍ من الأوقاتِ ، بخلافِ فاكهة الدُّنيا ، ولا تكون مَمنوعةً ببُعدِ مُتناوَلٍ أو شوكةٍ تُؤذِي ، بخلافِ ما يكون في الدُّنيا. وَقِيْلَ : لا مقطوعةٍ بالأزمانِ ولا ممنوعةٍ بالأثمانِ ، ولا ينقطعُ ثَمرُها إذا جُنيَت بل يخرجُ مكانَها مثلُها. قال صلى الله عليه وسلم : " مَا قُطِعَتْ ثَمَرَةٌ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ إلاَّ أُبْدِلَ مَكَانَهَا ضِعْفَيْنِ ".

(٠/٠)

وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ } ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " ارْتِفَاعُهَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ ، مَوْضُوعَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إذا أَرَادَ الْعَبْدُ أنْ يَجْلِسَ عَلَيْهَا تَوَاضَعَتْ حَتَّى يَجْلِسَ ، ثُمَّ تَرْتَفِعُ فِي الْهَوَاءِ " قال عليٌّ رضي الله عنه : (مَرْفُوعَةٌ عَلَى الأَسِرَّةِ).
وَقِيْلَ : إنه أرادَ بالفُرشِ هَهُنا النساءَ المرتَفِعات القدر في عُقولِهنَّ وحُسنِهنَّ وكمالهن ، رُفِعْنَ بالْحُسنِ والجمالِ والفضلِ على نساءِ الدُّنيا ، ودليلُ هذا التأويل قوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ

أَبْكَاراً } ؛ وقد تُسمَّى المرأةُ فِرَاشاً ولِبَاساً.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً } أي خَلقنَاهُنَّ لأوليائِنا بلا ولادةٍ ولا تربية ، بخلافِ نساء الدُّنيا.
وَقِيْلَ : المرادُ بهذه الآية نساءَ أهلِ الدُّنيا يُخلَقْنَ خَلْقاً بعدَ خلقٍ ، كما رُوي في بعض الأحاديثِ : " أَنَّهُنَّ عَجَائِزُكُمْ فِي الدُّنْيَا جُعِلْنَ صَبَايَا ، وَيُلْبَسْنَ مِنَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ أَكْثَرَ مِمَّا يُلْبَسُ الْحُورُ الْعِينُ ؛ لأَنَّهُنَّ عَمِلْنَ فِي الدُّنْيَا ، وَالْحُورُ لَمْ يَعْمَلْنَ ".

(٠/٠)

عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ } ؛ العُرُبُ : جمعُ عَرُوبٍ ، وهي الْمُتَحَبِّبَةُ إلى زوجِها اللاَّعِبَةُ معه أُنْساً به ومحبَّةً له ، قال المبرِّدُ : (هِيَ الْعَاشِقَةُ لِزَوْجِهَا الْحَسَنَةُ التَّبَعُّلِ لَذِيذةُ الْكَلاَمِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَتْرَاباً } أي مُستويات في السنِّ على ميلادٍ واحد ، كلُّهن في سنِّ ثلاثٍ وثلاثين سنةً ، سِنُّهُنَّ مثلُ سنِّ أزواجِهن ، ومثلُ هذا يكون أبلغُ في اللَّذة. قولهُ { لأَصْحَابِ الْيَمِينِ } أي جميعُ الذي ذكرنَاهُ لأصحاب اليمين. وَقِيْلَ : معناه : فَأنشَأْناهنَّ إنشاءً لأصحاب اليمين.

(٠/٠)